Holy Dead

نصف ميت

دفن حياً

رواية

حسن الجندي



نصف ميت

" دُفن حياً "

نصف ميت
دُفن حياً
حسن الجندي
رواية
تدقيق لغوي : سارة سرحان
تصميم الغلاف : عبد الرحمن الصوّاف
رقم الإيداع : ٢٠١٠/٢٢٨٥٩
I.S.B.N:978- 977- 488- 081- 0

دار اكتب للنشر والتوزيع



الإدارة : ١٠ ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة .
المدير العام : يحيى هاشم
هاتف : ٠١١١٠٦٢٢١٠٣ - ٠١١٤٧٦٣٣٢٦٨
E – mail :daroktob1@yahoo.com
دار اكتب للنشر والتوزيع : Facebook

الطبعة الثانية ، ٢٠١٣م

نصف ميت

دُفن حياً

حسن الجندي

رواية



دار اكتب للنشر والتوزيع

إهداء

إلى والدي رحمه الله، كنت أتمنى أن أراك ولو لمرة واحدة في حياتي.

إلى جدي رحمه الله، أتمنى أن أتحدث معك ولو لثانية واحدة.

(لطالما أنتظر اللحظة التي ستقبض فيها روحي،
لذلك أهدي تلك الرواية إلى الموكل بقبض روحي .. إلى
ملك الموت)

الإهداء المكتوب في الرواية الأصلية

مقدمة

شكر خاص لكل من سمح لنا باستخدام تفاصيل أحداث حياته الواقعية في تلك الرواية، وكل من وافق على استخدامنا لمعلومات حقيقية عن أشخاص راحلين يمتون لهم بصلة قرابة، ونهدي لهم هذه الرواية محققين وعدنا بعدم نشر الأسماء أو الأماكن أو التواريخ الحقيقية بقدر الإمكان للشخصيات الحقيقية حفاظًا على حرمتهم الشخصية واحترامًا لحرمة الموت.

وعليّ إعادة كتابة تلك الأحداث بتوجيهات من الأشخاص الحقيقيين أو من أقربائهم الأحياء.

الفصل الأول

البداية

٥ أغسطس ٢٠٠٦ الساعة التاسعة

هذا السائق يعرف طرقًا غريبة بحق، فهو يقود الحافلة متجهًا إلى الإسكندرية ولكنه يسلك طرقًا عجيبة ويقف عند محلات مأكولات كثيرة، ويعلن للركاب أنهم يمكنهم النزول لعشر دقائق لشراء ما يحتاجونه، يعرف الركاب بالطبع أنه يتفق مع تلك المحلات مسبقًا كي يأتي بالركاب إليها، ولكن ما باليد حيلة.

فيجب عليهم أن يتحملوا بصبر حتى يصلوا إلى الإسكندرية بسلام، مرت ساعتان منذ تحركهم من موقف السيارات في القاهرة وقد ساعد الظلام داخل الحافلة على انتشار النوم بين الركاب، حتى إن الجميع لم يعترضوا على وقوف السائق أكثر من مرة على جانب الطريق ليدخن سيجارة ثم يعود ليكمل مرة أخرى السير..

هدوء تام داخل السيارة إلا من بعض الأشخاص الذين يستيقظون بين الحين والآخر ينظرون حولهم بنصف عين ثم يغيرون أوضاعهم ليكملوا النوم مرة أخرى، خذ عندك مثلًا هذا الشاب الذي يجلس بجانب إحدى النوافذ وهو يرتكن برأسه للوراء ويبتسم ناظرًا إلى السقف، يبدو أنه يسرح في عالم من الخيالات السعيدة.

وخاصة وهو يقرب علبة صغيرة يقبض عليها بين يديه إليه ثم يفتحها لتظهر داخلها دبلة ذهبية صغيرة بجانب دبلة أخرى من الفضة وعلى الدبلتين نقشت حروف بارزة.. نظر الشاب حوله ليتأكد من أن أحدهم لا يراقبه ثم قرب الدبلة الذهبية من شفتيه وقبلها وهو يغمض عينيه متخيلًا حبيبته، أعادها مرة أخرى ليده ليطبق عليها وينظر لسقف السيارة ويعيش في تخيلاته مرة أخرى..

عندما كنت صغيرًا شاهدت أحد الأفلام القديمة وفي بداية الفيلم تظهر لقطة على الشارع والكثير من الناس يمرون، ثم يقول الراوي إن لكل واحد من هؤلاء حكاية مختلفة، ويمكن للمشاهدين اختيار أحدهم كي يبدأ الراوي في سرد حكايته، وأنا أقول إن لكل شخص في تلك الحافلة حكاية وطموحات وأحلام وأفكار، والجميع اجتمع في تلك الحافلة متجهين إلى مكان واحد.

من المفترض أن يكون هذا المكان هو الإسكندرية، لكن من صدف القدر أنه في بعض الأحيان هو الذي يختار الخطة التي نتجه إليها، هو الذي يحدد وجهتنا، إنه القدر، هذا الشاب الذي يمسك بالعلبة الصغيرة وينظر حالمًا لسقف السيارة وبجانبه هذا الشاب الذي يغمض عينيه، ولكنه يفكر بعمق وهو يقطب حاجبيه ويتذكر ذكريات يبدو أنها ليست مبهجة؛ لأن يديه تقبض بقوة على مسند مقعده، هل عينيه تخرج منها ما يشبه الدموع أم أنه خداع بصري؟ هناك ما يشبه الزغزغة في عينيه ولكنه يحبسها بقوة..

ربما كان هذا السائق له قصة ما هو الآخر ولكننا لا نعلمها، إنه عم (محمد) الرجل الطيب الهادئ الذي لا يضع بالًا لشيء ما في

حياته، يصلي الفروض في أوقاتها ويتطوع لصوم أيام كثيرة من كل شهر، رزقه الله بابنته الوحيدة (سمية) نور عينيه والتي يحبها أكثر من نفسه، يوفر لها كل ما تحتاجه كي تظهر بمظهر لائق أمام زميلاتها في الجامعة.

وهي ليست تلك الفتاة التي تظهر في الأفلام القديمة والتي تخجل من مهنة والدها .. بل تفتخر به أمام كل من تعرفهم، وتفتخر بكفاحه في سبيل تربيتها، وهي أيضًا لم تبخل على والدها وجعلته يفتخر بدخولها كلية الطب كما حلم هو لها.

فأصبح يناديه زملائه (أبو الدكتورة) وهو يبتسم لهم وتكاد الدموع تنفجر من عينيه من الفرحة في كل مرة يسمع فيها ذلك اللقب، من الصعب وصف تلك العلاقة بينه وبين ابنته، والتي تكونت منذ أول لحظة ميلاد لها عندما أقسم داخله أن يلبي كل طلباتها حتى ولو مات في سبيل ذلك، ربما لذلك يقبل عم (محمد) بعض التنازلات، ربما يقبل بأن يقوم باستخدام بعض حافلات الشركة بعد أوقات عملها الرسمية في تشغيلها- في خطوط القاهرة بدون علم الإدارة.. يحدث هذا مرة كل أسبوع على الأكثر ويساعده في ذلك بعض زملائه، لأنه يساعدهم هو الآخر في إخراج بعض الحافلات لخطوط أخرى..

مصاعب الحياة هي ما تجعله يفعل هذا، من داخله أصبح لا يعرف هل ما يفعله حرام أم حلال.. لكن الراتب لا يكفي منذ القدم، و(سمية) كبرت وتحتاج لملابس كثيرة ومصروف يومي يليق بسنها،

وطعام – وكل ملذات الحياة التي يجب توفيرها، ما يفعله خطر عليه، ولو حدث وكشف أمره ستكون قاضيه، ولكنه يخاطر بكل هذا في سبيل الابتسامة التي يراها على شفتي (صبية) وهو يعطيها ما تريد ويربت على كتفها بحنان، كل هذا يهون في سبيل أن يراها تقفز من على الأرض ثم تقبله وهي فرحة بتلبية أحد مطالبها..

يتمنى من الله أن يسامحه على ما يفعله، ويقول إنه لا يضر الشركة في شيء، في تلك المرة التي يستخدم فيها الحافلة في غير أوقات عملها الرسمية، حتى آخر مرة والتي استخدم فيها هذا الحافلة بالذات أمس في داخل القاهرة، واكتشف وجود مشكلة في المكابح في آخر اليوم قرر أن يصلحها بنفسه، ولكنه لم يستطع بسبب دخولها الخدمة اليوم.

ولكنه ينوي أن يصلحها بمجرد أن يعود للقاهرة مرة أخرى، ولا مشكلة غيلها، فهو يمتلك الخبرة التي تجعله يقود هذا الحافلة بحالة مكابحها تلك، ولن يعلم أحد بذلك ولا خوف عليه.. صحيح أن الليل شديد السواد، ولكن لا مشكلة.

صحيح أنه لا يعرف لماذا يفكر في ابنته (صبية) بتلك الطريقة الغريبة، وكأنه يخاف عليها، ويشعر بأنه يحتاج لرؤيتها حالًا، ولكن لا مشكلة، لا مشكلة، فالحياة تسير بهدوء، وها هو ما عليه سوى أن يعبر شريط القطار هذا ويسير قليلًا ليتوقف عند مقهى الفيومي الذي يأخذ منه إكرامية على كل مرة يقف فيها عنده، إنه يقترب من الشريط ولكن هل يرى جيدًا أم أنه يتخيل؟ الشريط مغلق، إذن هناك قطار سيمر الآن..

بالفعل هذا هو صوت عجلات القطار، لا مشكلة سيتوقف بالقرب من الشريط حتى يمر القطار ثم يمر هو عندما يزيل العامل تلك السلسلة الرفيعة التي تمنع المارة، ها هو يقترب والقطار يقترب أيضًا يا للدقة، رفع قدمه قليلًا من على دواسة الوقود وهو يضغط على دواسة المكابح.. ماذا يحدث؟

حاول مرة أخرى، ولكن الحافلة تسير بنفس سرعتها السابقة أو بسرعة أقل قليلًا من جراء التقليل من ضغط دواسة الوقود، شعر بالارتباك بالفعل عندما تخيل ما سيحدث، بقيت أمتار على شريط القطار والمكابح لا تعمل بحق، ماذا حدث لها لقد كانت تستجيب ولكن ببطء، أما الآن فهي لا تستجيب أصلًا!!!!

القطار يقترب، وصوته يعلو، والحافلة تقترب أكثر، رفع قدمه من على دواسة الوقود، ولكن الحافلة تقترب أكثر، ماذا يفعل؟ ماذا يفعل؟

لو حاول الانحراف الآن من المحتمل أن تنقلب الحافلة وهو بهذه السرعة.. هناك احتمال أن تستطيع الحافلة عبور الشريط قبل أن يصطدم القطار بها.. أغمض عينيه وهو يتذكر كمية الاحتمالات التي كان يمكنه أن يفعلها ولكنه نسيها الآن، لم ير شيئًا سوى صورة ابنته وهي تحتضنه وتقبله.

الحافلة تقطع السلسلة وتعبر الشريط، ولكن القطار يصطدم بها لتنقلب الحافلة، ثم يدفعها القطار للأمام، وركاب الحافلة لم يطلقوا أي

صرخات، فقد كانوا يغطون في النوم، تحطم كل شيء بسرعة وقبل أن يشعر أحدهم بأي شيء، إنه القدر بالفعل.

***

نفس الليلة

ليلة حارة.. وربما لم يفكر رجال الشرطة كثيرًا هل شدة الحرارة كانت من حرارة الجو أم تلك الحرارة المتصاعدة من الدخان الذي يخرج من منطقة الحادثة، رجال الإطفاء يغادرون المكان بحذر بعد أن انتهوا من عملهم وخمدت النيران العنيفة التي اشتعلت جراء انفجار تم بالحافلة بعد اصطدام القطار بها، الانفجار لم يعلم أحد سببه، ولكنه سبب الكثير من الفوضى، وخاصة بعد أن انقلب جزء من القطار بعد خروجه عن القضبان، واشتعلت النار بعد انفجار الحافلة..

من القطار مات عشرة أشخاص، ومن الحافلة اثنان وثلاثون شخصًا، والباقون على قيد الحياة، بالرغم من تجمع الأهالي حول مكان الحادثة؛ إلا أنهم لم يقتربوا من منطقة الاصطدام التي توقف عندها القطار بعد خروجه عن القضبان، وإن كان السبب الحقيقي وراء عدم اقترابهم ليس احترام النظام، وإنما ذلك المشهد الذي يثير الغثيان، فالحافلة مفتوحة من الوسط، والجساد متفحمة تخرج منها وكأنها كانت تحاول الهرب، وأجساد أخرى ملتصقة ببعضها، وأعضاء بشرية ملقاة على الأرض، حتى إن رجال الإسعاف كانوا يتحركون ببطء شديد؛ لصعوبة التفرقة بين الأحياء والأموات..

مشهد مقزز ويصعب وصفه ويبعث على القشعريرة أكثر منه يبعث على الحزن، بصفة عامة كان جو من الإحباط يسيطر على الجميع ويجعلهم يتصرفون بحزن شديد.. قرب الحادث بأمتار، وسط الواقفين، ووسط أصوات الاستنكار من الناس، وكلمات الحسرة والدعاء للمتوفين، قال أحدهم لصاحبه وهو يشير أمامه إلى جثة يبدو أن صاحبها قد خرج من الحافلة بعد الحادثة: لحظة.. ما هذا؟ عندما نظر صديقه للجثة لم يفهم لماذا يشير لها، ولكن لاحظ أن رأس الجثة مشوه ومكسور العظم، وقد ضاعت ملامحه وملامح جسده الباقية بسبب الحروق الشديدة، اليد اليسرى للجثة متآكلة، كما أن الجسد نفسه منهك و.... اتسعت عينا الرجل وهو ينظر ثم يداري عينيه بيديه من الغثيان، آخر تفاصيل طالعتها عيناه أن الجثة تقبض بيدها اليمنى الممدودة على شيء ما، ولكن المفزع أن الجثة كانت بدون نصفها الأسفل!!

أي إن صاحب الجثة خرج من السيارة وهو لا يرى ولا يسمع، وبدون نصفه الأسفل، ويده اليسرى مشوهة، وظل يزحف بيده الوحيدة التي تقبض على شيء ما حتى مات في موضعه هذا، لقد تعذب كثيرًا قبل موته..

***

فتحت (دينا) الزوجة المخلصة عينيها ببطء وهي تنظر حولها، حتى وقعت عينيها على وجه زوجها النائم، ابتسمت وهي تعيد خصلات شعرها المتناثرة للوراء لتتمكن من تأمل ملامح زوجها قليلًا.. يا له من وسيم، وسامة تحتلها لمحة من الحزن، ما زالت تلك المشكلة تسيطر عليه في الأيام الأخيرة، وخاصة بعد ليلة

أمس التي تحدث فيها مع شقيقها، فجأة تذكرت وهي تنظر بجانبها للعبة الموضوع بجانب الدمية التي أهداها لها زوجها، الساعة تقترب من التاسعة، يجب أن يستيقظ زوجها ليجدها في أحسن حال، نهضت بخفة واتجهت للحمام لتغسل وجهها وأسنانها وتمشط شعرها، وتخرج لتبدل ملابسها، ثم تجري باتجاه المطبخ لتعد الإفطار الذي يحبه ككل يوم، مرت دقائق وهي تعد الافطار حتى سمعت صوت المنبة ينطلق من داخل غرفة النوم.. مرة والثانية ولم تسمع صوت حبيبها ينادي عليها كما تعود عندما يستيقظ من نومه؟ تركت ما في يدها وهي تتجه ناحية غرفة النوم وهي تغني بصوتها العذب لزوجها، دخلت الغرفة وهو ما زال نائمًا على فراشه، جلست بجانبه وهي تكمل الغناء وتتناول يده بين يديها لتوقظه بلطف، يده متصلبة وباردة؟ قلبته على ظهره فانقلب بسهولة ولكن بجسد متصلب، توقفت عن الغناء وهي تشهق ثم تنادي باسمه بلا وعي، شهقت مرة أخرى ونظرت للسقف وهي تصرخ باسمه.

(مقطع من الرواية الأصلية)

***

الفصل الثاني

نفس الليلة الساعة الحادية عشر والنصف

لم تستطع (داليا) أن تفهم ما يحدث، صداع غريب اجتاح رأسها فجأة ومنعها من النوم، فتحت عينيها للمرة العاشرة في آخر ساعة، وهي تنظر للظلام في الغرفة بضيق.

لماذا تفكر في (حاتم) بهذه الطريقة، لماذا تتخيل صورته بتلك الطريقة الغريبة؟ ما هذا الاشتياق الرهيب له؟ ما الذي يجعلها تتمنى أن تأخذه بين أحضانها بقوة وكأنها تريد أن تخبئه بين ضلوعها.. ما السبب الذي يجعلها تشعر بأنفاسه تصطدم بروحها؟ ورائحته تملأ أنفها، وملمس يده القوية بين يديها..

زاد الصداع هذه المرة عن الحد الطبيعي، نهضت من الفراش بعصبية ثم تحسست طريقها لباب الغرفة وفتحته بحذر كي لا توقظ شقيقتها من النوم، خرجت للصالة التي تغرق في إضاءة خافتة تأتي من الشرفة المفتوحة، والتي اتجهت ناحيتها كي تجلس فيها قليلًا حتى ينتهي هذا الصداع المزعج، جلست على المقعد وهي تتأمل الشارع الطويل المليء بالمصطافين الذين يزورون الإسكندرية كل عام.

حاولت أن تندمج بنظرها مع حركة الشارع، ولكنها فشلت وظل رأسها مصر على شيئين، الصداع الرهيب والتفكير بحاتم، قررت أن تحاول أن تشغل رأسها بحاتم قليلًا حتى تنسى الصداع، ولكنها تذكرت أنها تفكر فيه منذ ساعتين بطريقة غير طبيعية، وكأنها

تعرفه لأول مرة، ومعجبة به كما فعلت منذ حين، انخفضت قليلًا وشعرت بالبهجة وهي تتذكر إصرارها على دخولها كلية دار العلوم، ورفض والدها الابتعاد عنها، وأيام طويلة من الشد والجذب بين أفراد عائلتها عن إمكانية سفرها من الإسكندرية للقاهرة حتى يمكنها الالتحاق بالكلية.

وهل من الممكن أن تسكن في المدينة الجامعية أم تقيم في بيت أحد أقربائها أم ينسى الجميع تلك الفكرة وتلتحق هي بكلية أخرى في جامعة الإسكندرية؟ يا لها من أيام جميلة مليئة بالذكريات، وخاصة عندما أوصلها والدها إلى الكلية، وظل مقيمًا معها عند أقربائهم لأسبوع قبل أن يعود للإسكندرية بعد أن اطمئن عليها وعلى استقرارها في المدينة الجامعية، ثم تلك المحاضرات التي كانت تطربها بسبب عشقها لعلوم اللغة العربية منذ صغرها، ربما صدمت من طريقة التدريس في البداية، وهذا الكم الكبير من المعلومات الذي فوجئت به في الكتب، ولكنها حافظت على عشقها لتلك الكلية العريقة التي ظلت تحلم بها بعد أن كان يحكي أستاذها - الذي تخرج من تلك الكلية - عن سنوات عمره التي قضاها بها والعلوم التي درسها، مر شهر والثاني وأصبحت مميزة وسط الدفعة بذكائها وتفوقها في المواد الدراسية، وإطلاعها الضخم الذي تكون من زيارتها المستمرة لمكتبة الجامعة.

ولكنها كانت تسأل نفسها دائمًا عن هذا الشاب الذي كلما دخلت المكتبة تجده يمسك بمجموعة كتب ضخمة وكشكول ويدوّن شيئًا ما!! مرة تجده يمسك قلمًا، ومرة يكتب شيئًا، ومرة يقرأ بتمعن.. لا يمكنها أن تحدثه حتى لو أرادت هي؛ فهي لم تتربّ على مثل تلك

الطريقة، وفي صغرها لم تتكلم مع ولد غريب ولا مرة واحدة، حتى لو أعجبت هي بأحدهم فهي لن تتمكن من التحدث إليه.

أما هذا الشاب فقد جذبها منذ البداية، واستطاعت هي أن تحدد بالتقريب وقت دخوله المكتبة، الغريب أنه كان نفس وقت تواجدها؛ أي بين المحاضرات وبعد انتهاءها، لم تمر عشرة أيام إلا وقد عرفت أنه في نفس دفعتها بكلية دار العلوم، أصابها ذلك بنوع من الفرحة الممزوجة بالغباء، غير سعيد أن تعرف أنه معها في دفعتها، ولكن ماذا ستفعل على أي حال؟

أليس من الممكن مثلًا أن ينظر لها ويعجب بها؟ لماذا لا تجده فجأة يقترب منها ويقول لها إنه يحبها؟ سيغشى عليها خجلًا عند تلك اللحظة، ولكن لماذا لا يفعلها؟.. بالطبع لن يفعلها؛ لأنه لا ينتبه لنظراتها، نظراتها التي ترمقه كل عشر دقائق بقوة وهو يجلس بين أرفف الكتب، كانت تجلس في الغالب على المنضدة التي تجاوره، فالمكتبة مقسمة على هيئة مناضد طولية مجاورة لبعضها، وأمام المناضد وخلفها أرفف الكتب الضخمة، والتي غالبًا ما امتلأت بالواجهات الزجاجية التي تحفظ الكتب القديمة.

كانت تجلس على المنضدة المجاورة وهي تقرأ بالفعل في كتاب تختاره، ولكنها كل عشر دقائق تنظر له بطرف عينيها قليلًا، وإذا تأكدت من عدم انتباه أحدهم لها فإنها تنظر له بتمعن، فتجده إما يقرأ فيما أمامه أو ينظر شاردًا لأرفف الكتب أمامه.. يا ترى في ماذا يشرد؟ هل هو مرتبط بفتاة أخرى؟

لا توجد في يده دبلة، ولكن هذا لا يعني أنه لا يعرف أي فتاة، يومًا بعد الآخر أصبحت قامته الطويلة ووجهه الأبيض وشعره القصير وعينيه الخضراوين وكل تلك التفاصيل محفورة داخلها.. لماذا لا ينتبه لها هذا الغبي؟ ولماذا أصبح ينظر لأرفف الكتب كل هذه المدة؟

مر شهر كامل منذ أول مرة رأته فيها ولم تحدثه ولكنها لم تستطع الصبر أكثر من هذا، من قال إن الحب يعطل عن الدراسة؟ لقد أصبحت أسرع بمراحل في مراجعة المواد وحفظها، وأصبحت أكثر تميزًا بين صديقاتها، ولكن صديقاتها لاحظن شيئًا ما عليها، حتى أن (عفاف) قد أخبرتها بأن هناك تغيرات كثيرة تدل على ظهور حب في حياتها، بالطبع أخذت تقفز كالقرود وتنكر وكأن أحدهم اتهمها بتهريب المخدرات، حتى هدأت واعترفت..

وكما يحدث بين أي مجموعة فتيات جامعيات فقد انتشر الخبر بين صديقاتها الأربعة، وقرر الجميع مساعدتها في إيقاع هذا الشاب في براثن الحب، هناك من أخذت تجمع التفاصيل عنه، وعادت بالخبر اليقين عن هذا الشاب الذي يدعى (حاتم)، وعن بلدته في المنصورة، والتي جاء منها مع صديقه ليسكن في المدينة الجامعية للدراسة، شاب مستقيم محبوب من الجميع، بعض الغموض يلف شخصيته لكن حب الجميع له ينسي هذا الغموض، وفوق كل هذا متفوق جدًا جدًا، ويكاد تميزه وسط أصدقائه في المواد الدراسية يفوق تميزها هي نفسها..

عند تلك النقطة ابتسمت (داليا) وهي تستمع لصديقتها وأحست بالفرح؛ عندما عرفت أن حبيبها يفوقها قوة في مجال ما، فهذا هو ما

تريده؛ فهي لن تقبل أن تشعر بضعف حبيبها أمامها، المهم أنها استمعت لباقي المعلومات التي جمعتها صديقتها بطريقة ما لم ولن تعرفها، وفي النهاية فوجئت بأن صديقتها قد أحضرت رقم هاتفه المحمول!!

يبدو أن صديقتها هذه كانت تعمل في الموساد لتقوم بكل تلك التحريات في يوم واحد، تاني لصديقة أخرى ظلت تراقبه منذ خروجه من المكتبة إلى مقابلته لأصدقائه حتى دخوله لمنطقة سكن الطلاب في المدينة الجامعية، وصديقة أخرى أخذت تعرف بأقرب الناس إليه حتى تصبح خط دفاع ثان عندما تفشل إحدى المحاولات التي سيقمن بها، أما (عفاف) فقد أخذت (داليا) من يدها وجعلتها تقف أمام المرآة في صباح اليوم التالي، عندما وقفت (داليا) أمام المرآة لتتأمل وجهها..

قالت بسخرية: "ما أنا مش وحشة أهو أوي يا عفاف، دا أنا حتى فيَّ شبه من استيفان روستي"، فردت عليها (عفاف) غاضبة وهي تخرج شيئًا ما من الكومود الصغير الذي يقبع بجانب المرآة: "استيفان روستي.. يا خيبة أمي أجمل بنت في الجامعة، بس مش مهتمة بنفسك من الأول، عنية البياض ده والعيون العسلي والشفايف المعفونة دي ليه؟ أنا هاخليكي قمر بنفسك غصب عنك.. النهاردة هاقوم بأكبر عملية تجميل في التاريخ، هاحوّل القبح لشربات".. نظرت لها (داليا) لتجدها أخرجت من الكومود علبة مساحيق تجميل ومجموعة طرح جديدة وشيئًا ما ملفوف في كيس بلاستيكي، مرت ساعة كاملة، ونظرت (داليا) مرة أخرى في المرآة.. عندها قالت بصدق: "مين دي؟!" بالفعل أصبحت فتاة أخرى، بعد أحمر الشفاه وتحديد

العينين وبعض الكريمات والأشياء الأخرى، أما الملابس التي اشترتها (عفاف) أمس بدون أن تعلم هي فقد كانت مقاسها بالضبط، ملابس جميلة لا تظهر تفاصيل جسدها، ولكن اختيار ألوانها كان روعة، مع الثلاثة طرح التي ارتدتهم على شعرها، ومساحيق التجميل التي وضعت بكمية قليلة جدًا، ولكن باحترافية شديدة، كل هذا جعلها تنظر مندهشة لمظهرها الذي تغير من حال إلى حال لدرجة يستحيل أن يصدقها أحد.

احتضنتها (عفاف) وكأنها تحتضن ابنتها ليلة عرسها، وقالت (داليا) فرحة: " اشتريتي اللبس والميك اب والطرح الجديدة وكل ده من غير ما أعرف؟ أنتي أكتر من أختي..."

استغرق الاثنان في العناق حتى دخلت عليهما الخبيرة صديقتهم التي تراقب (حاتم) وقالت: "يظهر إني جيت في وقت مش مناسب.. مين الآنسة دي يا (عفاف)؟" فأخبرت (داليا) تقنعها بأنها هي، وصديقتها تنظر لها برعب، حتى تذكرت شيئًا ما، فقالت بسرعة: "مفيش وقت نضيّعه.. الساعة دلوقت عشرة الصبح.. و(حاتم) قاعد في المكتبة من ساعة، وهايمشي كمان نص ساعة علشان يروح المحاضرة، لازم تتحركوا دلوقت". بالفعل تحركت (عفاف) و(داليا)، وكانت الخطة بسيطة جدًا، هي أن تجلس (داليا) بجانب (عفاف) في المكتبة، وبعد برهة من الوقت تنهض (عفاف) لتسأل (حاتم) إن كان من نفس دفعتهم أم لا، وعندها تقوم بسؤاله عن شيء ما في المواد، وتطلب منه أن يقوم بشرح شيء لها ولصديقتها، وعندما

ينتقل ليجلس بجانب صديقتها تعتذر هي لوجود مكالمة ستجريها وتترك الاثنان بمفردهما.

والباقي سيكون سهلًا، المهم أن يتعرف بـ(داليا).. كانت الأخيرة ما زالت تراجع الخطة حتى دخلت المكتبة بجانبها (عفاف) وجلستا في نفس المكان الذي تعودت أن تجلس فيه، هنا فوجئت بـ(حاتم) يدير رأسه وينظر لها بدهشة.. فاحمر وجهها، وارتبكت (عفاف) مع هذا التغير المفاجئ الذي أربك الخطة.

نهض (حاتم) واقترب حتى جلس أمامهما، وهو ينظر إلى (داليا) ويقول: "آنسة (داليا).. أعتقد أنك في دفعتنا.. مش كده برضه؟ تحبي أشرحلك أي حاجة في المنهج؟".. فتحت (عفاف) فاها من الدهشة، ولكنها قالت بطريقة متلعثمة: "أنا رايحة للحمام.. أقصد للتليفون.. أ.. رايحة الحمام علشان أعمل تليفون".. قالت العبارة السابقة وفصت تجري، وعين (داليا) تنظر لها متوسلة وكأنها تريد أن تجري مثلها، في حين قال (حاتم) بابتسامة: "قبل ما أشرح أي حاجة، ممكن اطلب منك إنك تقومي دلوقت وتقعدي على نفس الكرسي اللي كنت أنا قاعد عليه". ابتلعت ريقها ولم تفهم، ولكنها نظرت حولها فلم تجد أي طلاب قريبين، والمشرفة على هذا القسم في المكتبة مشغولة بأوراق تطالعها، فنظرت له؛ فطمأنها بابتسامة وهو يشير لها للمقعد.

قامت بالفعل واتجهت بخطوات متعثرة حتى جلست على المقعد، ورفعت رأسها أمامها فوجدت انعكاس (حاتم) في المرآة ينظر لها مبتسمًا..

يا للهول!! لم يكن (حاتم) يستغرق في الشرود عندما كان ينظر أمامه، لقد كان ينظر لتلك الواجهة الزجاجية التي تعكس صورتها، لقد كان يراها وهي تنظر له، شعرت بدماء الخجل تصعد لرأسها حتى كادت تفجره، لقد كان يرى نظراتها له طوال هذا الشهر.. لقد كان يرى عينيها المثبتة عليه.. لقد كان يفهم، فوجئت به يجلس بجانبها وهو يبتسم لها ويقول بخجل:

"كنت باأبص عليكي طول الأيام اللي فاتت، وبعديها دوّرت وراكي لغاية ما عرفت عنك كل حاجة، وكنت عايز أقولك إني معجب بيكي بعد كام يوم، لكن ما قدرتش أستوقفك النهاردة بالشكل ده في المراية وما أجيش أكلمك".

مرت عشر دقائق وهو يتحدث وهي صامتة ويداها ترتعش، ولكنها تكلمت في النهاية تطلب منه الاستئذان، ثم أخذت تسير بسرعة حتى خرجت من المكتبة وهي ترتعش، حتى اصطدمت بـ(عفاف) التي كانت تنتظر خارج المكتبة، فأخذت تصيح مهللة كالمجانين حتى أخرستها (عفاف) وهي تجرها لسكن الطالبات كي تشرح لها ما حدث.

مازالت (داليا) تجلس وهي تسرح في ذكرياتها، حتى إن الصداع اختفى وهي ما زالت تتذكر كل تلك الذكريات السعيدة، حتى فوجئت بصوت ما يأتي من الصالة، قطبت حاجبيها في دهشة ونهضت وهي تفتح باب الشرفة لتخرج للصالة وتنظر بعينيها محاولة اختراق الظلام.

الصالة طبيعية، ولكن الصوت ما زال مستمراً؟ ما هذا الصوت؟ إنه صوت خفيض يشبه الأنين!! هل أذناها تخدعها؟ وقفت في وسط

ظلام الصالة تنظر حولها وضوء خفيض من الداخل يأتيها من الشرفة.. لا شيء، لكن لحظة..

هل صوت الأنين يأتي من الصالة أم من غرفة نومها؟ ربما كان صوت أنين شقيقتها الصغيرة.

فتحت باب غرفة النوم وأضاءت الأنوار، وهنا تأكدت أن صوت الأنين يأتي من غرفة النوم بالفعل، فهنا الصوت أوضح.. نظرت لشقيقتها لوجدتها نائمة كما هي ويبدو أن الصوت لا يخرج منها..

فجأة نظرت على المنضدة الصغيرة الموضوعة بجانب فراشها.. نظرت واتسعت عيناها في رعب.. شهقت ثم صرخت في فزع...

الفصل الثالث

٦ أغسطس ٢٠٠٦ الساعة الثانية ظهراً..

إنها الثانية ظهراً حيث العمل في ذروته في المستشفى، والصحفيين ورجال الأمن ينتشرون بين أروقة المستشفى، الجثث التي استخرجت من الحادثة اثنان وأربعون جثة، وبدأت المشرحة في تسليم الجثث للأهالي منذ ساعة مضت، انتهى الأطباء من تشريح مجموعة ضخمة من الجثث منذ نقلها أمس ليلاً، ولكن قابل الأطباء مشكلة كبيرة، وجود ثلاثة عشر جثة مشوهة من بين اثنان وأربعون جثة هم كل الجثث التي خرجت من الحادث، والذي لم يظهر إلى الآن سبب فعلي له، ولكن داخل مكتب مدير المستشفى الدكتور/ فتحي غانم كان هناك حوار من نوع خاص:

– "يعني انت شايف إن يتم الإعلان عن عشر حالات وفاة بس؟"

كان قائل العبارة هو الدكتور/ فتحي نفسه، ولكن الرد جاء من وكيل الوزارة الذي كان يجلس أمامه على المقعد وهو يحتسي القهوة:

– "لا يا دكتور فتحي، اعتقد أن ١٥ جثة هايكون رقم كويس بالنسبة لوسائل الإعلام ويمكن يصدقوها، لغاية دلوقت كل وسائل الإعلام بتقول جثة واحدة (لم يتم تحديد حالات الوفاة بالكامل)، لكن دلوقت أنا هابلغ الوزارة تخرج بيان بعدد المتوفين في الحادث إنه خمسة عشر حالة بس، لكن عليك إنت بقى تسلم الجثث للأهالي بسرعة علشان ما تحصلش شوشرة، والصحفيين يقدروا يحصروا

عدد الأهالي، ويعرفوا الفرق الرهيب بين العدد اللي أعلنا عنه والعدد الحقيقي".

– "الأهالي استلموا بالفعل كام جثة من ساعة.. حوالي ٨ جثث، وأنا هانبه على الأطباء والعاملين إنهم يهتموا بسرعة تسليم الجثث للأهالي وتخليص التصاريح اللازمة، ما تخافش.. الموضوع مش هاياخد كتير حتى بالنسبة للجثث اللي ما اتشرّحتش".

ابتسم وكيل الوزارة وهو يخرج هاتفه المحمول ويطلب رقمًا ما ويكمل كلامه مع دكتور فتحي قائلًا:

– "أنا هابلغ الوزارة دلوقت.. كل اللي عليك تعمله إنك تخلي الموضوع ده يخلص الليلة وكأن مفيش حاجة حصلت، ولا كأن الحادثة حصلت أساسًا، مش عايزين الموضوع ياخد اهتمام كبير الأيام الجاية في القنوات الفضائية والجرايد".

نهض الطبيب من وراء مكتبه وهو يقول بجدية:

– "مفيش مشكلة، أنا هاسيبك دلوقت تعمل اتصالاتك وأروح أنا أتابع الموقف علشان الجثث والجرحى كمان".

– "آه.. زي ما إنت قلت.. موضوع الجرحى مهم أوي.. علشان احنا هانسمح بالقنوات الفضائية كمان ساعتين إنها تصور الجرحى وهما بيتكلموا على المعاملة الكويسة اللي تلقوها.. وطبعًا ده هايكون والوزير بيتصور معاهم وهو بيطمّن عليهم".

ابتسم دكتور فتحي له محييًا وهو يغادر غرفة المكتب..

***

كانت (داليا) تجلس على الفراش منذ الصباح تنظر صامتة أمامها، لم تذق النوم منذ ما حدث الليلة السابقة، كان ما رأته مرعبًا أكثر منه غريبًا..

بعد ما حدث جلست على فراشها وهي تقرأ القرآن وشقيقتها التي استيقظت من الصراخ تحتضنها وهي تربت على رأسها ووالدها ووالدتها وشقيقها الصغير يقفون أمامها يستفسرون عما حدث.

فلقد سمع الجميع صوت صراخها ليلًا، وأتى الجميع ليجدوها تقف داخل غرفة النوم تنظر للمنضدة الصغيرة الموضوعة بجانب الفراش وهي تلصق ظهرها بالدولاب وتفتح فمها وجسدها يرتعش، اقتربت منها شقيقتها الصغرى وهي تربت على كتفها وتحاول تحريكها لتجلس على الفراش، وهي ما زالت تنظر برعب للمنضدة الصغيرة حتى بعد أن جلست على الفراش، الجميع يستعيذون بالله وشقيقتها تهدئها وهي ما زالت تفتح فمها وترتعش، عندما مرت دقيقة بدأت تتكلم بصوت متحشرج وهي تقرأ آيات متقطعة من القرآن الكريم وتغلق عينيها والدموع تخرج منها، ظل الحال هكذا مدة حتى هدأت وأغمضت عينيها وتراخى جسدها وتأكد الجميع أنها نامت، فخرجوا من الغرفة مندهشين مما حدث، وقد قرر الوالد ألا يضغط على أعصابها أكثر من ذلك ويسألها عما رأت في الصباح وخاصة بعد أن نامت.

بالفعل تركها الجميع مع شقيقتها والجميع يوصيها بها.. مرت دقائق وشقيقتها تربت على شعرها حتى تأكدت من نومها فانتقلت هي إلى فراشها.

ولكنها بمجرد انتقالها إلى الفراش فتحت (داليا) عينيها مرة أخرى وهي تتذكر ما حدث منذ قليل، مر الليل وهي تنظر في الفراغ المظلم لغرفة النوم، حتى جاء الصباح وذهب والدها ووالدتها لعملهما، وشقيقتها هي من قامت بتحضير طعام الإفطار لها ولشقيقهما الصغير متجنبة أي حديث عما حدث أمس.

تناولت (داليا) إفطارها وهي شاردة الذهن، وأخذ شقيقها ذو السنوات السبع يلعب، وذهبت شقيقتها للسوق، وظلت هي جالسة كما هي تنظر للفراغ وتتذكر ما حدث، لحظة سماعها الأنين، لحظة دخولها الغرفة، لحظة توجيه نظراتها ناحية المنضدة التي بجانب الفراش.. على الضوء القليل الذي يأتي من النافذة رأت دميتها التي أهداها لها (حاتم) والتي اتخذت شكل عروس صغيرة ترتدي فستان زفاف، العروس يترل سائل من عينيها يشبه الدماء!!

يترل ليغطي فستانها الأبيض، ثم يكمل نزوله بغزارة حتى تترل القطرات للأرض، فتحت عينيها بفزع وهي تشهق والقطرات تتجمع على الأرض لتكوِّن رسمة مهزوزة المعالم لقلب يخترقه سهمان متقاطعان.. يا للهول!! إنها هي تلك الرسمة، إنها هي..

لم تصدق نفسها.. فتحت فمها تحاول الصراخ بصعوبة، ولكنها لا تستطيع الصراخ، حاولت الصراخ مرة أخرى، ولكن هذه المرة نجحت، انطلقت صرختها بفزع لتوقظ الجميع وتفزع شقيقتها من فراشها، التي نهضت لتفتح الأضواء لتجد أن العروس موضوعة في مكانها ولا وجود للدماء!!

يجب أن تهدأ.. يجب أن تهدأ.. لقد كانت تتخيل.. نعم.. بالتأكيد
لقد كانت تتخيل.. اقتربت شقيقتها منها تحيطها بذراعها وهي تحدثها،
وباب الغرفة يفتح ويدخل منه والداها، والجميع يستفسر بتعجب عما
يحدث، وهي ما زالت تنظر للعروس التي ظلت تقف مبتسمة في
مكانها وكأنها تتحداها.

سمعت صوت شقيقها يقول بصوت طفولي فرح:

- "(دعاء) جت.. (دعاء) جت".

انتبهت (داليا) لوصول (دعاء) شقيقتها، فنهضت من الفراش
وهي تفتح باب الغرفة لتساعدها في إعداد الطعام، فقد شعرت
بالذنب لتركها وحيدة هكذا بلا كلام، ولكنها عندما نهضت توقفت
لحظة وهي ما زالت تتذكر ذلك الشكل الذي رسمته الدماء.

قلب وسهمان متقاطعان على شكل حرف (X) اللاتيني، وقفت
قليلًا ثم نزلت لتجلس على ركبتيها وهي ترفع ملاءة الفراش عاليًا
لتخرج ذلك الصندوق القديم من تحت الفراش، وتقلب في الكتب
والأوراق التي تراكمت به من أيام دراستها في الكلية، أخرجت
كشكولًا وفتحت أول صفحة وهي تنظر لذلك الشكل المرسوم على
جوانب الصفحات..

هذا الشكل الذي كان (حازم) يرسمه لها دائمًا منذ تعرفت عليه،
لقد كانا يملآن كتبهما وأوراقهما بهذا الشكل.. إنه قلب ويقطعه
سهمان وأول حرف من اسميهما على مقدمة الأسهم!!!

وهي تتذكر شيئًا مشابهًا. قرأته، لا يمكن أن يكون صحيحًا
بالتأكيد هذا خيالها الذي صور لها هذا..

***

وضعت سماعة الهاتف الموضوع بجوار الفراش، واستندت برأسها
على الوسادة وهي تغمض عينيها، كلمات شقيقها على الهاتف
تؤكد لها أن.. توقف عقلها عن التفكير في محتوى المكالمة
السابقة وهي تسمع صوت قطرات تصطدم بالأرض كأنها قطرات
الماء، فتحت عينيها وهي تنظر عن يمينها لترى الموضع الذي
يأتي منه الصوت، عن يمينها الكوموود الموضوع عليه دميتها التي
ترتدي فستان الفرح، قطّب حاجبيها في دهشة تحولت لرعب
بعد لحظات، الدماء تغرق فستان الدمية وتنزل على طرف
الكوموود ثم تتسرب لخارجه لتنزل قطرات الدماء على الأرض،
وتتجمع على الأرض كلمة كتبت بالدماء المتجمعة.. (بحبك)،
الكلمة التي تعود (حازم) أن يكتبها لها على ورقة ويعلقها على
باب الغرفة عندما يتخاصمان، ذلك الموقف يذكرها بموقف
آخر، لكن لا يمكن!!

(مقطع من الرواية الأصلية)

***

الفصل الرابع

٦ أغسطس ٢٠٠٦ الساعة العاشرة

– "بلاش غباء، فالفلك هاتخرج دلوقت بالعربية ومعاك تلات جثث ما تكترش في الكلام وتفعد تقدم اعذار"..

قال الطبيب العبارة بلهجة آمرة وهو يكلم (سيد محروس) أحد السائقين بالمستشفى، والذي ما انفك أن تذمر وهو يقول بغل:

– "يا دكتور أنا ما أعرفش المدافن دي، وكمان ما دَفَنْتش حد قبل كده في مقبرة.. أنا مالي أمي وما للحاجات دي؟"

رد عليه الطبيب وهو يراجع ورقتين معه جيدًا ويقول:

– "(محمد الناجي) هايكون معاك، وهو عارف عنوان مقابر الصدقة كويس، وهو اللي هايتصرف مع التربي، كل اللي عليك إنك توصله وتساعده في دفن الجثث"..

– "دفن الجثث!!"

– "على فكرة لازم تخلّي بالك وانت بتدفن.. علشان فيه جثة مقطعة.. فخلّي بالك وانت بتشيل الكفن، وجثة من غير دراع، وجثة تالتة نصها اللي فوق مفصول عن النص اللي تحت وايدها الشمال مطرتكة.. خلي بالك يا (سيد) وانت بتشيل الجثث علشان مفيش حاجة تقع"..

اقشعر بدن (سيد) وهو يتخيل ما يقوله الطبيب بقرف، في حين أعطاه الطبيب الورقتين ليضع إمضاءه عليهما.

انتظر الطبيب حتى شاهد (سيد) يخرج من باب الغرفة، ثم رفع سماعة الهاتف ليطلب رقمًا، وينتظر حتى سمع محدثه على الجانب الآخر فقال:

– "أنا سلمت آخر تلات جثث لـ(سيد)، ووزعت الجثث على مقابر الصدقة زي ما قلت يا دكتور فتحي، آه عملت كده.. موضوع التصاريح ده أنا اتصرفت فيه.. وفيه كام تربي إحنا هانظبط معاهم ماتخافش، أول سواق هايروح البحيرة في المدافن هناك بتاعت عم بدر التربي، والسواق التاني طلع المنوفية من ساعتين عند (بدوي)، والتالت هايمشي دلوقت.. آه طبعًا.. الدكاترة كلهم مضوا على تشريحهم للجثث الأخيرة ومحدش هايقدر يتكلم.. وكمان مفيش وقت قدامنا لتشريحهم كلهم.. ثم ما هو كفاية إن الدكتور (عادل) بص بصّة على كل جثة علشان يتأكد إن التشوهات تمنع حقيقي من التعرف عليهم، تحت أمرك يا دكتور.. تأمرني بحاجة تاني؟"

((الهاتف المطلوب ربما يكون مغلقًا أو خارج نطاق الخدمة نرجو المحاولة في وقت لاحق))..

قذفت (داليا) هاتفها على الفراش وهي تنفخ بعصبية وتسير جيئة وذهابًا في غرفتها، هاتف (حاتم) مغلق منذ الصباح؟ وتلك ليست عادته، صحيح أنهما اتفقا على أن يتحدثا كل ليلة بعد الساعة الحادية عشر، ولكنها لا تطيق الانتظار حتى منتصف الليل، وخصوصًا بعد ما حدث الليلة السابقة، وما لا تطيقه هو أنه طلب منها الليلة السابقة أن لا تحدثه تليفونيًا فهو سيسافر لمكان مهم، وبعدها ستجد هي مفاجأة سارة!! أين هي المفاجأة يا (حاتم)؟ هل المفاجأة أن تغلق هاتفك هكذا، أم أن المفاجأة لم تكتمل ولهذا لم يفتح هاتفه؟ (حاتم)..

أنا ضائعة بدونك.. لم تستطع التحمل أكثر من هذا وبكت، ولكنها فوجئت بمن يطرق باب الغرفة ثم يفتحه، حاولت مسح دموعها بسرعة وشقيقتها تدخل وهي تنظر لها بحرج، ولكنها اخبرتها بأن تدخل، دخلت (دعاء) وقد احمر وجهها بخجل وهي تجلس على الفراش المقابل لداليا وتقول لها:

– "ممكن أسأل ما لك؟ بابا وماما قالولي ما أكلمكيش في اللي حصل امبارح.. لكن أخش عليكي دلوقت ألاقيكي بتعيطي كده يبقى فيه حاجة بجد، إيه اللي حصل؟"

ابتسمت (داليا) قليلًا وهي تنظر لشقيقتها وقالت:

– "متوترة شوية يا حبيبتي".

– "علشان العريس الجديد اللي متقدملك؟"

توترت (داليا) بحق وهي ترد بالنفي، ولكن (دعاء) قالت:

– "إنتي لسه مرتبطة بزميلك في الجامعة اللي حكيتي لي عنه؟"

أخذت (داليا) نفسًا طويلًا، ثم أشارت بإيماءة الموافقة برأسها، فابتسمت (دعاء) وهي تعتدل في جلستها وتقول بفرحة:

– "طب ما تكمليلي حكايته وعملتي إيه معاه بعد ما اتعرفتي عليه؟"

ابتلعت (داليا) ريقها وابتسمت ابتسامة واسعة وقد نسيت الحزن، ثم أراحت جسدها بالكامل على الفراش وهي تقول ناظرة للسقف:

– "أنا هاكملك بس ما تقاطعنيش لو سمحتي"..

– "هاحاول بس ما اوعدكيش".

((بعد أن أخذتها (عفاف) لسكن الطالبات و(داليا) تضحك لها بـ(هبل)، وهي تقول كلمات غير مفهومة جلس الاثنان داخل غرفتهما، و(داليا) تقول نفس الكلمات غير المفهومة بفرح، ولكن عفاف وقفت فجأة وتكشر وجهها وهي تقول بغضب:

– "اكتشفت خيانة"..

فتحت (داليا) فمها مندهشة ولكن (عفاف) أكملت قائلة:

– "(سلمى) اللي كانت هاتعرف على أصحابه وزمايله علشان تبقى خطة بديلة لو فشلنا النهاردة".

– "اتجوزت عرفي؟"

– "لا"..

– "اتجوزت شرعي؟"

– "لا"..

– "بلّغت البوليس؟"

لم تستطع (عفاف) الحفاظ على تكشيرتها وابتسمت وهي تقول:

– "لما سبتكم جوّا المكتبة وخرجت برّا قابلتني هي واعترفت لي إنها أعجبت بصاحب (حاتم) اللي جاي معاه من المنصورة، وإنها حكت له عن الخطة، وهو قالها إن صاحبه كمان معجب بالبنت دي من زمان.. علشان كده خطتنا النهاردة فشلت".

ابتسمت لها (داليا) بدون أن تتكلم.. يمكننا أن نقول إن الإعجاب تطور من الجانبين وأصبح حبًا، تخيلك أن تعرف أن بعد بضعة أيام كان الاثنان يحضران جميع المحاضرات وهما يجلسان بجانب بعضهما.. يذهبان للمكتبة معًا.. يجلسان على تلك الدرجات الحجرية بجانب مدرجات كلية العلوم، هل تعلم ماذا يحدث عندما تضع عقلًا مشتعلًا على عقل أكثر اشتعالًا، لقد اتحد العقلان كي يبهرا طلاب الدفعة جميعهم، فأصبح الجميع يتحدث عن (حاتم) و(داليا) اللذان يتفوقان على الجميع في جميع المواد بلا استثناء، يجدان الوقت لفعل كل شيء، من مذاكرة واطلاع على المراجع وتحدث رومانسية.. والجميل أنه قد ظهرت لهما موهبة مبكرة متشابهة إلى حد ما، (حاتم) كان يخفي عنها أنه يكتب الروايات في أوقات فراغه، وهي صارحته بأنها تكتب الشعر، حتى في موهبتهما كانا يتوازيان، لقد كانت أشعار (داليا) تبهر كل من يسمعها، وروايات (حاتم) القليلة تفزع كل من يقرأها، بعدما أصبحا في الفرقة الثانية (السنة الثانية) في الكلية، وقد حصل الاثنان على تقدير جيد جدًا، كانا ملتصقان يستمتع كل منهما للآخر، ولكن الحقيقة أن (داليا) كانت تنبهر بكل ما يكتبه (حاتم)، يجلسان في بعض الأحيان في مقهى قريب من الجامعة في وقت فراغهما وهي تقرأ له آخر قصيدة كتبتها، وهو يستمع لها مبتسمًا وحالمًا في عينيها، ثم بعد أن تنتهي يعطيها هو بعض الأوراق التي غالبًا ما تكون جزء من رواية له كتبها حديثًا، حيث أنه كلما كتب فصلًا من الرواية يجعل (داليا) تقرأها كي تعطيه رأيها، أما هي فقد كانت دائمًا ما تفزع من رواياته، والفزع هنا كان من غرابة ما يكتب، فهو يكتب روايات شديدة التعقيد والحبكة، ويغوص دائمًا في نفسية الأبطال ليخرج منها ما يدهش الجميع، حتى يرى من يقرأ نفسه أحد أبطال الرواية، ولكن جل ما كان يدهشها هي نهاياته الغريبة الحزينة والتي لا

يتوقعها أحد، كان يقول لها كثيرًا وهو ينظر لها بعد أن تفرغ من رواية ما له إنه يخفي داخل كل تفصيلة من الرواية معانٍ مستترة لا ينتبه لها معظم من يقرأ، فهو يضع رسالة خفية للقارئ بين أسماء الأبطال وتواريخ ميلادهم وحتى الجمل التي ينطقون بها، فهو يريد من كل رواية أن توصل معنى سريًا للقارئ يستتر داخل نهايتها، كما كان يقول لها دائمًا إن القارئ لو توقع نهاية القصة بأي طريقة فستصبح قصته تكرارًا لقصص أخرى، ولذلك كان يخشى أفكارًا درامية شديدة التعقيد وأفكارًا غريبة عنها كتلك الرواية التي ظلت تقرأ فيها أيامًا وأيامًا إلى أن اكتشفت أن (حاتم) قد صاغها بطريقة غريبة، فعندما تصل إلى نهاية الرواية تفاجأ أنك يجب أن تقرأها مرة أخرى من النهاية للبداية فصلًا فصلًا؛ أي إنك تقرأ قصة عادية من البداية للنهاية، ثم تجد النهاية غير موجودة، ويطلب منك (حاتم) – في روايته بالطبع – أن تعيد قراءتها فصلًا فصلًا من الخلف مرة أخرى لتفاجأ بقصة مرعبة تتكون مرة أخرى عكس القصة الأصلية، حتى تصل لبداية الرواية لتجد أنها نهاية الرواية المعكوسة بالفعل.. ظلت ليلتان تفكر في تلك الرواية الغريبة التي قرأتها له وهي غير مصدقة لغرابتها، كانت كل رواية له تحتوي على كم من الغرابة لا يقل عن مثيلاتها، حاول أكثر من مرة أن يعرض رواياته على دار نشر تقبل بها، ولكن الإجابة كانت الرفض غالبًا، أو حجج غريبة، أو عرض بالتنازل عنها تلقاه من أحد الدور مقابل بضعة آلاف من الجنيهات مقابل أن يتنازل عن خمسة من رواياته كي يتم نشرها باسم مؤلف آخر مشهور، كانت (داليا) تقابل كل إحباط يتعرض له بكلماتها الرقيقة وابتساماتها الجميلة وهي تنظر لوجهه الحزين، مرت السنة الثانية عليهما في الجامعة وقد حصل (حاتم) على تقدير امتياز وحصلت (داليا) على تقدير جيد جدًا بفارق بسيط عن تقدير (حاتم).. كان

أصعب وقت يمر عليهما هو وقت فراقهما في آخر امتحانات العام الدراسي.

حيث يذهب (حاتم) لأهله في المنصورة، وتذهب (داليا) إلى الإسكندرية، يظلان على اتصال كما تعودا كل ليلة بعد الساعة الثانية عشر على هواتفهما المحمولة.

أسرة (حاتم) متوسطة الحال، فوالده يعمل موظفًا حكوميًا في الصباح وبعد الظهر يمتلك محل للأدوات الكهربية يدر عليه دخلًا لا بأس به، وكذلك زوجته التي تعمل في نفس المصلحة الحكومية التي يعمل هو بها، ولكنها في قسم آخر..

لم يرزقا بأطفال سوى (حاتم) الذي تعاهدا على رعايته حتى بعد زواجه، ولم يعترضا كثيرًا على سفره للقاهرة لكلية دار العلوم التي كان يحلم بها، وبالرغم من اقتراح الوالد على (حاتم) بأن يسافر ويعود للمنصورة كل يوم، أو تأجير شقة له بالقاهرة، لكن (حاتم) أصر على أن يقيم في المدينة الجامعية كي يكون بجانب الكلية، ثم إن صديق دراسته (علاء) سيذهب معه للإقامة في المدينة الجامعية أيضًا.

تعود لإجازة آخر العام التي كان يقضيها (حاتم) في القراءة والكتابة.. والمتابعة مع طبيبه الخاص، ثم تنتهي الإجازة ويعود الحبيبان باشتياق للدراسة للسنة الثالثة بالكلية، وقد كانت ملامح اللهفة من كلا الجانبين عند توديع أسرهم غريبة، فكان الواحد منهم لا يترك دياره للسفر بل كأنه يعود مرة أخرى لدياره.

نضج الحبيبان وبدأت المسئولية تتضح في السنة الثالثة، لقد بقي عام واحد على انتهاء الدراسة ويصبح من الواجب على (حاتم)

التقدم رسميًا لداليا، كانت المشكلة أن (داليا) لم تذكر له أبدًا مثل هذا الموضوع أو حتى تقوم بالتلميح به، ولكنه قد بدأ يدرك أن الوقت يمر ويجب عليه أن يخطط لمستقبلهما معًا.

يمكننا أن نقول إن العام الثالث مرّ وقد أنضجت نار الحب قلبيهما وأشعلتهما احتراقًا، أصبح (حاتم) أكثر غيرة على (داليا)، وأصبحت هي أكثر غيرة منه بمراحل، فكانت تشتعل غضبًا عندما ترى تلك الفتاة الجميلة، أو تلك ممشوقة القوام، أو تلك الخمرية... وهن ينظرن له بإعجاب، أو يحدثنه عن مادة ما كي يشرحها لهن، كانت تعض على أصابعها عندما تشاهد تلك المواقف، ولكنه – والحق – قد أثبت أدبًا في التعامل مع أي فتاة يعرفها.

لم تلحظ عليه أي عادة سيئة، ربما اندهشت بضع مرات من قوته على الإقناع، عندما كان يجلس أمامها في المقهى وجاء أحد الشباب ليجلس على أحد مقاعد منضدتهما بدون استئذان، كان يبدو عليه الحدة في الطباع، وخاصة عندما ابتسم بوحشية لحاتم وهو يحذره من أنه رآه يتحدث مع فتاة هي زميلتهما في الدفعة، وأنه يجب أن لا يتحدث معها مرة ثانية لأنها تخصه، وإلا سيضع حذاءه على رأس (حاتم) كما قال هو.. وجدت (داليا) (حاتم) يبتسم وهو يقول له إنه لا يعرفها أساسًا ولم يرها من قبل.

وجدت الشاب ينهض وهو يبتسم لحاتم ويصافحه معتذرًا، لأنه خلط بينه وبين شخص آخر، واعتذر له مرة ثانية ثم اعتذر لداليا وغادر المقهى.. قوة إقناع رهيبة.. في تلك السنة صقلت مهارات الكتابة لدى (حاتم)، وإن ظل بحثه الدائم بين دور النشر عن من يمكن أن يقبل المخاطرة، وينشر لشاب مثله لم يتجاوز العشرين بعد، حدثته كثيرًا عن مخاوفها من أن يفترقا، وحدثها هو أيضًا عن مخاوفه. ولكن

مخاوفه كانت غريبة بعض الشيء.. لقد كان يحدثها عن مخاوفه من المقبرة، عندما يموت.. عندما يبرد جسده وتتصلب أطرافه ويغطي أصدقاؤه وجهه، عندما يدخل لظلام القبر وحيدًا والكفن الأبيض يحيط بجسده، هل سيكون واعيًا لما يحدث؟ أي هول سيشعر في تلك اللحظات، كانت تستمع له وهي مندهشة مما يقول، ما تلك المخاوف القطيعة التي يحملها حبيبها؟!!

الفصل الخامس

"صباح الفل يا أبو ليلى"..

قال (محمد) العبارة السابقة وهو يعطي سيجارة الحشيش لسيد فتناولها منه الأخير وهو يلتقط منها عدة أنفاس ويعيدها إليه، كان (محمد) المعرض يجلس بجانب (سيد) الذي يقود السيارة التي تنقل الجثث الثلاث لمقابر الصدقة.

تلك السيجارة هي الثانية لهما في تلك الليلة، وحسب كلمات (محمد) فإن تلك (الاصطباحة) هي بداية الليل فقط، فهناك (اصطباحة) أخرى مع حارس المقابر قد اتفق معه عليها عن طريق الهاتف.

ظل (سيد) يتبع إرشادات (محمد) – الذي تجاوز الثلاثين بقليل – حتى يصل إلى المقابر.. وبالفعل وصلوا قبل المقابر بشارع وتوقف (سيد) كما طلب منه (محمد)، ثم نزل هذا الأخير من السيارة واتجه إلى منطقة المقابر في وسط الظلام الدامس، حتى عاد بعد دقائق ليطلب من (سيد) مرافقته..

بعد مشاورات كثيرة اقتنع (سيد) بأن يترك الجثث في السيارة ويرافقه للداخل، بالرغم من خطورة تركه للجثث هكذا في السيارة، عندما دخل الرجلان وجدا على أول طريق المقابر الذي يغلفه الظلام شاب في الثلاثين من العمر أو أكبر قليلًا يرتدي قميصًا أبيض وسروالًا قماشيًا ومركوبًا.. قام (محمد) بتعريفه إلى (سيد) بسرعة بأنه (هادي) حارس المقابر..

كان صوته خافتًا بالرغم من عدم وجود أشخاص حولهم لمئات الأمتار، إلا أن المكان قد أضفى رهبة عليهم جميعًا.

(هادي) يحمل مصباحًا صغيرًا استخدمه وهو يقودهم داخل شارع طويل.. وعلى الجانبين تراصت قباب صغيرة، فنظر (سيد) حوله يتأمل المكان على الضوء الخفيض للمصباح، ذلك الجزء من المقابر هو شارع طويل رئيسي تتراص شوارع وحارات جانبية ضيقة على جانبيه، والأشجار المزروعة بكثافة شديدة داخل كل حارة جانبية لتغطي على قباب القبور تخفي أجزاء منها.

ظلوا يسيرون في ذلك الشارع طويلًا حتى مرت دقائق وقد تغير شكل الشارع وأصبحت القباب على اليسار فقط، وعلى اليمين مقابر تشبه المنازل مغلقة ببوابات خشبية أو حديدية، ومعلق عليها لافتات من الرخام الأبيض منحوت عليها أسماء عائلات، وبجانب كل اسم تاريخ قديم لبناء المقبرة.

ظل الجميع يسيرون إلى أن خرجوا لشارع آخر تحيطه المقابر، ولكن هنا دخل (هادي) لشارع جانبي ليجدوا غرفة صغيرة مضاءة الأنوار، دخلها (هادي) وتبعه البقية، غرفة (هادي) صغيرة نسبيًا، دهنت بالأبيض الذي يبدو أنه دهان جديد حتى أن تلك النافذة الصغيرة طالها الدهان، تلفاز صغير وضع فوقه جهاز ريسيفر متواضع، وهو يعرض الآن قناة أفلام أجنبية! بجانب التلفاز منضدة صغيرة عليها بعض الأشياء المتفرّقة وأوراق وملابس ملفوفة وأكياس سوداء..

هناك حمام ملحق بالغرفة مغلق بباب خشبي ومقعدان، وغرفة جانبية ضيقة تظهر منها بعض الأطباق والملاعق وموقد صغير، جلس

(سيد) على أحد المقاعد بينما جلس (محمد) على فراش صغير بطريقة تنم على تعوده على الجلوس كثيرًا في هذه الغرفة، قال (محمد) لهادي:

- "يالّلا هات بقى المسائل علشان أنا هاموت وأدوق الجثة الجديدة"

دخل (هادي) للمطبخ وخرج ومعه "جوزة" وإناء فخاري وضع به بعض الفحم المتوهج! هل كان يقوم بتسخينه قبل مجيئهم؟ دخل مرة ثانية للمطبخ وأحضر بعض الأشياء و(سيد) ينظر لهما برهبة.

جلس (هادي) بعدها بجانب (محمد) على الفراش وهو يسحب أنفاسًا سريعة من الجوزة ويقول لمحمد:

- "كام جثة معاك؟"

سحب (محمد) نفسًا طويلًا، وهو يكتمه ثم أخرجه باستمتاع وهو يعطي الجوزة لسيد الذي تلقاها بحذر..

- "تلاتة يا سيدي".

- "والواحد بكام؟"

مد (محمد) يده في جيبه وهو يبحث عن شيء ما، و(سيد) يشاهدهما باستغراب وهو يسحب أنفاس الجوزة، حتى أخرج الأول مبلغًا من جيبه:

- "التلاتة بألف جنيه يا عمنا، أنا هاخد ٣٠٠ جنيه منهم، و(سيد) ياخد ٢٠٠، وانت حلال عليك الباقي يا سيدي".

- "طب حالة الجثث إيه؟ ينفع تتباع بعين؟ والعظم مكسّر وإلا إيه نظامه؟"

هنا تكلم (سيد) وقد تخطى حاجز الصمت بعد سماعه آخر عبارة:

– "إيه يا عم منك له، جثث إيه اللي تتباع وعظم إيه اللي بيتسال عليه، وكمان الفلوس اللي اتوزع دي بتاعت مين وليه؟!!"

خرجت ضحكة سريعة من فم (محمد) وهو يأخذ الجوزة من أمام (سيد)، و(هادي) يقول بابتسامة ساخرة:

– "صاحبك ما يعرفش حاجة ولّلا إيه؟"

ناول (محمد) عصا الجوزة لهادي وهو يقول لسيد:

– "الفلوس دي يا أبو السّيد أجرة التربي في دفن الجثث، ومن الآخر الجثث هاتندفن من غير تصريح، لكن معانا كده جثة ورقة ماهاش لزمة متزورة على إنها تصريح هانطلعها لو حصل في الأمور أمور، (هادي) بيحب يساعد الناس اللي عايزة تدفن حد من غير مشاكل ومن غير وجع قلب للحكومة وتحقيق والكلام الفاضي ده".

– " الجثث دي ماهاش تصاريح ليه؟"

– "ما انت راجل طيب يا أبو سيد.. يا عم الجيج الحادثة بتاعت القطر اللي ولع امبارح ده هو الاتوبيس .. دي جثثها بقى".

– "مش فاهم حاجة!!"

فتح (محمد) فمه ليجيب، ولكن (هادي) أعطاه عصا "الجوزة" في فمه، فضحك الأول وهو يسحب نفسًا عميقًا، و(هادي) يرد على (سيد) قائلًا:

– "بص يا سيدي، الحادثة لمّا تحصل لو جثثها مش كتير أوي يعني وطبانة جثث مشوهة ومتبهدلة ومش عارفين يتعرفوا على أهلها، الحكومة ربنا يخليها لنا بتقول إن مثلًا عشرين واحد مات، والحقيقة

تكون أربعين، يعملوا إيه في الجثث الباقية؟ يا إما يسلموها لأهاليها، أو لو مش عارفين يوصلوا لحد منهم يدفنوها في مقابر الصدقة من غير تصاريح، فيه كام جثة من اللي أعلنوا عنها ممكن تكون ماهاش معالم، فيقوموا مطلّعين ليها تصاريح وتندفن برضه في مقابر الصدقة، فهمت يا أبو السّيد؟"

– "يعني الجثث دي المستشفى هاتدفنها من غير ما حد يعرف عنها حاجة؟!"

– "الله ينوّر عليك".

كان (محمد) في تلك الحادثة يلتقط أنفاس بطيئة طويلة من الجوزة، ثم أعطاها لسيد الذي تلقفها وهو يلتقط أنفاس منها مفكرًا، و(محمد) يقول وهو يهرش في رأسه:

– "شوفت بقى إن الموضوع مفيهوش مشاكل ازاي، دا كمان إنت بتاخد ثواب علشان هاتساعد على دفن الجثث، يعني ثواب وفلوس يا راجل".

انتبه (سيد) فجأة ورفع رأسه كأنه تذكر شيء وقال بشك:

– "أنت قلت إنك هتبيع الجثث وعايز تتأكد من عضمها؟"

نفخ (هادي) متضايقًا وهو يتناول عصا الجوزة من (سيد) قائلًا بنفاد صبر:

– "ما تشوفلك حل في صاحبك ده يا أبو حميد".

قال (محمد) بطريقة ناعمة:

– "بص يا (سيد)، الجثث دي بتبقى مليانة خير من كله، طلبة طب عايزين يتمرنوا في بيتوهم.. ناس بتعمل تجارب على أعضاء بشرية، جماعة كده بجولك ويقولوا لك محتاجين عضم الجثث بعد ما تتحلل، ناس عايزة جماجم تطحنها، وغيرهم وغيرهم.. كلهم بيدفعوا زي الفل، وصدقني دي كلها خدمات مش حرام، بالعكس انت بتعمل جمايل لناس وبتعمل خير كمان".

– "هو إيه اللي مش حرام ده يا (محمد)؟!! انت اتجننت؟!!"

– "يا جدع اهدا بس واسمع، هي الجثة هتفهم صاحبها في إيه بس؟ ما هي روحه بقت مع ربنا خلاص يا جدع، ثم كمان اسأل في الدين وهايقولك إن الروح هي اللي بتعيش في نعيم أو عذاب لما الإنسان يموت، يعني الجثة مابتبقاش ليها لزمة والأرض بتاكلها واحدة واحدة، إحنا بقى بنفيد طلبة طب وبنخليهم يتعلموا عليها ويذاكروا، وكمان علشان البحث العلمي يا جدع، وكل مصلحة وليها ناسها".

ابتلع (سيد) ريقه وهو يفكر في حين أخذ (محمد) الجوزة وهو يعطيها له ويقول ضاحكًا:

– "انسى يا جدع وماتفكرش كتير في الحاجات دي، خلّي العايش عايش والميت ميت، ومحدش بيشتكي لحد".

– "أيوه محدش بيشتكي لحد علشان معندهومش لسان يتكلموا".

قال (هادي) بسخرية:

– "ومين اللي قالك إنهم ما بيتكلموش، ساعات العفاريت بيطلعوا برضه يعملوا شويتين وينادوا تاني".

ضحك الاثنان وابتسم (سيد) وهو يقول لهادي مستفسرًا:

– "حقيقي موضوع العفاريت والأرواح ده؟"

قال (هادي) بدون أن يرفع عينيه من على الجوزة:

– "والله أنا ماشوفتش عيني عينك عفاريت، سمعت أصوات آه.. وحسيت أكتر من مرة إن حد جنبي أو معدي أو صوت خروشة.. لكن ماشوفتش عفريت قدامي، لكن الحكايات اللي سمعتها من أهلي كتير أوي ما يتعدّش".

– "هو انت أهلك كلهم شغالين..."

– "تُربيّة.. أنا أعمامي كلهم شغالين في المدافن، وجدودنا من زمان برضه، من أيام أبو جدي".

شعر (سيد) بأن هناك شيء ما يدخل في مجال إبصاره من على يمينه؛ أي من اتجاه باب الغرفة فنظر بعينيه ناحية الباب ببطء كي يتأكد من أنه يتخيل، ولكنه فوجئ بعيون خضراء تنظر له بفزع!!! شهق (سيد) وهو يقف ويرجع للوراء فيتعثر ويسقط، وقام (محمد) مفزوعًا وهو ينظر عند الباب...

– "تحب تاكل حاجة يا (علي)؟"

قائل العبارة كان (هادي)، والذي لم يحرك عينيه من على الجوزة وهو يقول تلك العبارة للشخص الواقف على الباب بنوع من اللامبالاة، ثم تبعها بأن مد يده إلى المنضدة الصغيرة التي وضع عليها بعض الأشياء، وتناول كيسًا يحوي فتات خبز قديم ورماه باتجاه الشخص الواقف ليقع تحت قدميه، جلس الواقف على ركبتيه وهو يمسك الكيس ويفتحه ويأخذ منه لقيمات يضعها في فمه وهو يمضغها

ناظرًا لمحمد و(سيد)، اللذين تمالكا أعصابهما وهما يستفسران عن هذا الشخص.

في الحقيقة كان الشخص الواقف شابًا في العشرينات من عمره، قسمات وجهه تختفي تحت بعض الأتربة وإن كانت تميزها الوسامة وخاصة بعينيه الخضراء، شعره مغبرًا بالأتربة ومنكوش وإن كان طويلًا لحد زائد، جسده نحيل جدًا، وهو نفسه ضئيل الجسد قصير ولكن ليس بدرجة كبيرة.

يرتدي قميصًا ممزقًا يظهر من تحته تي شيرت بلون أحمر متسخ، وسروالًا باليًا، وحافي القدمين، مظهره يوحي بالشفقة أكثر منه بالخوف، وقد نزل على ركبتيه وهو يأكل الخبز وينظر لهم في حين قال (محمد) بحذر:

– "مين الواد ده يا بني؟"

– "غريبة.. إنت أول مرة تشوف (علي)؟! ده معروف هنا أوي في الترب".

– "يعني إنت شايفني كنت ساكن معاك هنا!!"

جلس (سيد) على كرسيه وقد هدأ قليلًا، وكذلك (محمد) عاد للجلوس على الفراش وهو يتناول عصا الجوزة ويستمع لهادي الذي قال موجهًا حديثه لعلي الذي ما زال يأكل:

– "امشي يا علي دلوقت وخد الأكل معاك".

أخذ (علي) الخبز وضمّه إلى صدره وهو ينهض ثم يغادر الغرفة بهدوء...

– "زمان لما كنت صغير كان فيه حكاية كده باسمعها عن مقبرة هنا جوا لشيخ اسمه (صالح عبد الراضي أبو العنين)، اندفن هنا في قبر عيلتهم في ١٩١٦، وده التاريخ اللي محفور على القبر، المهم اللي حضر الكلام ده هو أبو جدي الله يرحمه، واللي وصّى جدي الوصية اللي جدي وصى بيها أبويا وأبويا وصّهاني"..

– "وصية إيه؟!"

– "ما نقرّبش للقبر ده كل يوم تلات، حتى لو سمعنا أصوات عنده أو شوفت نور أو صوت حد بيخبط".

قال (سيد) برهبة:

– "أصوات إيه دي؟"

– "والله الكلام كتير، جدي كان بيقول إن الشيخ أبو العنين كان من الصوفية، وكان راجل زاهد في الدنيا، وإن كل يوم تلات تحصل حلقة ذكر كبيرة يعملها الشيخ أبو العنين في حضرة الجان، أو بيقولوا اللي بيموت بيفضل قرينه عايش، وكل الناس الكويسين اللي ماتوا بيتجمعوا في الليلة دي بيذكروا ربنا عند قبر الشيخ الطيب ده، وعشان كده استحالة حد فينا كان يقرب من الحوش اللي اندفن فيه الشيخ أبو العنين بالليل، وحتى جدي كان بيقول إن بعد ما اندفن الشيخ بحوالي سنتين مات واحد من عيلته.."

أخذ (هادي) أنفاسًا طويلة من الجوزة وهو يحرك الفحم بالماسك وهو يقول:

- "فتحنا القبر ودخلنا الراجل اللي كانوا بيقولوا إنه فتوة بياخد فلوس من الناس علشان يحميهم، وياما قتل ناس وبهدل ناس، المهم إن جدي بيقول إنه كان صغير ساعتها ولما بيدفنوا الراجل ده جنب الشيخ أبو العنين، وبعد ما الدفن بليلتين بقوا يسمعوا أصوات حد بيصرخ وكأنه بيصرخ من الوجع، الصوت كان جاي من جوه الحوش بتاع عيلة أبو العنين.. فاتت كام ليلة على الحال ده لغاية ما حلم أبو جدي وأخواته في نفس الليلة بالشيخ أبو العنين جايلهم في الحلم وبيزعق ويقول: "شيلوا النجس ده من جنبي".. الحلم اتكرر كام مرة، وبعديها لقوا رجالة عيلة أبو العنين جايين يطلبوا إنهم يشيلوا الجثة اللي دفنوها جديد من جنب الشيخ أبو العنين علشان هو زارهم في المنام كتير وصاحهم بكده.. المهم فتحوا القبر وشالوا الجثة ودخلوها جبانة تانية وعملوا حاجة غريبة أوي"..

كان الترقب قد وصل إلى قمته عند تلك النقطة من الحكاية الغريبة و(محمد) و(سيد) ينتظران من (هادي) أن يكمل، والذي أكمل قائلًا وهو يحرك الجوزة وينظر لهما:

- "أبو جدي وأخواته شالوا الباب الحديد بتاع الحوش وبنوا مكانه سور من الطوب، وحطوا رخامة باسم الشيخ أبو العنين وعليها السنة اللي بيقولوا إنه مات فيها، وبكدة مفيش حد قدر يخش حوش القبر من ساعتها ولا حد شاف القبر اللي جوه حتى لغاية دلوقت".

- "وموضوع الأصوات ده حقيقي ولّا الحكاية؟"

- "والله أنا ماعرفش، بس أنا مقرّبتش ولا مرة من المكان ده بالليل ولا سمعت صوت خالص، إلا في اليوم اللي شوفت فيه الواد (علي)"..

- "(علي) مين؟!"

- "(علي الطيب).. الواد اللي كان واقف هنا دلوقت، أمال انت فاكرني بحكيلك على الحكاية دي ليه.. ما هو علشان أقولك مين (علي) ده"..

تنحنح (هادي) وهو يعطي الجوزة لسيد ويكمل:

- "كنت أنا مخلّص اعدادية كده أو أول كنت دخلت ثانوي مش فاكر أوي.. وكنت قاعد مع أبويا وأمي بنتعشى وكنا ليلة التلات، سمعنا صوت بيصرخ ويعيط ويتوجّع بس كأنه جاي من عيل صغير، خرج أبويا جري وأنا جريت وراه واحنا بندور على المكان اللي الصوت خارج منه، الصوت يعلى واحنا نجري أكتر ناحيته، لغاية ما قرّبنا من حوش الشيخ أبو العنين، هنا أبويا وقّفني وقال لي ما تتحركش من مكانك، وما رضيش يخلّيني أكمل معاه، ووصّاني اقرا قرآن؛ لأن الدنيا كانت ضلمة أوي وسط الجبانات، ودخل هو في الحارات الباقية لغاية ما سمعته يقرا قرآن بصوت عالي، وينادي على مين بيصرخ.. شوية ولقيته خارج وهو ماسك في إيده عيل صغير فاتح بقه وعينه وشكله كده ما يعدّيش سبع أو تمن سنين بالكتير، أبويا كان ماسك الواد وهو بيحاول يكلمه والواد ساكت خالص وفاتح بقه، رجعنا تاني على الأودة بتاعتنا نحاول نعرف حكاية الواد ده؟ الواد كان لابس لبس نضيف وشكله ابن ناس، لكنه مابينطقش خالص وفضل ساكت كده طول الليل، أبويا قال إنه لما قرّب من

مقبرة الشيخ أبو العينين ملقاش حاجة والواد ده كان واقف ساكت وباصص للحيطة اللي قافلة الحوش، طبعًا ابويا قعد كام شهر بدور على أهل الواد ده محدش عرف يستدل على حاجة، سمّاه (علي)، وبدأ هو يختفي ويغيب يومين ويرجع تاني لأودتنا، كان يقعد يلف في المقابر وينام فيها واحنا طبعًا مش كل يوم كنا هاندور عليه في الجبّانات، فاتعوّدنا نسيبه يعيش حياته، والناس كمان اتعودوا يسيبوه بعد ماعرفوا بيه وبحكايته، وبقى كل واحد يعطف عليه باللي يقدر عليه، لا عمره اتكلم ولا عمره أذى حد، دايمًا في حاله لا بيسأل على أكل ولا بيسأل على نومة، ياكل أي حاجة يقدموها الناس ليه وينام في أي مكان النوم يكبس عليه فيه. علشان كده سمّاه الطيب، عرفتوا بقى حكاية الواد ده إيه؟!"

امتلأ جو الغرفة بالأدخنة، وقد بدأ مفعول المخدرات باللعب في عقولهم، وبدأت الأجساد بالتراخي، فلم يتكلم أحد بعد انتهاء كلام (هادي)، وإنما ظلوا يدخنون لدقائق، قبل أن يقول (سيد) وقد تذكر شيئًا:

– "الجثث اللي في العربية دي إحنا نسيناها!!"

– "هاهاهاهاهاهاهاها.. تصدق أني نسيت إنكم جايين هنا علشان تدفنوا جثث، والله القعدة الحلوة ماتتعوضش بس برضه الشغل شغل".

قام (هادي) مترنحًا وهو يقول لهما والضحكة لم تزل على شفتيه:

– "يااللا بينا يا شباب علشان نخلص شغلنا"

***

الفصل السادس

((لم يكن هناك مفر من أن يتحدثا في موضوع الزواج، فالوقت قد فات وهما الآن في السنة الرابعة.. من بدأ الحديث هو (حاتم)، عندما قال لها إنه سيتقدم لخطبتها بعد انتهاء الدراسة، ظهر الخجل عليها ممزوج بالفرحة، ولكنه قال لها بارتباك إنه يخشى أن يرفضه والدها لأنه لم ينته من تكوين مستقبله بعد وما زال يحتاج لعمل يدر عليه دخلًا كبيرًا.

الواقع أن والد (حاتم) قد أعد عدته ليوم زواجه وقام بتوفير شقة خاصة له، وكذلك تعب كثيرًا حتى يوفر نقودًا تعينه على هذا اليوم، و(حاتم) كان يعلم هذا جيدًا، ولكنه يشعر من داخله بأنه بذلك يضغط على عائلته أكثر من اللازم، فكان يريد عملًا يدر عليه الدخل السريع، ولكن (داليا) بادرته بطلب عجيب:

– "فاضل حوالي سنة على ما نخلّص جامعة صح؟"

رد (حاتم) عليها بتلقائية:

– "مظبوط".

– "وانت عايز تتقدم لي بعد السنة دي؟"

– "طبعًا.. ولازم ساعتها أكون شغال في شغلانة كويسة".

– "إيه رأيك تشتغل كاتب؟"

قهقه (حاتم) ضاحكًا فأكملت (داليا) بجدية:

- "إنت بتحب التأليف من زمان يا (حاتم)، دايمًا تقولي إنك نفسك تشتغل مؤلف.."

- "مفيش مؤلف بيكسب فلوس من التأليف إلا مؤلفين قليلين أوي، وكمان مش هادخل على أبوكي وأقوله إني شغال مؤلف".

- "لا ممكن، وأنا هاقولك على الحل"

- "الحل؟!!!"

- "قدامك سنة من دلوقت يا (حاتم)، وفي السنة دي مش هسألك على أي حاجة تبع شغلك، لكن هايبقى قدامك فرصة واحدة بس إن بعد السنة دي تنجح في القصص والروايات وتكسب فلوس منها كمان، ولو عدّت السنة دي من غير ما تنجح في المجال ده.. يبقى.."

نظر لها (حاتم) بدهشة وقد توقفت ضحكاته ونظر لها بجدية كالتي تنظر بها له، مرت فترة صمت وقال هو بعدها:

- "إنتي بتتكلمي بجد؟ إنتي عارفة إن مفيش دار نشر بتقبل تنشر لي حاجة، ودايمًا عايزين يأما الحاجات الخفيفة أوي أو الضايقة أوي أو المثيرة أوي".

- "أكيد فيه حل، وكتاباتك هاتفرض نفسها على الناس..."

- "إيه كلام الأفلام ده؟ كتابات إيه اللي هاتفرض نفسها دي؟ هو أنا النشر لي حاجة أساسًا، وكمان مين ده اللي هاينشر لي حاجة وهايهتم بيها كدعاية وتوزيع، الكلام ده صعب".

- "(حاتم).. الفرصة قدامك.. يا إمّا تكون واثق في موهبتك وواثق إنك هاتوصل، يا إما ماتحاولش تكتب تاني وكتابة بقى رواياتك وقصصك اللي إنت عمال تحوشها دي من غير فايدة، سنة كاملة وبعديها هاتكون قدام أمر واقع مش هاتعرف تهرب منه، ممكن تقدر تكسب من كتاباتك وتنجح وتبقى مؤلف هايل... أو من دلوقت تدور على شغل تاني".

تغيرت نظرات (حاتم) لـ (داليا) لتصبح نظراته مليئة بالدهشة من طريقتها العنيفة والتي أول مرة تستخدمها معه في الحديث:

- "ما لك يا (داليا)؟ إنتي بتقولي كلام مش معقول، عايزاني أكسب فلوس من الكتابة إزاي في خلال سنة واحدة بس، وإنتي عارفة إني بلف على دور النشر من زمان ومحدش عايز ينشر لي صفحة واحدة بس، أنا كده ممكن أعمل حاجة أحسن، أنا هاكتب قصص جنسية وأبيعها للجرايد الصفرا وبكدة هاكسب الفلوس اللي إنتي عايزاها".

نظرت (داليا) للأرض والدموع تتكون في عينيها وتقول بصوت خفيض مهزوز:

- "أنا آسفة يا حبيبي.. أنا كنت فاكرة أني بكلامي اللي فات باستفزك علشان تنجح في المجال اللي إنت بتحبه، أنا مش متخيلاك بتشتغل حاجة تانية غير إنك تبقى مؤلف مشهور، أنا عمري ما هاتجوز غيرك، وهافضل مستنياك لو حتى قعدت ١٠٠ سنة علشان

تنشر قصصك، إوعى تبيع دماغك خد يا (حاتم)، إوعى تبهدل موهبتك، أنا هاستناك وعمري ما...."

قاطعها (حاتم) بجدية صارمة قائلاً:

– "اسكتي يا (داليا).. المرة دي أنا اللي هاتفق معاكي فيه على الفاق، أنا قدامي سنة بالظبط علشان أقدملك رسمي ليتكم، وفي السنة دي أنا هاثبت نفسي في الكتابة وهانشر قصة من تأليفي، وأوعدك لو السنة عدت وفشلت.. أنا هابطل كتابة وهاشتغل أي حاجة تانية".

كادت (داليا) أن تتكلم وترد على جملته، ولكنه بادرها بأن رفع يده ليسكتها، ثم استأذن منها لينصرف ونهض مغادراً المكان بعد أن ترك الحساب على المنضدة)).

الفصل السابع

الساعة الحادية عشر والنصف ليلاً

وقف الثلاثة أمام السيارة ينظرون لها، و(هادي) يتلفت حوله بين الحين والآخر بحذر، فتح (سيد) الباب الخلفي للسيارة بتردد، وبرغم تأثير الحشيش الذي عصف بعقله إلا أنه ظل يردد: (أنتم السابقون ونحن اللاحقون).. أكثر من مرة وكأنها عزيمة ستحميه من شر الأموات.

أما (محمد) فقد وقف خلفه ليساعده على إخراج الجثث، وكانت أول جثة ليست جثة بالمعنى المعروف، بل الكفن الأبيض مغلق تماماً ولكنه أقل في الطول من طول إنسان، هنا قال (سيد) بصوت خافض ويد مرتعشة لمحمد وهو يسحب الكفن ناحيته ليخرجه من السيارة:

– "دي الجثة المقطعة".

لم يردّ على (محمد) الثائر، ولكنه ساعده على سحب الجثة وحملها خارج السيارة ليستقبلهم (هادي) بسرعة قبل أن تقع الجثة، عندما حمل (محمد) الجثة شعر باشمئزاز فجأة من ملمس الجسد المقطع وهو لا يعلم أي قطعة يلمسها الآن من خارج الكفن، قال (هادي) لسيد وهو يحمل الجثة مع (محمد):

– "أنا و(محمد) هانروح نحط الجثة جنب المدفن، وانت امشي هنا جنب الجثث لغاية ما نرجع".

بالفعل قام الاثنان بنقل الجثة الأولى، وعادا لسيد الذي كان على وشك الموت خوفًا من وقفته بجانب الأكفان وحيدًا، العجيب برغم أنك تعلم أن الجثة لن تعود للحياة وأنها لن تؤذيك إلا أنك تظل خائفًا من النظر إلى الجثة..

وأضف إلى هذا علمك بأن تلك الجثث مشوهة ومقطعة، وأنها ماتت في حادثة مؤلمة، خيالك سينسج لك ألف شكل لتلك الجثث برغم أنك لم ترها بعد، وربما كان مظهرها الحقيقي أقل وطأة عليك من المظهر الذي رسمه خيالك، ولكنك في النهاية تكتشف أنها لن تتحرك ولن تؤذيك ولن تعود لها روحها إلا يوم الحشر.

قاما بنقل الجثة الثانية ثم الثالثة والتي ساعدهما في نقلها (سيد) بنفسه وهو ما زال يرتعش، حتى وصلوا إلى المقبرة التي وضعت الجثث بجانبها، توقف الجميع وهم يلتقطون أنفاسهم، وضوء المصباح الأبيض الصغير الذي وضعه (هادي) ينير لهم قليلًا، و(سيد) يتأمل المقبرة المقبرة المفتوحة، والتي تظهر من الخارج الدرجات التي تقود إلى الأسفل..

إلى داخل المقبرة المظلمة.. الرائحة العطنة التي تجمع بين رائحة التراب ورائحة مقززة أخرى، الأجساد الثلاثة الملقاة بجانب القبر، الليل حالك الظلمة الذي يفرد سطوته على تلك الجريمة، ورق الأشجار الذابل يغطي الأرض وقد اختلط بأغصان جافة صغيرة تتكسر تحت قدميك عند سيرك.

ثلاثة أجساد حية وثلاثة أجساد ميتة، ترى ماذا لو تبدل الأمر ودخل الأحياء للمقبرة وظل الأموات في الخارج، تراجع (سيد)

للوراء خطوة فجأة وهو يرى (هادي) يقوم بإخراج سكين صغيرة من ملابسه ويترل على ركبتيه وهو يستخدم السكين ليقطع الحبل الذي يربط الكفن لإحدى الجثث!!

فتح (سيد) فاه ولسانه لا يقوى على التحرك ليسألهم ماذا يفعلون، وخاصة بعد أن جلس (محمد) أيضًا بجانب (هادي)، وساعده على فتح جزء من الكفن فظهرت ملامح الجثة المشوهة بارزة، فداري (سيد) عينيه بيديه وصوت (هادي) يتردد:

- "جثة حلوة، بس خسارة دراعه مقطعت ورشه بايظ، وكمان جسمه مقطوع من الوسط".

كان (هادي) يقلّب في الجثة بنوع من اللامبالاة وهو يتفرس فيها جيدًا، و(محمد) يجلس بجانبه واضعًا يده على فتحتي أنفه كي يمنع تلك الرائحة التي بدأت تخرج من الجثة من الوصول إلى أنفه، أما (سيد) فهو يحاول أن يرى من بين أصابع يده التي يضعها على وجهه، قام بفتح كفن آخر لتظهر داخله أشلاء للجثة، فحاول إغلاق الكفن وهو يقول:

- "الجثة دي مش هاعرف آخد منها حاجة أصلًا لا لحم ولا عضم، دي أنا هادفنها في حتة كده بادفن فيها الجثث البايظة".

أما الكفن الثالث فقد وجد (هادي) به وجهًا مليئًا بالحروق، ودماء متجمدة تغطي الوجه والجسد، وذراع الجثة الأيسر مقطوع وموجود بداخل الكفن، بالإضافة إلى أن عينيه اليسرى تجمدت عليها مادة كأنها خرجت من العين نفسها، ظهرت معالم الفرحة على (هادي)..

– "الحمد لله، أخيرًا شوفت واحد سليم شوية، هو دراعه مفصول آه.. بس باقي الجثة سليمة ما عدا وشه بس، هايندفع فيه سعر مش اللي هو يعني بس أهو كويس"..

بالنسبة لسيد كان الوقوف كل تلك المدة مستحيلًا أمام تلك المناظر.. ولكنه لم يتخيل أن المخدرات قد أذهبت عقله تمامًا هو و(محمد) ليقفا أمام رجل ينتهك حرمة الموتى ويقوم بكل حنكة بتصنيف الجثث لبيعها أو للتخلص منها كأنه يتحدث عن سمك فاسد وسمك طازج يصلح للبيع، وربما بسبب المخدرات وافقه الاثنان على كلامه عندما قال:

– "بعد بكرة بالليل هايجيلي الناس اللي هايشيلوا الجثث، بس أنا هاأديهم الجثة دي بس، بتاعت الواد اللي من غير دراع ده وهاخلّي الجثة بتاعت الواد اللي نصه اللي تحت مفصول في التربة لغاية ما تبقى عضم وأبيعها بالحتة، أما اللي متقطع ده أنا مش هادخله التربة أساسًا ده ما يسواش تكلفة.. أنا هادفنه بمعرفتي".

لقد قرر (هادي) أن يدخل جثتان للقبر حتى يبيع السليمة قليلًا من صباح بعد غد، وسيترك الجثة المشوهة المقسومة نصفين إلى أن تتحول لعظام ليبيعها.

– "هي إيد الجثة دي ما لها؟"

هنا نظر الجميع للجثة بفضول، وقد كانت الجثة التي يشير لها (هادي) هي جثة الشاب ذي الذراع اليسرى المنتهكة والرأس المحطمة والمليئة بالحروق، ويده السليمة مش وقابضة قبضتها مغلقة، أما جسده فهو مفصول من الوسط، ولكن عندما قرّب (هادي) المصباح من

قبضة الجثة وضح أن القبضة قد ذاب الجلد المحيط بها فكوّن شكلًا متكورًا غير واضح المعالم للقبضة.

– "الواد ده قافش على حاجة!! كف إيده جواه حاجة.. مش معقول يكون كف إيده كبير كده".

قالها وهو يقترب من الجثة ويمسك يدها، ولكن (سيد) لم يتمالك نفسه وهو يتخيل أن (هادي) سيقوم بـ.....

باستخدام السكين التي يحملها، مد (سيد) يده في محاولة غير جديّة لمنعه مما سيفعل، ولكن (هادي) بكل برود غرز السكين في قبضة الجثة وأخذ يقطع بصعوبة الأصابع الظاهرة، والسكين يصدر صوتًا كالحفيف وهو يدخل ويخرج في اللحم يمزقه بلا رحمة، هل كان تأثير المخدر لتلك الدرجة التي تمنع (محمد) و(سيد) من اتخاذ ردة فعل لانتهاك حرمة الجثة؟

أم إنهم كانوا يسيرون عبثًا (ليس بعد الكفر من ذنب)، أي إنه لن يفرق معهما شيئًا بعد أن قبلا بيع الجثث ومعاملتها كأنها بضاعة.. أو كأنها أسماك...

استمر (هادي) في قطع الأصابع وإزاحة اللحم، ليبتسم وهو يقول منتصرًا:

– "مش قولتلكم الواد ده قافش على حاجة"..

كانت علبة حمراء صغيرة من التي تستخدم في محلات اللعب لحفظ الخواتم طُليت جوانبها، فتحها (هادي) وهو يتأمل الخاتمان اللذان وُضعا داخل العلبة وقد كتبت عليهما حروف بارزة.

- "يا ابن المحظوظة، دبلة دهب ودبلة فضة.. كل دي دبلة دهب!! دا انت كنت غني يا روح امك".

قال (هادي) العبارة السابقة وهو يتأمل النقش البارز من الخارج على الدبلتين وهو يقرأ الأسماء بصعوبة بحروف إنجليزية:

- " دا.. دل... دله.. دليلة.. إيه الأسماء الغريبة دي، مش مشكلة.. أهو اوتاح من الجواز خالص وهايعش الجنة كمان فوق البيعة".

أغلق العلبة بسرعة ووضعها في جيبه، و(محمد) و(سيد) ينظران له ببلاهة وكأنهما يشاهدان ضربًا من الخيال أمامهم، لقد فاق الأمر طاقة عقولهم على التحمل.

فهما مهما فعلا - وخاصة (محمد) - لم يشاركا في تشويه جثة أو استخدام سكينًا لانتهاكها بهذا الشكل، لقد فاق ما حدث قدرتهما على التحمل، وأصبح (هادي) هو القائد في ذلك الموقف، فكأنه فرض عليهما سطوته بما فعله بالجثة، وأصبحا الآن بسبب ما حدث - وبسبب تأثير المخدر - طوع أمره، ولم يجرؤ أحدهما أن يسأله عن العلبة التي احتفظ بها في جيبه.

- "يالّلا بينا ندخل الجثث بسرعة علشان عندي زيارة من ناس حبايبي زيكم كده بعد شوية".

ظلّت نظرات البله على وجهي الاثنين، ولكن (هادي) بدأ يحرك القبر وهو معطٍ ظهره له ويحمل بيده المصباح ويقول:

- "أبو حميد.. والنبي ابعطني أول جثة.. بس حاسب وانت نازل على السلالم".

نظر (محمد) إلى (سيد) في الظلام الدامس الذي عم بسبب أخذ (هادي) المصباح وقد فاق من شروده وهو يقول:

- "يالّلا بينا ننزل أول جثة".

هز (سيد) رأسه بحركة علامة الموافقة ولكن عينيه حملت شرودًا عجيبًا، وكأنه لا يدري ما يفعل.

خطوات تكسر الأغصان وورق الأشجار الذابل تتصاعد بجانبهما!! توقف (سيد) وهو يرهف السمع ويقول:

- "(محمد) أنا سامع أصوات كأن حد جاي تجاهنا"..

توقف (محمد) هو الآخر ليرهف السمع، وبالفعل سمع مثله أصوات أغصان تتحطم، فنادى الاثنان على (هادي) الذي صعد بسرعة، وضوء المصباح يبدد الظلام وهو ينظر حولهم حتى وقعت عيناه على خيال شخص يقترب بحذر منهم فابتسم (هادي) قائلًا بسخرية وهو يعود للدخول للمقبرة بظهره:

- "ده الواد (علي الطيب).. تلاقيه جه لما شاف النور"...

بالفعل اقترب (علي) بمشيته البطيئة منهم وهو ينظر للجثث على الأرض.. اقترب منهم قليلًا ثم جلس متربعًا على الأرض قريبًا من الجثث وهو ينظر لها متأملًا إياها.

- "الواد ده مش هايفضحنا يا (هادي)؟".

قالها (محمد) بصوت خافض فجاءه صوت (هادي) من داخل المقبرة وهو يقول بنفاد صبر:

– "ما تخافش.. ده يا ما شاف كتير، المهم ناولني أول جثة بقى".

بالفعل غطّى (محمد) أول كفن على قدر ما استطاع، وقد كان كفن الشاب الذي يحمل العلبة، ثم سحبه على الأرض وساعده (سيد) بيد مهزوزة على رفعه عن الأرض قليلًا ليُنزل (محمد) بظهره الدرج لأسفل، ويلتقطه (هادي) من داخل فتحة القبر.

للصدق وللأمانة كانت عين (علي) غريبة، يمكنك وأنت تسير في الشارع أن تقابل متخلّفًا عقليًا أو مخلوبًا أو مجنونًا أو مصابًا بالفصام أو جنون العظمة، يمكنك أن تميز العيون فتعرف أن هذا المجنون لا يدري ما يفعله بحق، وأن هذا المجنون مغيّب الوعي، وأن هذا قد فقد منطقية التفكير..

عين (علي) كانت تتحرك بطريقة توحي لك بأنه يعطيك وعيًا ناضجًا، ويفهم ما يحدث، ويفهم الفرق بين الموت والحياة، وبين الصواب والخطأ.

كانت عيناه في تلك اللحظة مركّزة على الجثة ذات الذراع الأيمن، بالرغم من أن الإضاءة تعتبر منعدمة إلا من ضوء بسيط يخرج من المصباح من داخل القبر، إلا أن (علي) قد تركزت عيناه على ذراع الجثة الأيمن.. الأصابع تحركت!!

صعد هنا (سيد) و(محمد) فنظر (علي) لهما وأشار بيده بهدوء ناحية الجثة، فنظر الاثنان بعدم فهم له، ثم نظرا للجثة فوجدا الأصابع تتحرك حركة صغيرة غير واضحة ثم تخمد!!؟ شهق (محمد)، وتراجع

(سيد)، فصعد (هادي) بسرعة وهو يحمل المصباح وينظر لهما مستفسرًا، فقال (سيد) وقد انفلتت أعصابه:

– "الـــ.. الـــ.. الجثة حركت إيديها!! الجثة حركت إيديها!!"

وأخذ يبلع ريقه بعد تلك العبارة ويتنفس بسرعة شديدة، فنظر (هادي) لمحمد مستفسرًا فقال (محمد) وهو يشير للجثة برعب:

– "الجثة حركت صوابعها يا (هادي)".

اقترب (هادي) من الجثة ونظر لها متفحصًا ثم ركلها بقدمه عدة مرات، ونظر بعدها لهما قائلًا بعصبية:

– "أهو يا سيدي.. الجثة لا بتتحرك ولا حاجة، أكيد كانت الجثة بترتخي بعد ما بتصلب الأول، عادي يا جماعة.. الكلام ده شوفناه كتير.. المهم يالّلا بينا بسرعة"...

قالها وهو يعود للنزول مجددًا والباقين يتابعونه.. لكن عين (علي) ظلت على يد الجثة، ظلت معلقة بها، ظلت مركّزة بشدة على أصابعها.. وبالفعل تحركت مرة أخرى!!؟

الفصل الثامن

سمعت (داليا) أصوات طرقات على باب الغرفة، فتوقفت عن تكملة بقية الحكاية مع شقيقتها، انفتح باب الغرفة فظهر خلفه شقيقهما الصغير ينظر لهما بحذر وخجل ويتجه ناحية (داليا)، ثم يصعد على الفراش ويجلس بين يديها ويقرب فمه من أذنها قائلًا لها:

– "إلى زعلانة ليه يا (داليا)؟"

ضحكت (داليا) من حنان شقيقها، فاحتضنته وهي تقول له:

– "لا يا حبيبي أنا مش زعلانة خلاص.. كنت تعبانة شوية ودلوقت بقيت زي الحصان.. ولو مش مصدق تعالى أورّيك".

أمسكته ورفعته للأعلى ثم أنزلته على الفراش وأخذت تداعبه وهو يضحك، حتى سمعت صوت شقيقتها (داليا) تقول:

– "أيوه.. خلّيكم كده علشان آخد صورة ليكي وانتي شبه أُمّنا الغولة بشعرك المنكوش ده"...

نظرت لها سريعًا فوجدتها تمسك هاتفها المحمول وهي تلتقط لها صورة، فرفعت يديها أمام وجهها بمرح كي لا تظهر تفاصيل ملامحها، في حين التقطت (دعاء) أكثر من صورة محاولة أن تقترب من وجهها بعناد ومرح طفولي، و(داليا) تحاول الهروب من كاميرا الهاتف المحمول.

هدأت (دعاء) وأخذت تقلب في الصور التي التقطتها، في حين جلست (داليا) وأكملت مداعبتها لشقيقها الأصغر.

– "(داليا).. عايزاكي هنا بسرعة تشوفي حاجة"!!

نطقتها (دعاء) بصوت جاد وهي ما زالت تنظر لهاتفها، فنظرت لها (داليا) متسائلة؛ فرددت (دعاء) نفس العبارة، مما جعل الأولى تنهض وتنزل من على الفراش وتقترب منها.

أعطت (دعاء) الهاتف المحمول لها وقد عقدت حاجبيها من الدهشة وهي تعطيها الهاتف، مما جعل (داليا) تنظر بسرعة لشاشة الهاتف.. صورها هي وشقيقها على الفراش، ما هذا الذي ظهر على يسار الصورة؟! لون أسود شفاف!!

لون أسود شفاف له كتلة قريب من وجه (داليا).. باقي الصور تظهر بها نفس الكتلة السوداء الشفافة ولكن من لقطات مختلفة.. إحدى الصور كانت قريبة من رأس (داليا)، وبالتالي من الكتلة السوداء الشفافة.. الكتلة السوداء تتخذ شكلًا أقرب إلى الرأس!!

رفعت (داليا) عينيها لشقيقتها مندهشة!!

***

وضعت (دينا) السماعة وهي تريح رأسها على ظهر المقعد، هل سيقوم شقيقها الوحيد بإحضار المحامي كما طلبت! هو قال لها إنه كان يتحدث مع زوجها قبل موته بليلتين عن هذا الموضوع، وانه كان يخبيء لها مفاجأة الميراث، فجأة انتبهت لصوت جرس هاتفها يأتي من غرفة النوم، نهضت من على المقعد واتجهت إلى غرفة النوم وهي تبحث عن الهاتف حتى وجدته على (التسريحة)، أمسكته وهي تتطلع إلى شاشته!! اسم المتصل هو (حبيبي)!! إنه الاسم الذي سجلت به رقم هاتف زوجها المتوفى!! أغمضت عينيها وفتحتهما.. الهاتف المحمول يرن.. ولكنها نزعت شريحة الاتصال من هاتف زوجها بعد دفنه أمس!! الهاتف ما زال يرن.. أمسكته بفزع وضغطت زر الرد.. ووضعت الهاتف على أذنها بتردد.. لا صوت... قالت: "ألو".. ولا مجيب، كانت تنظر في تلك اللحظة أمامها في المرآة والهاتف على أذنها.. ولكنها أسقطت الهاتف مما رأت.

وجه من الدخان يظهر لها في المرآة!! وجه بملامح واضحة مرسومة لرجل أفطس الأنف ولحيته كبيرة واضحة، ويبدو من رأسه انه أصلع، اقتربت أكثر من المرآة وهي تتأمل ملامح الوجه.. وشفتيها تردد كلمة صوت ظلت ترددها إلى أن خرجت من فمها بصوت مسموع وهي تقول: "النصف ميت"...

(مقطع من الرواية الأصلية)

انتهى (هادي) من إغلاق باب القبر بالقفل وحوله (سيد) و(محمد) صامتين، وهم يرباله يمسك الكفن الثالث الذي تركه للنهاية.. يحمله بصعوبة ويفشل، ثم يعود محاولة حمله فيفشل، فيقرر أن يجره خلفه، وبالفعل حمل المصباح بيده اليسرى وبيده اليمنى أخذ يجر الكفن الثالث وراءه، والذي يحمل الجثة المقطعة أشلاء.

الظلام يحيط بمكان القبر، و(علي) ما زال جالسًا، و(محمد) و(سيد) يسيران خلف (هادي) كي يلحقا بضوء مصباحه..

– "هو احنا هانسيب (علي) في الضلمة لوحده؟"

قالها (سيد) وهو ينظر خلفه للظلام محاولًا أن يرى (علي) الجالس، فرد عليه (هادي) بلا مبالاة:

– "ما تخافش.. هوَّ متعوِّد على كده".

ظل الجميع يسير بلا صوت حتى مرت دقائق وخرجوا من منطقة المقابر وقد اقتربوا من السيارة... فتوقف (هادي) فجأة وهو ينظر إلى سيارة (**hummer**) سوداء ضخمة تقف، نظر للباقين وقال:

– "طب امشوا إنتوا دلوقت علشان الضيوف اللي أنا مستنيهم وصلوا ومش هاينفع أتأخر عليهم".

نظرا له باستغراب.. فلم يعطهما الفرصة وعاد أدراجه وهو يجر الكفن خلفه ويقول قبل أن يبتعد:

– "اتصل بيَّا بكرة يا (محمد) علشان نتفق على حبة حاجات.. ماشي؟"

قالها (هادي) وهو يتعبد هو والصباح، في حين أن (سيد) نظر إلى (محمد) وهو يقول له:

- "هو ما له بص على العربية الواقفة هناك دي وجري ليه؟ ومين الناس اللي هو مستخبيهم؟"

- "هالونك.. بس قدى وما تسألش أسئلة"..

اقترب من أذن (سيد) وهو يقول له كلمات بصوت خافض، فاتسعت عينا (سيد) وانفتح فمه في رهبة وهو يشهق بصوت عال...

***

انتهى (هادي) من دفن الأشلاء في التراب، ثم أخذ ينفض يديه وأخذ الرفش معه، واتجه متجاوزًا الأشجار الكثيفة، وسار حتى وصل إلى غرفته الصغيرة، ولكنه بدلًا من أن يفتح باب الغرفة طرق عليها من الخارج وكأنه يستأذن في الدخول، فسمع من الداخل صوت جهوري يقول:

- "ادخل يا (هادي)"..

انفتح الباب فدخل (هادي) وهو ينظر إلى الرجل الجالس على أحد المقاعد يرتدي بزّة رمادية وربطة عنق أنيقة ونظارة طبية ذهبية الإطار ويفوح منه عطر راقٍ.. نظر (هادي) لمن فتح له الباب فوجده شابًا ضخم الجثة، يرتدي بزة سوداء، وعلى وجهه نظرة متصلّبة، وبجانبه شاب آخر يحمل نفس الصفات يقف ناظرًا إليه بوجه جامد، أما بجانب الرجل الذي يجلس فوقف شاب آخر قليل البنية عن الشابين الآخرين، لكن ملامحه تحمل شراسة تفوق شراسة ملامح الشابين..

- "(طاهر) باشا.. والله نوّرتنا".

قالها (هادي) متلهّفًا، فابتسم الرجل الجالس بمودة وهو ينهض ويقترب من (هادي) الذي نظر للأرض في رعب من هيبة الرجل.. اقترب وربت على كتفه بمودة وهو يقول:

- "اتصلت بيّا النهاردة وبلّغتني إن فيه أمانة.. ها.. قولي سنّها كام؟"

ابتسم (هادي) وهو يبلع ريقه قائلًا:

- "لا يا باشا ما اقولّكش على الحلاوة ولا الجمال ولا الشعر.. سنّها مش أكتر من ٢٥ سنة، حاجة تقول للقمر قوم وأنا اقعد مطرحك.. لا مرض ولا عيب فيها، ولسة داخلة الليلة الساعة ٨ ونص؛ يعني ساعة ما كلمت حضرتك بالظبط".

زادت ابتسامة الرجل وهو يعود مرة أخرى للجلوس على المقعد ويقول بصوته الجهوري القوي:

- "لو عجبتني هازودك ألف جنيه فوق ما احنا متفقين".

- "يا باشا خيرك سابق، أهم حاجة عندي إنك تنبسط وتتمتع".

- "إدّيله الفلوس يا (احمد)".

أخرج أحد الشباب الواقفين بجانب الباب من جيب بذلته مبلغًا وعدّه جيدًا ليتأكد أنه ثلاثة آلاف جنيه، ثم أعطاها لهادي الذي أخذها بلهفة وهو يقول لطاهر:

- "طب يا باشا أنا رايح أجيب الأمانة وجاي على طول"..

كاد (هادي) أن يغادر.. إلا أن صوت (طاهر) ارتفع وهو يأمر الاثنين الواقفين عند الباب بالذهاب معه ومساعدته.

خرج (هادي) حاملًا مصباحه يتلفّت حوله وهو يسير وبجانبه الحارسان الشخصيان لطاهر الرجل الغريب الذي ينتظره في غرفته.. المصباح يبدد الظلام أمامهم والحارسان بدأت تظهر الرهبة عليهما من صفوف المقابر التي يسيرون بها، الحارسان ينظران حولهما وتحت أرجلهما وأصوات تحطم الأغصان الجافة تتصاعد من موضع أقدامهما، ونسمة هواء بسيطة تحمل رائحة التراب تعبر من خلالهم.

توقف (هادي) عند إحدى البوابات الخشبية لحوش صغير وبجانب الباب وضعت لافتة رخامية عليها اسم عائلة ما لا يظهر في الظلام، أخرج (هادي) من جيبه سلسلة مفاتيح ضخمة، وأخذ يتفحص جيدًا على ضوء المصباح الذي يحمله المفاتيح وهو يجرب بعض المفاتيح على مزلاج الباب، حتى استطاع مفتاح من تلك السلسلة أن يدور داخل المزلاج ويسمع الجميع التكة التي تشير إلى انفتاح الباب.

تقدمهما (هادي) لداخل الحوش الصغير وتأخر الشابان وهما يقفان خارج الحوش وضوء مصباح (هادي) يخرج من داخل الحوش.. ظل الاثنان ينظران لبعضهما بقلق، فهذا الموقف يضطران لخوضه كل مدة أو يضطران لمشاهدته.. بالفعل الكوابيس تطاردهما يومًا أو اثنين أو حتى أسبوع، لكن في النهاية المبالغ الهائلة التي يحصلان عليها من العمل مع هذا الرجل المدعو (طاهر) تجعلهما يضطران إلى نسيان كل هذا، ينظران لبعضهما ولكن تلك المرة النظرة تختلف، نظرة تحمل الاشمئزاز والقبح والخجل مما يحدث، نظرة تحمل لهفة غريبة..

كان كلًا منهما يتمنى من الثاني أن يقول له هيا بنا نذهب من هنا، أو يجبره على الخروج من تلك المقابر والتخلي عن الخدمة عند (طاهر) باشا والتخلي بالتالي عن المبالغ الضخمة التي تؤمن لهما مستقبلهما ومستقبل عائلتيهما، ترى لو علمت عائلتيهما بما يقومان بفعله الآن ماذا سيحدث؟ كيف سينظر الناس لهما؟

- "إيه يا رجالة!! إنتو خايفين ولّا إيه؟ ما تيجوا تساعدوني"..

انتفض الاثنان ونفضا صدريهما وهما يدخلان الحوش وينظران لمصدر الإضاءة، (هادي) يقف والتراب يغطي وجهه وملابسه ويده ولكنه يبتسم بسخرية!! وتحت قدميه الكفن الأبيض، جزء منه مفتوح يظهر منه رأس فتاة مغمضة العينان.. جميلة.. وهناك طرحة بيضاء ملقاة بجانب الرأس تدل على أن (هادي) خلعها عن رأس الفتاة الآن.

مرت لحظة والشابان ينظران لجثة الفتاة التي ترقد في وداعة ولقد شعر أولهما بانقباض في قلبه يشبه الألم من مظهرها البريء الطاهر، أما الثاني فقد تعلقت عيناه بالطرحة البيضاء الملقاة بجانب رأسها وهو يتخيل تلك الطرحة عندما كانت تغطي رأسها قبل أن يظهر شعرها الناعم المفرود هذا الشكل عندما انتزعها (هادي).

أعاد (هادي) إغلاق الكفن بعد أن تأكد من وجه الفتاة، ولكن الكفن لم يغلق جيدًا بالطبع، ثم بدأ برفع جسدها برفق، فجرى الشابان ليساعداه في حملها وهو يقول بسخرية:

- "بالرّاحة يا جماعة على البنية، دي الأموات بتحس برضه وبتوجع"...

***

أزاح (هادي) باب غرفته بعطء وبحذر كي لا تسقط الفتاة منه والشابان يساعدانه.

دخل (هادي) بجثة الفتاة ووضعها على الأرض بحرص، نظر (هادي) إلى (طاهر) الذي جلس على المقعد كما هو وفي يده مشروب يشربه باستمتاع وقد فك ربطة عنقه وخلع سترته واضعًا قدمًا على الأخرى.

فراش (هادي) نفسه فرش عليه غطاء ورديًا لطيفًا يغطي الفراش والمخدات... أما على المنضدة فوضعت زجاجتين لم يميز (هادي) نوعهما، لكنه توقع أنه نوع غال من الخمور، هذا كله غير الرائحة العطرية التي انتشرت في الغرفة لتخفي رائحتها المكتومة الدائمة.

نهض (طاهر) وهو ينظر لجثة الفتاة والجميع يزيح له الطريق، وقف عندها يتأملها لدقيقة كاملة.

يكاد يقسم (هادي) أنه كان يسمع صوت ابتلاع (طاهر) لريقه أكثر من مرة وهو يتأمل ملامح الفتاة.. فجأة رفع (طاهر) رأسه عن وجه الجثة ونظر إلى أحد حراسه وقال له:

– "إديله ألف جنيه"..

ابتسم (هادي) وهو ينظر للشاب الذي أخرج من جيبه النقود وعد منها ألف جنيه وأعطاها لهادي..

– "تؤمرني بحاجة تاني يا باشا؟؟"

هز (طاهر) رأسه نافيًا فتراجع بظهره وهو يقول:

– "بعد ما تخلّص أنا جنبك هنا.. ابعت لي أي حد من رجالتك وأنا أجيلك على طول"...

فتح (هادي) الباب وخرج والثلاثة رجال يتبعونه للخارج، وآخرهم يغلق باب الغرفة ويقف الثلاثة قريبين من الغرفة على مسافة مناسبة.

خلف الغرفة من الظلام المحيط بالمقابر تقدم (علي الطيب) يسير بخطى متأنية هادئة وعينيه حملت تعبير الخواء وهو ينظر إلى النافذة المطلة على غرفة (هادي).

تلك النافذة التي تطل على المقابر، أخذ يقترب منها والظلام يحيط به، الظلام الذي لا يخشاه، ولِمَ يخشاه؟ الظلام لا يعني له سوى الهدوء والسكينة والراحة، ربما ضايقه قليلًا ما يراه عندما يحل الظلام، ولكنه تعود عليه، حتى الآن عندما يقترب من الغرفة في وسط الظلام، هو يتوقع ما سيراه، اقترب من النافذة أكثر حتى أصبح يرى تفاصيل الغرفة، إنه هو!!

نفس الرجل الذي يدعوه الجميع بطاهر باشا يقف في الغرفة وحيدًا يفك أزرار قميصه، يخلعه حتى يظهر جسده العاري يجلس على ركبتيه ويحمل.. يحمل الفتاة!! إذن فالدور اليوم على تلك الفتاة، فتيات و فتيات ونساء ونساء وطاهر باشا وغيره وغيره، ولكن تلك الفتاة جميلة بحق.

ابتسم (علي) وهو يتخيل تلك الفتاة وهي تفتح عينيها مثلًا وتنظر له بعطف وتضمه إلى صدرها، عندما كان صغيرًا كان الأطفال

الآخرون لهم دائمًا من يضمهم إلى صدره وينامون بين يديه، أما هو فينام على التراب كل ليلة ويحلم بأحدهم يضمه إلى صدره، لم يعرف هذا الشعور من قبل، الجميع يشمئز منه وهو يعلم هذا، وهو يشمئز من الجميع ولكنهم لا يعلمون هذا، ولكنه لم يفهم شعور (طاهر) باشا هذا وهو يحمل الفتاة على يديه ويضعها على الفراش.

كيف يفعل هذا والفتاة ميتة؟ كيف يمزق رداءها الأبيض الناصع ليظهر جسدها من تحته، لماذا يعامله بهذا الشكل، المسكينة لن تقوم بأي رد فعل.. يده تتحسسها وهو يقبلها على شفتيها، لماذا يفعل ذلك؟ لماذا يعطيه (هادي) جسدها؟ هل هو ملك لهادي؟ هو يعرف أن الفتاة لا ترضى عن هذا، يشعر بذلك داخله مثلما شعر بأجساد كثيرة.

الفتاة تصرخ من داخلها.. تبكي.. تتعذب.. عظامها تئن، و(طاهر) باشا يهتك شرف جسدها.

يطلق المغتصب أصوات استمتاعه من حنجرته وجسده ينتفض والفتاة ما زالت تئن من داخلها.. يكاد يسمع توسلاتها، يكاد يشعر بأنفاسها الساخنة وهي تشهق من الألم، يكاد يسمع صرخيها..

يكاد يراها وهي تدعو.. تدعو ربها أن ينتقم لها من (هادي) و(طاهر)، هل يا ترى تدعو عليه؟ لا يسمعها تدعو عليه بعد، ولكنه ينظر الآن لما يحدث ولا يفعل شيئًا.. هنا وضعت يد قوية على كتفه فنظر خلفه بسرعة.

(هادي) يقف مبتسمًا له بسخرية وهو يقول بصوت خافض...

- "بتفرج على إيه يا (علي)؟!"

لم يجب وهو ينظر إليه، فأمسك (هادي) بيده برفق وسار وهو يجره معه حتى ابتعدا قليلًا عن غرفة هذا الأخير، وجلس (هادي) على الأرض مستندًا إلى جدار أحد الأحواش وهو يجلس (علي) معه.

مرت دقائق صمت و(هادي) ينظر للسماء برأسه المرتكنة على الحائط، و(علي) صامت بطبعه، حتى قال (هادي) بصوت مرتخي:

- "أنا عارف إنك فاهم كل حاجة يا (علي)".

لم يبدُ على (علي) أنه سمعه أساسًا وهو مرتكن على الحائط ينظر أمامه فأكمل (هادي) عبارته:

- "إنت فاهم كل حاجة، وعارف أنا باعمل إيه، وعارف إيه اللي بيحصل دلوقت في الأودة بتاعتي".

صمتَ (علي) لم يتزحزح حتى الآن...

- "عارف يا (علي) إني باعتبرك أخويا!! من أول يوم لقيناك وأنا بقول عليك أخويا بيني وبين نفسي، مستحيل تلاقي حد حبك قد ما أنا حبيتك، أو حد يخاف عليك زي ما بخاف عليك، الناس ممكن يعطفوا عليك ويدوك لقمة عيش منشة زيادة عندهم، حبة مية علشان تشرب وبعديها يكسروا الكوباية علشان قرفانين منك، يعطفوا عليك علشان يتقال عليهم إن عندهم قلب، يرموا ليك قميص مقطع بدل ما يعملوه فوطة تنضيف، حبة لبن حامضين بدل ما يرموهم في الزبالة، كل ده وانت بعيد عنهم، ولو قربت منهم تاخد بالجزمة على دماغك، عمرك ياد كان نفسك حد يحضنك في حضنه؟"

نظر له (علي) ببطء..

– "مش قولت لك أنا أخوك وحاسس بيك، أنا كمان نفسي حد ياخدني في حضنه، نفسي حد ما يقرفش مني، أنا وإنت زي بعض يا (علي)، أنا وإنت الناس بيعاملونا وحش، الوحيدين اللي عمرهم ما قرفوا منا ولا زعلوا لما نقرب منهم هما الأموات.. الجثث.. عمرك قربت من جثة يا (علي) وقالتلك لا؟ عمر جثة اشتكت إنك حضنتها؟"

عين (علي) ضاقت وهو يشير بيده باتجاه غرفة (هادي) فضحك (هادي) قائلاً:

– "(طاهر) باشا.. هاهاهاهاهاهاهاها.. إنت عارف كويس هو بيعمل إيه، إيه!! أول مرة تسأل مع إنك ياما شوفت وسكت، مش قولت لك أنا وإنت زي بعض مفيش فرق، أنا باسلّمه الجثة ينام معاها وأبقى كده وسخ، وإنت بتشوف بيعمل إيه وتسكت، لا أنا قادر أبطل اللي باعمله ولا إنت هاتقدر تعمل حاجة"..

خفض (علي) يده فقال (هادي):

– "أقول لك على سر باه يا (علي)"..

لم يبدُ على (علي) الاهتمام ولكن (هادي) أكمل وهو يغمض عينيه..

– "أنا ما بعرفش أنام.. لازم أشرب إزازة بيرة وآخد كام حباية (ترامادول) علشان النوم بهوّب ناحيتي.. كل ما أنام أحلم بحلم واحد يا جدع.. إن يوم القيامة بدأ، وأنا واقف وسط ناس كتير أوي،

وواحد بيقرب مني من وسط الناس، بيقرب مني أكتر، الناس توسع له، راجل ملوش وش، وشه ممسوح، أسأله وأنا باعيّط: إيه اللي بيحصل؟ يرد عليّ يقول: كل الناس اللي واقفين دول ذنبهم في رقبتك، وهايستنوا معاك للآخر علشان ربنا يجيبلهم حقهم منك"..

صمت (هادي) بعد آخر عبارة طويلاً فنظر له (علي) ليجد الدموع تهبط من عينيه بلا صوت.. من وسط الدموع قال:

– "أنا عارف إني لما أموت جثتي هاتتباع، وتربي هاييجي مكاني يبيعها ويقبض تمنها، ساعتها بس هاعرف إحساس الجثث اللي أنا بعتها إيه، يا ترى حقيقي بيحسوا بوجع؟ يا ترى زي ما سمعنا إنهم بيتألموا، لو كانوا كده فعلاً فتبقى البت اللي جوة دي بتصرخ من الوجع.. البت دي ماتت النهاردة من الحزن على أبوها لما عرفت إنه مات في حادثة، دنيا تضحّك يا (علي).. أبوها يموت الأول ومع ذلك لسة ما اتدفنش وهي تموت بعديه وتتدفن الأول، بكرة جثته هاتيجي الصبح علشان تتحط جنب بنته، الناس هاتعمل رخامة عليها اسم الأب (محمد عبد المعطي) ورخامة جنبها عليها اسم البت (سمية محمد عبد المعطي)، الاتنين قدرهم يكونوا مع بعض.. يعيشوا سوا ويموتوا سوا"..

ربما كان هذا السائق له قصة ما هو الآخر ولكننا لا نعلمها، إنه عم (محمد) الرجل الطيب الهادئ الذي لا يضع بالًا لشيء ما في حياته، يصلي الفروض في أوقاتها ويتطوع لصوم أيام كثيرة من كل شهر، رزقه الله بابنته الوحيدة (سمية) نور عينيه والتي يحبها أكثر من نفسه..

الفصل التاسع

صالون منزل (داليا) تجلس به الفتاتان (داليا) و(دعاء) أمام الحاسب الآلي.. هناك سلك رفيع يربط هاتف (دعاء) بالحاسب الآلي لنقل الصور التي صورتها (دعاء) إلى الحاسب الآلي، بعد دقيقة فتحت (دعاء) أول الصور التي تظهر بها الكتلة السوداء، قربتها قليلًا وقد ظهرت تفاصيلها..

– "ده مش عيب كاميرا زي ما قولتلك يا (داليا)، اللون الأسود ده كان موجود جنبك لحظة التصوير".

كانت الفتاتان تجلسان على مقعدان أمام منضدة الحاسب الآلي، فأراحت (داليا) ظهرها على ظهر المقعد وهي صامتة وشفتيها تقول مقلّبة الصور:

– "إيه حكاية اللون الأسود ده يا بت؟ ده كل ما ألقط ليكي صورة قريبة من وشك الاقي اللون بيكبر وكأنه موجود؟"

لما طال صمت (داليا) نظرت لها شقيقتها فوجدت عينيها تتسعان ببطء كأنها تتذكر شيئًا، وتنفرج شفتاها وكأنها ستقول شيئًا..

– "تعالي معايا.. عايزة أكمِّلك حكاية (حاتم)"..

– "ودة وقته يا (داليا)؟ مش تحلّيها في الصورة!!"

– "اسمعيني بس للآخر وخلّيني أكمِّلك حكاية (حاتم)".

نهضت (داليا) من مقعدها وهي تجذب (دعاء) من يدها والأخيرة تنهض مندهشة وتسير وراءها تقدم قدمًا وتؤخر الأخرى.

عندما دخلت الشقيقتان الغرفة أمسكت (داليا) هاتفها المحمول وطلبت رقم (حاتم) مرة أخرى ولكنه مغلق، جلست على الفراش وعينيها ساهمة، فلكزتها (دعاء) تستفسر منها عن السبب الذي من أجله تصر على أن تكمل لها قصة (حاتم).

نظرت لها قليلًا بنفس الوجوم ثم قالت:

- "أنا لازم أكمّلك حكاية (حاتم)".

- "وليه لازم دلوقت؟"

- "هاتعرفي ساعتها"..

جلست (داليا) هي الأخرى على طرف الفراش وانتظرت كي تكمل (داليا) الحكاية فأكملت (داليا)...

((تغير (حاتم) جدًّا بعد آخر محادثة، نعم تغير (حاتم) تمامًا.. ظهر السواد تحت عينيه، وأصبح يشرد كثيرًا، اعتذرت له (داليا) أكثر من مرة عن طريقتها في الكلام، وقالت إنها كانت تحاول أن تبث فيه روح التحدي، ولكنه كان يبتسم لها ابتسامة صفراء ويقول لها عبارة مشهورة (أنا قبلت التحدي).. شعرت بالغضب من تصرفها ولامت نفسها ليالٍ كثيرة على ما فعلته، ثم بدأت تراقب تصرفاته وخاصة لمو يسهر كثيرًا، مرت أيام تجده يجلس وحيدًا خارج قاعة المحاضرات

ينظر شاردًا، فتجلس بجانبه ولكنه لم يكن ينتبه لها، كانت تسأل نفسها كثيرًا ما الذي يفكر فيه ويجعله لا يشعر بها حتى عندما تجلس بجانبه.

قل الحديث بينهما، وقد اعتقدت أنه يحاول معاقبتها على ما فعلته معه في حديثها السابق، ولكن هذا الاعتقاد سرعان ما زال لأسباب كثيرة، منها ذلك اليوم الذي وجدته يجلس على الأعشاب بجانب قاعات المحاضرات ويسند ظهره لشجرة ما وينظر أمامه.

حاولت أن تكون مرحة، فاقتربت من وراء ظهره وأخذت تسير بخطوات بلا صوت كي يفاجأ ولكنها توقفت عند الشجرة من ظهره وأمسكت بالكتب التي وضعها بجانبه بجانب كشكول المحاضرات وكتاب في الشعر النبطي، أمسكت الكتب لتقرأ أسماءها بدهشة.

(الكوميديا الإلهية).. (فلسفة الموت).. (نصوص من كتاب الموتى).. انتبه لها (حاتم) فسألته عن سر تلك الكتب التي لم يكن يقرأ في أنواعها قديمًا، كانت إجابته أنه يقرأ تلك الكتب لتفيده في روايته الجديدة!!

قل كلام (حاتم) وقل مرحه وأصبح أكثر شرودًا وأكثر ميلًا للعزلة، ومر شهر وهو على تلك الحالة حتى وجدته في المقهى الذي تعودا الجلوس عليه يجلس عليه ومنشغل بالكتابة في شيء ما، وأوراق موضوعة أمامه بكثرة مليئة بالكلمات، اقتربت وجلست وأمسكت الورق فأجفل، ولكنها قلبت في الورق سريعًا حتى وقعت عيناها على اسم الرواية في صفحة منفصلة.. كان اسم الرواية هو (نصف ميت)!!

- "اسم غريب!!"

- "شوية"..

- "بتتكلم عن إيه القصة دي يا حبيبي؟"

- "هاتعرفي لما تخلص كلها".

- "واشمعنى المرة دي مش عايز تخليني أقراها إلا لما تخلص؟"

سكت (حاتم) ولم يرد، لسكوته وقع مفزع عليها، هل بدأ يكرهها؟ أم أصبح الآن لا يريد لها أن تطلع على إنتاجه الأدبي بعد أن كانت أول من يعلق على قصصه، أم أن هناك سرًا يخفيه في تلك الرواية؟

استمر الحال هكذا حتى جاء هذا اليوم، وكانت تتذكره جيدًا.. (الأربعاء) ٢/١٢.. حيث كانت تجلس هي و(عفاف) وباقي الشلة في غرفتها حوالي الساعة الثامنة مساء يتحدثن عن صديقتهن التي ستتم خطبتها بعد شهر من الآن على مهندس شاب، أثناء الحديث تلقت اتصالاً على هاتفها المحمول، وسمعت على الطرف الآخر صوت زميلتها في الدفعة (دلال) تقول بلهفة:

- "أنا واقفة قريب من مبنى الأولاد في المدينة الجامعية"..

- "طب عايزة إيه؟"

- "شوفت عربية إسعاف جاية وبينقلوا فيها حد، فسألت واحد عرفته من الواقفين طلع اللي بينقلوه ده (حاتم) يا (داليا)!!"

انطلقت صرخة من (داليا)، وبدون تفكير قفزت عن الفراش، وبالرغم من أنها كانت تجلس مع زميلاتها إلا أنها كانت بملابس تصلح

للخروج، ولكنها بدون طرحة تضعها على شعرها، قفزت وخرجت خارج الغرفة بدون أن تضع طرحتها وصديقاتها يجرين وراءها مهرولين وإحداهن تحمل طرحتها وتحاول أن تلحق بها.

كان منظرًا غريبًا وهي تجري حتى خرجت من المبنى ذاهبة باتجاه مبيت الرجال لتسأل عن ما يحدث.. وكانت الإجابة غريبة من أحد زملائه:

- "إحنا سمعنا خبط جوّا الأوضة وصوت حد بيزووم، قعدنا نخبط على (حاتم) ونتادي عليه هو أو على (علاء) لكن محدش بيرد والخبط شغال، كسرنا الباب لقينا (حاتم) بيتشنج وبينفض، مسكناه وحاولنا نهديه لكن حركاته كانت شديدة، لغاية ما جه واحد زميلنا قال لنا حاولوا تخلوه ينام على السرير بسرعة ومحدش يوقف حركاته.. مكناش عارفين ليه، بس فضلنا كده وواحد اتصل بالإسعاف، وفضلنا كده لغاية ما هدي وفاق وكان شكله تعبان أوي، لما جت الإسعاف أخدناه ونزلناه فيها وكان (علاء) جه من بره قام ركب معاه، وفيه ناس ركبوا عربية ومشيوا ورا الإسعاف علشان يتابعوه"..

أخذت (داليا) رقم هاتف (علاء) كي تسأله عن عنوان المستشفى، ثم أخذت (عفاف) بعد أن ارتدت الطرحة وركبا تاكسي إلى المستشفى، وهناك سمعت من الطبيب الذي تابع حالته لساعات أغرب تشخيص:

- "الأستاذ حاتم كان عنده نوبة صرع شديدة!!"

- "طب والصرع ده جاله ليه؟"

- "لا دلوقت مش هاعرف أقول السبب الحقيقي؛ لأنه ممكن يكون وراثي أو عدوى أو مشاكل في المخ، لكن هو لما يتابع معانا في المستشفى كام يوم هانتأكد كويس، إحنا عملنا رسم مخ واتأكدنا من وجود الصرع، لكن الأيام الجاية زي ما قلت لكم هانعرف أكتر"...

كانت ليلة سوداء على (داليا) التي لم تنم، وظلت ساهرة وبجانبها (عفاف) بعدما عادتا للمدينة الجامعية، وقامتا بفعل المستحيل ليسمح لهما الأمن بالدخول بعد غلق الباب، وفي اليوم التالي من الصباح كانت (داليا) تقف أمام المستشفى تحاول الدخول في غير مواعيد الزيارة الرسمية مما سبب لها الإحراج، حتى إنها انتظرت وحيدة خارج المستشفى حتى عطف عليها عمال بوابة الدخول عندما وجدوها تجلس وحيدة أمام الرصيف المقابل للمستشفى تنتظر مواعيد الزيارة التي كانت مبدأ من الساعة الواحدة ظهرًا؛ أي إنها ستنتظر أربع ساعات أخرى غير الساعتين التي انتظرتهما في البداية.

أدخلوها واستطاعت أن تصل لقسم الأمراض العصبية وتدعي أنها شقيقة (حاتم) أمام الممرضات كي يجعلنها تدخل أحد عنابر المرضى الذكور.

عندما دخلت ووجدت (حاتم) شعرت برغبة كبيرة في أن تجري عليه وتقبل كل قطعة في جسده ثم تنام على صدره لتبكي.. ظلت تجلس بجانبه وهو نائم إلى أن مرت ثلاث ساعات وفتح عينيه ليجدها تجلس بجانبه، تكلم بصوت خفيض معها وهي تنظر إليه بعينين حمراوتين من كثرة البكاء...

- "إيه اللي جابك دلوقت يا مجنونة؟"

- "بحبك".

- "شكلك لصّقتي على إدارة المستشفى عشان تدخلي دلوقت"..

- "بحبك"..

ابتسم وهو ينظر لها ثم قال:

- "دلوقت مش هاينفع أحبّي عليكي كتير، كنت فاكر إن الحياة بقت طبيعية خلاص.. وخصوصًا إني كنت منتظم في الدوا وماشي على تعليمات الدكتور.. لكن برضه جت النوبة تاني!!"

- "ألف سلامة عليك يا حبيبي"

- "أنا باتعالج من الصرع من وأنا صغير يا (داليا)، بيقولوا عليه نشاط زايد في كهربة المخ، طبعًا أنا ما باعطّش الناس وإلا باهوهو لما بيجي النوبة، لكن بتبقى حبة رعشات كده وتروح لحالها، برغم إنها ماجاتليش في الأربع سنين اللي فاتو غير كام مرة بس وكانت بسيطة، إلا إن الضغط العصبي اللي دخلت نفسي فيه هو اللي دخلني في نوبة".

- "أنا آسفة يا حبيبي إني زعلتك كده".

- "لا يا (داليا).. مش انتي اللي عملتي عليّ ضغط نفسي، الضغط علشان باكتب في الرواية الجديدة بتاعتي وعايزها تكون أنجح رواية علشان أحقق نفسي بقى"..

- "تغور الرواية.. أنا عايزاك إنت".

نظر لعينيها طويلًا وقال وهو يبتسم لها:

- "إنتي عارفة أنا عايز أنجح في مجال الكتابة؟ علشان أشوف ابتسامتك الحلوة وأشوف في عينيكي نظرة فخر بحبيبك".

- "يا حبيبي أنا فخورة بيك في كل وقت.. إنت مش محتاج إنك تتعب نفسك علشان تشوف ابتسامة في وشي أو فخر في عيني".

- "ما هو كمان علشان نتجوز يا (داليا)، وعلشان أنجح في الكتابة لازم أكون كاتب مشهور، وعلشان أكون كاتب مشهور لازم تكون الرواية تستحق، وعلشان الرواية تستحق يبقى..."

- "كفاية كلام يا حبيبي"..

ابتسم هنا (حاتم) وأراح رأسه ونظر لأعلى السقف ثم قال:

- "أنا لما النوبة بتجيلي فيه حاجات حواليا بتتحرك لوحديها!!"

ابتسمت (داليا) وطلبت منه إعادة العبارة فأعادها كما هي فقالت:

- "مش فاهمة حاجة"..

ابتسم أكثر وقال بدون أن ينظر لها:

- "زمان أوي افتكروا إني ملبوس من الجان، علشان ساعة ما تيجي النوبة تتحرك حاجات حواليا، بعد مدة لما اتأكدوا إني مش ملبوس وإن دي نوبات صرع محدش فهم ليه لما النوبة بتكون شديدة الحاجات اللي حواليا بتتحرك.."

- !!!!

- "د. أمجد فوزي جراح المخ والأعصاب اللي بيتابع حالتي في المنصورة قال إن دي حالة موجودة برا مصر، وإنه شاف زيها، وقال إن ده نشاط غير طبيعي للمخ عندي، وممكن يخلي حاجات حواليا تتحرك حركة خفيفة، وكانت نصايحه إني ما احاولش أجهد نفسي أو أتعصب علشان النوبات ما ترجعش وترجع الحاجات تتحرك حواليا أثناء النوبة.. طبعًا الموضوع مش موضوع حاجات بتتحرك بس، دي حاجات تانية هابقى أحكيلك عليها بعدين".

ظلت (داليا) تنظر له بدهشة تحاول تفسير كلامه، لكنه نظر لها وزادت ابتسامته حتى ابتسمت هي الأخرى وصدرت منها ضحكة خافتة.

***

"رجْعِتْلك النوبة يا حبيبي تاني؟" بصوت (دينا) الخافض الحاني قالت تلك العبارة، ورأس (حازم) على صدرها والعرق يملأ وجهه، وهو يتنفس بصوت عالٍ وصدره يعلو ويهبط، بعد دقيقة من ذلك الوضع انتظم تنفسه! فأخذت (دينا) تمسح بيدها على رأسه وتمتد يدها لتمسح العرق من على وجهه بحنان، وهي تقبل رأسه وهو بين ذراعيها، وتقول بصوت خافض: "تحب أغنيلك يا حبيبي؟" لم تتلق إجابة على سؤالها، ولكنها تعودت أن تغني له بعد نوبات الصرع التي تأتيه منذ أن تمت خطبتهما، تنحنحت ثم بدأت تتغنى بأغنية أم كلثوم التي يعشقها: "أمل حياتي.. يا حب غالي ما ينتهيش.. يا أحلى غنوة سمعها قلبي ولا تنسيش.. خد عمري كله بس النهاردة.. بس النهاردة.. بس النهاردة خليني أعيش.. خليني جنبك خليني في حضن قلبك خليني.. وسيبني أحلم سيبني.. وسيبني أحلم سيبني.. يا ريت زماني ما يصحّنيش"...

(مقطع من الرواية الأصلية)

***

انفتح باب غرفة (هادي)، وخرج (طاهر) وقد ارتدى قميصه على عجل وترك أزراره مفتوحة، وارتدى سرواله، وأخذ يخطو خطوات قليلة خارج الغرفة وهو يشم نسمات الليل باستمتاع وهي تصطدم بجبهته وتنعشه، وحبات العرق التي تكونت على جبهته تختفي بالتدريج.. جرى نحوه حارسه الثالث وهو يقول له:

- "حاسب يا باشا لا تستهوى"..

أوقفه (طاهر) بإشارة من يده وهو يشتم الهواء من حوله ويبتسم، فظهر من بعيد (هادي) وهو يهرول حتى وصل له وقال بابتسامة مفتعلة:

- "يا رب تكون انبسطت يا باشا، أشيلها وأرجعها يا باشا؟"

هز (طاهر) رأسه بالنفي بسرعة وهو يقول:

- "لأ سيبها.. أنا داخل ليها تاني".

أدار ظهره لهم وقال وهو يتجه للغرفة مرة أخرى:

- "إدِّيله ٥٠٠ جنيه كمان.. تسلم إيدك المرة دي يا (هادي)، البت شديدة أوي".

أخرج أحد الشباب من جيبه الخمسمائة جنيه وأعطاها لهادي الذي أخذها وسار مرة أخرى عائدًا للمكان الذي كان يجلس فيه على الأرض، ولكنه لم يجد (علي) يجلس كما تركه.. لم يكن غريبًا عليه أن يختفي هكذا.. فربما ذهب ليمشي مرة أخرى في المقابر، بالفعل كان (علي) يسير بين المقابر وهو ينظر حوله ويفكر، الليلة.. لقد تعلم العد بفطرته، تعلّم أن يرى الليلة التي يتجمعون فيها، ثم يعدّ

الليالي كالآتي واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ستة، ثم يجتمعون مرة أخرى يوم الثلاثاء..

عند هذا الحائط الجميل.. سار حتى اقترب منه، هو لم يعرف القراءة ولا الكتابة، ولو كان عرفها لكان قرأ اللوحة الرخامية القديمة التي لصقت بالأسمنت وكتب عليها: (مدافن عائلة أبو العنين ١٩٦١)...

ذلك الحائط الذي هو أقدس أسراره، وجد نفسه منذ الصغر يذهب هناك دائمًا، في تلك الليلة يشاهدهم ويستمع ويقف بعيدًا حتى يأتي الفجر.

اقترب حتى توقف قريبًا منهم، إنهم أقل من آخر ليلة ولكن لا ضير في ذلك، شيء أبيض يقف بعيدًا وأمامه صفوف من الأجساد البيضاء الناصعة والتي لا شكل لها سوى أنها تصدر أصواتًا جميلة تجعله.. يطرب بها.

هذه هي البداية فقط، لأن الجسد الأبيض الجميل الذي يقف أمام الأجساد الأخرى تظهر له ملامح لرجل ضخم ذي جلباب أبيض ووجه أبيض وبشرة تشع نورًا، يرفع يده قليلًا أمامه وكأنه يدعو الله وينادي بصوت جميل رقراق خافض (الله) فينخلع للكلمة قلب (علي) ويبتسم.. يبتسم لأنه يعرف أنها بداية الليلة عندما يقول الرجل تلك الكلمة، يسمع الصوت الجميل من الأجساد الأخرى تقول (الله).. أصواتهم ترعش جسده وتذيب إدراكه..

تمر الدقائق والرجل يقول (الله) بصوته الخافت والجمع يرد بصـ[illegible]
ارق (الله)، يجلس بعدها (علي) على الأرض وهو يرى الأجـ
تمايل يمينًا ويسارًا مع كل كلمة تمايل أوراق الشجر مع النسمات، وفجأة تظهر الأجساد لرجال يرتدون ملابس بيضاء لفت على أجسادهم وهم يندمجون في الكلمة..

حتى يسمع الرجل الذي يقف أمامهم يتكلم بصوته الجميل ويهز رأسه رافعًا صوته قائلًا (يا حي يا قيوم)، فيرد الجمع (الله) وتتمايل الأجساد، ويشعر (علي) باهتزاز جسده مع الكلمات، والرجل يغير نداءه إلى الله والرجال يردون عليه.

(علي) يفتح فمه بدون إرادته وكأنه يرتشف رشفات من الكلمات التي يقولها الجمع، يرتوي من أصواتهم، يرتعش من رعشاتهم، يذوب في تلك الكلمة العجيبة (الله)..

بعد ساعة يجد (علي) لسانه يتحرك داخل شفتيه ليردد مع الجمع كلمة (الله).. لسانه يتحرك بلا صوت، ولكنه يهتز وهو جالس على الرمال وأغصان الشجر الجافة، يهتز وكأن قلبه يرقص ونبضاته ترتفع مع الكلمة، ويهيم في نشوة لا يعرف مصدرها ولا يشعر إلا ودموع ساخنة تبلل خديه تغسل وجهه وتلمس شفتيه، فلا يجدها كالدموع المالحة التي يذرفها عندما يبكي وحيدًا.

كان يقول في نفسه إن هؤلاء القوم هم سره الوحيد ومتعته الدائمة وملاذه الأخير، ظل الذكر طوال الليل وقد جلس الرجل وجلست الأجساد الأخرى حوله وترقرق صوتهم وعذب أكثر وهم يذكرون الله، حتى حدث ما أفزعه.

هبط صوقم أكثر وأكثر، وهذا لم يحدث منذ سمعهم أول مرة؟ هبط الصوت حتى سكت الجميع، ثم نظر له الرجل الذي يقف أمامهم وسار حتى اقترب منه.. تراجع (علي) للوراء بحركة عفوية، ولكن الرجل ذا الوجه الجميل واللحية البيضاء ابتسم له وقال بصوت رقيق خفيض هز قلبه:

- "اذكر الله"..

ظل (علي) ينظر إليه برعب فقال الرجل:

- "اذكر الله"..

هنا حرّك (علي) شفتيه وأخرج صوتًا من حلقه دلالة على عدم تمكنه من الكلام..

- "اذكر الله"..

تعالى الصوت الخارج من حنجرة (علي)، والذي يدل على عدم استخدامه لملكة الكلام؛ فقال الرجل المبتسم:

- "مرحبًا بك يا بني بين أقرانك"...

فجأة بدأ الرجل يبتعد بظهره، وجسده يعود للضوء الأبيض مرة أخرى، وباقي الأجساد تعود لتغلف باللون الأبيض، قال (علي) في داخله: "لماذا أوقفوا الكلمات؟ ولماذا لم يكملوا حتى الفجر ويصطفون بطريقتهم الجميلة، ويقف الرجل يمارس شيئًا روحانيًا لطالما أراد أن يمارسه؟" لم يكن (علي) يعلم أنها صلاة الفجر..

تلاشت الأجساد وتلاشى الضوء الأبيض وحل الظلام والوحشة محل النور والأنس، نظر (علي) حوله يبحث عنهم، ثم أخذ يبكي بحرقة كأنه طفل صغير.

الفصل العاشر

خرج (حاتم) من المستشفى بعد أيام، وعاد مرة أخرى لجامعته ولكن تغيرت نظرة أقرانه له.

كل من كان ينبهر بشخصية (حاتم) المهذب المتدين الوسيم المتفوق، أصبح الآن يتحاشى أن يلقي عليه السلام، الجميع سمع عن تلك الليلة التي أصابته التشنجات ونقل بعدها إلى المستشفى، يمكنك أن تتخيل العديد من السيناريوهات التي ألفها الطلبة، فمنهم من قال إنه مصاب بمرض معد، ومنهم من قال إنه مصاب بالإيدز، والمصيبة أن الكثير يصدقونه لضعف معلوماتهم عن الأمراض، البعض قال إنه مصاب بالصرع، مما جعل البعض يتخيل أنه يرتكب جرائم عنيفة أثناء نوبات الصرع.

حتى إن البعض قال إنه مصاب بمس من الجان، وهذا الاحتمال الأخير هو ما انتشر بين الطلاب أكثر من أي احتمال آخر، والسبب بسيط..

هناك اثنان من الطلبة كانوا ضمن من دخل غرفته عندما اجتاحته النوبة يقسمان أنهم شاهدا الكتب تتحرك من حولهم حركة بسيطة وكأنّ أحدهم يزحزحها من موضعها، وهناك كوب شاي كان موضوع على منضدة يتحرك من تلقاء نفسه حتى وقع وتهشم!!

تنتشر تلك الحكاية في الجامعة، ثم تظهر حكاية ثانية وثالثة ورابعة، وتسمع من يقول أن فتاة تحكي عن (حاتم) بأنها شاهدته عندما كانا

بالفرقة الأولى (السنة الأولى) بالكلية أثناء إحدى المحاضرات، ينهض من المدرجات ويزل إلى الدكتور الذي يشرح المحاضرة، ثم يأخذ القلم الموضوع أمامه على المنضدة، ويعود لمكانه مرة أخرى ليكتب بالقلم بضعة أشياء، ثم يعيد القلم أمام منضدة الدكتور بدون أن يعترض الدكتور أو يتكلم أو ينظر له أحد الطلاب، هي الوحيدة التي رآته، بالتأكيد الجان هم الذين يمكنهم فعل هذا.

وظهرت حكاية عن شاب كان يريد أن يضربه وذهب إليه في إحدى المقاهي، ولكن الشاب يقسم أنه فجأة لم يتذكر أي شيء عن نيته في ضرب (حاتم)، وكل ما شعر به أنه يحبه وأنه يجب أن يعتذر له.

الآن وبعد كل تلك الأشياء التي قيلت عن (حاتم) أصبح هذا الأخير حديث الطلاب، حيث يذكرونه دائمًا بالحسرة على أساس أنه فقد عقله مثلًا، أو ضاع مستقبله، أو سار في طريق لا عودة منه.

أما (حاتم) نفسه فقد انعكست معاملة أصدقائه له على حياته، استطاع أن يحافظ على تفوقه كما هو، ولكن انطفى ذلك البريق من عينيه، بريق الأمل والطموح.. أصبح يسير منكس الرأس بين زملائه وكأنه يخفي عارًا ملتصقًا به.

كما أن زملاءه تجنبوه هو أيضًا تجنبهم وأصبح يسير وحيدًا دائمًا ويجلس وحيدًا دائمًا، اللهم إلا من صديقه الحميم (علاء) رفيقه الدائم الذي كان يحاول دائمًا جره لحياته القديمة، وإعادة المياه إلى مجاريها مع الأصدقاء والزملاء، ولكن كان (حاتم) دائمًا ما يرفض تلك المحاولات؛ لأنه يعتبرها نوع من الشفقة..

المحاولة الوحيدة التي لم يعتبرها نوع من الشفقة هي محاولات حبيبته (داليا) عندما كانت تلقي عليه النكات لتخرجه من حزنه، لقد علم أنها تحاول في كل لحظة تسري عنه الهم، وهي تبذل في ذلك الكثير بالرغم من النكات القديمة، إلا أنه كان يضحك من قلبه عندها لا من النكتة، ولكن يضحك من محاولتها الطفولية لإضحاكه، وهي كانت تضحك هي الأخرى لذلك.

والغريب أنه برغم تلك العزلة التي أثرت على نفسية (حاتم) إلا أنه استمتع بها في نفس الوقت وارتاح لها..

لقد وفرت له العزلة كل الوقت المراد لقراءة كل تلك الكتب التي كان يشتريها بانتظام، أو يستعيرها من أصدقائه في كلية الآداب قسم الدراسات الفلسفية، كتب تدور عن الموت والحياة..

لاحظت (داليا) في تلك الفترة كثرة انشغاله بشيئين الكتابة والقراءة، ولكن الكتابة انحصرت في روايته الغريبة (نصف ميت) التي رفض أن يطلعها عليها نهائيًا، وصمم على أن تطلع عليها مرة واحدة بعد الانتهاء منها.

مرت الشهور حتى طلب منها اللقاء على عجل داخل المقهى القديم الذي يتقابلا فيه دائمًا.

دخلت المقهى في تمام الخامسة لتجده يجلس على منضدته المفضلة ويبتسم لها، اندهشت من هذا الوضع الذي لم تره فيه منذ شهور، وخاصة أنها تعودت عليه وهو يقرأ أو يكتب أو يشرد، لكن أن ينتظرها ويبتسم بذلك الشكل!!

جلست أمامه فطلب من النادل اثنين من المياه الغازية كما تعودا دائمًا ونظر لها وقال:

- "أنا قاعد مستني حاجة من ربع ساعة من مكتب الكومبيوتر اللي جنب الكافيه".

أشارت له بعدم الفهم فقال:

- "أصلي امبارح بالليل روحت للواد (زياد) الساعة ٥، وخلّيته يقعد من ساعتها لغاية النهاردة الساعة ٢ الظهر يكتب لي حاجة على الكومبيوتر".

أخذت (داليا) تعد على أصابعها حتى قالت بدهشة:

- "٢١ ساعة بيكتب؟!! ليه هو بيكتب إيه؟!"

- "ماتعرفي دلوقت، هو بعد ما خلص كتابة راح بالحاجة على مكتب الكومبيوتر اللي جنبنا ده علشان يقعد على إيديهم يمسكوا اللي كتبه، ويطبعوا منه نسختين".

قالت (داليا) ضاحكة:

- "إيه يا بني الافترا ده؟ وهو إيه اللي مخليه يستحمل البهدلة والمرمطة دي؟"

ضحك هو الآخر وقال:

- "ما هو أنا واعده بأكلة كباب وفراخ كبيرة تكفيه ٣ أيام لو عمل لي اللي أنا طلبته منه في ميعاده".

فجأة رفع هو عينيه ناحية الباب يراقب (زياد) وهو يدخل المقهى وهو يسير ببطء ويفتح عينيه بطريقة مضحكة.. يبحث عن (حاتم)،

ناداه كي يأتي إليه فقال (زياد) بعد أن وصل إليه بصوت مرتعش به نبرة تشبه الضحك:

- "هاهاها.. أنا جبت ليك.. هاهاها.. الحاجة أهو.. هاها.. وقولت لبتاع مكتب الكومبيوتر إن الحساب عندك.. ياهاهاهاهاها"...

ابتسم له (حاتم) قائلاً:

- "طب فين الحاجة؟"

- "حاجة إيه؟"

- "الورق اللي طبعته وجلدته يا اخي".

- "هو أنا طبعت ورق؟!"

أشار (حاتم) بنفاد صبر ليد (زياد) التي تقبض على الأشياء، فنظر (زياد) ليده في بلاهة، فنهض (حاتم) وأخذ الأوراق وقال لزياد:

- "طب روح نام إنت ولما تصحى بكرة هاجيبلك الكباب والفراخ".

- "هاتجيبهم ليه؟"

- "علشان وعدتك بيهم؟"

- "طب أنا عايز جبنة رومي".

- "حاضر يا (زياد) هاجيبلك جبنة رومي.. يالّلا روح المدينة الجامعية بقى علشان تنام".

أدار (زياد) جسده وهو يكلم نفسه وخرج من المقهى، فأعطى (حاتم) لداليا مجموعة من الورق، فأمسكتها وهي تتأملها، رزمة ضخمة من الورق مغلفة بغلاف بلاستيكي ثقيل شفاف، ومن ورائه لوحة مرسومة بشكل مبدع وغريب.. اللوحة مقسومة نصفين، النصف الأيمن ألوانه زيتية واضحة وفاتحة، أما النصف الأيسر فألوانه هي نفس الألوان ولكن أغمق من الجانب الأيمن.

وفي منتصف اللوحة يقف شاب طويل نحيل نصفه الأيمن طبيعي، ونصفه الأيسر مغطى بالدماء والتشوهات تملأه، النصف الأيسر للشاب يحتوي على عينه الفاقئة وفمه المحطم وحروق بجلده.

تأملت هي الغلاف قليلًا منبهرة بدقة تفاصيله ومظهره المقبض، وخاصة أنه في أعلى اللوحة لطخ الرسام دماء كثيرة وكتب بخط أبيض (نصف ميت)

وأسفل اللوحة كتب اسم (حاتم الجمّال) بنفس الطريقة التي كتبت بها (نصف ميت) في الأعلى، ولكن مع اختلاف أن اسم (حاتم) كتب بخط أصغر من اسم الرواية.

نظرت (داليا) له وابتسمت قائلة:

- "طبعًا تصميم الغلاف ده اللي عملهولك (عبد الرحمن فتحي) اللي معانا في الكلية صح؟"

- "صح.. طلبت منه ينفذه من أسبوعين وسلمه لي من كام يوم، وخليت (زياد) يقول لمكتب الكومبيوتر يطبع التصميم بالألوان ويحطه في النسختين".

قلبت (داليا) الصفحات فوجدت أنها تصل لـ ٥٢٠ صفحة. إذن هذه هي (نصف ميت).. يا لضخامتها، لقد طبعت على ورق كبير، أي بحجم الكتب الضخمة التي يطبعها أساتذة كلياتهم، كتبت على الحاسب الآلي وتم تنسيقها بطريقة تريح النظر..

- "أنا يا حبيبتي عملتلك النسخة دي من (نصف ميت) علشان تقريها وتقوليلي إيه رأيك زي زمان".

- "طب والنسخة اللي معاك؟"

- "لا النسخة دي هاعمل منها نسخ تانية علشان أعرضها على دور النشر، إحنا دلوقت في شهر مايو وبا دوبك أدّيها لكام دار نشر وانتبه للامتحانات، وبعد ما أخلص امتحان أكمل رحلة للدور زي المجنون".

- "يعني هاتعمل زي كل مرة!؟ تلف على الدور ويقولوا ليك إنهم ما بيقعش بينشروا لبتك حاجة، ليه يا حبيبي تتعب نفسك؟"

- "أنا قبلت التحدي اللي اتفقنا عليه زمان".

تغيرت ملامح (داليا) وقالت بنوع من الود:

- "أنا آسفة يا (حاتم).. أنا ماقصدتش تفكر بالطريقة دي، سيبك من ده يا بابا و...."

- "لا"...

قالها بحزم وهو يقاطعها ويكمل قائلًا:

- "أنا راهنت على الرواية دي خلاص بكل اللي اقدر عليه، يا إما انجح المرة دي يا إما أبطل محاولات".

حاولت أن تتكلم ولكن نظرة الاصرار في عينيه أخرستها ونظرت للرواية تتأملها)).

انتهت (داليا) من الكلام فقالت (دعاء):

– "وإيه اللي حصل بعد كده؟"

كانت ملامح (داليا) تحمل مزيجًا غريبًا من القلق والتوتر والخوف، وقد ردت على شقيقتها قائلة:

– "بعديها أنا قريت الرواية وما صدقتش نفسي.."

– "ما صدقتيش نفسك؟!"

أكملت (داليا) غير عابئة بسؤال شقيقتها:

– "وبعد الامتحانات رجعت هنا على إسكندرية وفضلت أنا و(حاتم) على اتصال الأيام اللي فاتت، وهو بيقولي إنه بيدوّر على دار نشر تقبله بعد ما دور نشر كتير رفضت قصته علشان جنوبًا".

– "رفضت القصة علشان جنوبًا؟"

نهضت (داليا) من على الفراش وجلست على ركبتيها وهي تخرج الصندوق الذي تحتفظ به من تحت الفراش وتخرج الأوراق والكشاكيل والكتب القديمة، حتى وصلت لكيس بلاستيكي أسود اللون أخرجته وأبعدت الأتربة عنه.. ثم أخرجت منه رواية (لعنة ميت).

– "إيه ده!! هي الرواية دي عندك؟"

قالتها (دعاء) بشغف فأعطتها (داليا) الأوراق وقالت:

– "فيه سر في الرواية دي يا (دعاء).. عايزاكي تقريها لو سمحتي".

– "سر إيه؟"

– "اقريها.. وأنا مش هاكلمك إلا لما تقريها".

قالتها (داليا) وهي تغادر الغرفة وتترك (دعاء) بها وحيدة.. نظرت (دعاء) على الباب الذي أغلقته (داليا) وراءها ثم نظرت للرواية، وفتحت أولى صفحاتها لترى كلمة (إهداء) وتحتها عبارة تقول:

((لطالما انتظر اللحظة التي ستقبض فيها روحي، لذلك أهدي تلك الرواية إلى الموكل بقبض روحي .. إلى ملك الموت))...

اقشعرت (دعاء) من الإهداء، وقلبت الورقة وبدأت في قراءة الفصل الأول.

***

(طاهر) يخرج من غرفة (هادي) وقد ارتدى بزته وهو يربط رباط العنق وقد وضع النظارة الطبية على عينيه..

جرى (هادي) ناحيته وهو يقف له مبتسمًا ويقول:

– "نوّرتنا يا باشا".

ابتسم (طاهر) له ابتسامة منهكة وقال:

– "جدع يا (هادي)، إنت عارف لو وقعت في إيدك حاجة زي الأمورة اللي جوة دي تقولي عليها.. إلا هي كان اسمها إيه؟"

– "(سها) يا باشا".

ضحك (طاهر) ضحكة صغيرة وقال وهو ينظر باتجاه باب الغرفة:

- "اسمها حلو.. وتستاهله بصحيح".

ثم نظر إلى (هادي) وقال:

- "الرجالة هايساعدوك علشان ترجّع الجثة تاني".

وأشار لرجاله ولكن (هادي) قال بنفس الابتسامة:

- "لا يا باشا خليهم ما يتعبوش نفسهم المرة دي.. أنا هارجعها بنفسي".

فجأة تعالى صوت أذان الفجر من منبر أحد المساجد البعيدة، فسكت الجميع لوهلة، ثم تحرك (طاهر) وخلفه رجاله وهم يغادرون المكان بسرعة بدون أن يلقوا حتى السلام على (هادي) الذي قال وهم يبتعدون:

- "نوّرت يا باشا".

ثم نظر للغرفة ذات الباب المفتوح ومد يده لجيبه وهو يخرج العلبة الحمراء الصغيرة ويفتحها متأملًا الخاتمان وآذان المسجد يعلو أكثر.. هناك بين المقابر وبالتحديد في المقبرة التي دفنت فيها الجثث منذ ساعات، وفي داخل المقبرة والجثث المتراصة داخلها الملفوفة بالكفن الأبيض والعظام المتناثرة.. وسط هذا.. ومن داخل أحد الأكفان البيضاء.. تحركت يد إحدى الجثث المدفونة داخل (اللحد) والأحجار تحيط بها.. خرجت اليد خارج الكفن لتقبض على أقرب حجر لها.. وخرج صوت متقطع من الجثة.

***

الفصل الحادي عشر

٧ أغسطس ٢٠٠٦ الساعة الحادية عشر صباحًا

- "وبالتالي.. فالاكتئاب تمكن يعمل زي ما بتقول كده؟"

بالفعل شيء محيرًا! رددت على د. ياسر قائلًا:

- "يعني (سعيد) حتى بعد ما اتعالج وتصرف طبيعي لمدة شهر ينتحر أول ما الفرصة تكون قدامه؟! ده كل التقارير اللي قريتها وكل كلام أهله بيقولوا إنه بدأ يخرج من الاكتئاب وياكل معاهم ويضحك ويقول نكت".

- "أيوه.. بس ما تنساش إنه كان بيسمع أصوات بتقوله ينتحر.. وبتقول له كده في الدقيقة ٦٠ مرة وفي الساعة ٣٦٠٠ مرة.. وشوف انت بقى في الـ ٢٤ ساعة كان بيسمع أمر الانتحار ده كام مرة.. الدكتور اللي كان متابعه عالجه من الاكتئاب من خلال الأدوية.. لكن لسه موضوع الأصوات مكنش اتعالج منه، ده غير إن الدكتور طلب من أهله كتير إنه يكون في المستشفى علشان يبقى تحت نظرهم، لكنهم أصروا على إنه يفضل معاهم، وبالتالي مع أول لحظة غفلوا عنه لقوه قاطع شراينه بسكينة المطبخ".

- "وطبعًا هو عمل كده علشان يرتاح من الأصوات".

- "الله يرحمه ويحسن إليه".

نحن الآن داخل مكتب من مكاتب قسم علم النفس بكلية الآداب، وهذا هو أستاذي الدكتور مصطفى زيادة أستاذ دكتور علم النفس بجامعة (عين شمس)، ولي به صلة قديمة منذ أيام أن كنت طالبًا تحت يده في سنوات الجامعة الأولى.

وكثيرًا ما ساعدني عندما وجد مني عشقًا لعلم النفس، وقد زادت مساعداته لي خاصة بعد تخرجي من كلية الآداب قسم علم النفس، ورفضي لأن أكون معينًا بالقسم رغم تفوقي فيه..

ثم تحضيري للماجستير، والذي كان في علم النفس الجنائي، ومساعدة دكتور مصطفى منذ ذلك الحين لي، حيث أنه كان دائمًا ما يقول إنه يرى في عقلي أفكارًا ستغير مسار الطب النفسي في مصر.

كنت أعتبرها مجاملة لي، ولكن دكتور مصطفى لم يكف عن الاهتمام بي يومًا واحدًا، حتى أن كثيرًا من الكتب والمراجع التي أستعين بها لإتمام رسالتي للدكتوراه تكون من مكتبته الخاصة المليئة بالكتب الثرية والنادرة والأبحاث الميدانية في مجال علم النفس التجريبي، والذي كنت أعشقه وأعشق معه جو المختبرات النفسية ومعامل التجريب التي تخرج قوانين تتعلق بالعقل البشري، ومن ثم مع الوقت تغير تلك القوانين..

يا لها من متعة أن تبحث في ذلك العقل وتتأمل في صنع الله، وتندهش من تلك الدقة وتلك المعجزة التي تتعلق بالمخ البشري.

قال دكتور مصطفى ضاحكًا:

- "إيه أخبار دكتورة جيهان علم الدين؟"

كانت دكتور جيهان هي المشرفة على رسالة الدكتوراه، فرددت قائلًا:

- "الحمد لله".

فابتسم لي وقال:

- "بص يا (خالد).. إنت زي ابني (محمد) تمام، وإنت عارف إني ما رضيتش أفتح معاك الموضوع ده قبل كده".

كنت أعرف عن ماذا يتكلم، يتكلم عن سر حزني وحديثي الذي أصبح يقتصر على رسالة الدكتوراه فقط، وشرودي الدائم.

- "يا (خالد) انت لسه سنك صغير أوي، ودي سنة الحياة إن يكون فيه موت، وفي يوم من الأيام هاتموت إنت كمان وهاتسيب وراك ناس يحزنوا عليك ويفتكروك، وخصوصًا لو كانوا بيحبوك وفاكرين الحاجات الكويسة اللي إنت عملتها ليهم، والله العظيم أنا عارف إنت كنت بتحبه قد إيه، الله يرحمه كان طيب وفضل معاك لغاية النهاية، لكن إنت حالتك اتغيرت خالص، من ساعة الوفاة من شهر ٥ اللي فات وإنت بالشكل ده، جسمك بيقل وبتضعف وعنيك حزينة ودايمًا ماشي باصص في الأرض وساكت، لا عمرك تتكلم أو تهزر زي زمان ولا أصحابك عارفين يندمجوا معاك زي زمان"

كان دكتور مصطفى يعرف اثنين من أصدقائي القدامى بحكم أن أحدهم عُيّن معيدًا في الجامعة، والثاني يقوم الآن بتحضير رسالة الماجستير.

قلت له وأنا أحاول الابتسام:

- "ما تخافش يا دكتور، يومين وهايعدوا".

- "فاكرني هاصدق كلامك ده؟ يا ابني أنا حاسس بالحزن اللي في قلبك، ومش عارف أعمل معاك إيه، بس في النهاية مش هاقولك أكتر من خلّي بالك على نفسك".

- "من إيه يا دكتور؟"

- "من نفسك"

تنحنح الدكتور وقال ووجهه يأخذ طابع الجدية:

- "دلوقت الحالات اللي معاك في الملف ده فيه حاجة فيهم عايز تناقشها؟"

- "والله الحالات اللي حضرتك ادتهالي دي هاتريحني أوي في رسالة الدكتوراه، لكن كان فيه حالة استغربت منها أوي".

- "أنهي؟"

تناولت حقيبتي الجلدية من جانبي وأخرجت منها الملف الضخم وأخذت أقلب الأوراق حتى عثرت على ما أبحث عنه:

- "هي مريضة من المنيا وكانت بتقول كلام لأهلها عن إنها بتموت وروحها بتطلع منها بس مش عايزة تطلع".

توقف دكتور مصطفى لحظة وقال وهو يعدل وضع منظاره الطبي:

- "افتكرتها.. دي كانت مريضة بالفصام، وكانت فيه أصوات بتكلمها، ومنهم صوت قوي زي ما كانت بتقول كان بيقولها إنه ملاك الموت وإنه جاي يقبض روحها".

- "أنا عارف الموضوع ده.. بس ما قدرتش أعرف هل هي مريضة بالفصام فبالتالي نتيجة للمرض بالفصام ولاعتقادها إنها بتموت جالها اكتئاب؟ ولّا هي مريضة بفوبيا (خوف) من الموت ونتيجة للخوف ده جالها الفصام وترتب عليه الاكتئاب؟"

- "تشخيص الدكتور اللي بيتابعها عندك بيقول إنها مريضة بالفصام من الأول مجابش سيرة فوبيا الموت، بس إنت ممكن يكون عندك حق، لو المريض استمر خوفه من الموت وخصوصًا في المرضى دول ممكن أوي تصاب بهلاوس معينة من الفصام بدورها حد الموت".

- "أنا شكيت إنها حاولت تنتحر أكتر من مرة علشان تسهل على نفسها خروج الروح زي ما كانت بتسمع الأصوات".

- "ملاحظ إنك شاغل عقلك أوي بالموضوع ده، أنا عارف إنك عارف كتير عن فوبيا الموت".

- "لا أنا مش شاغل دماغي بفوبيا الموت، لأنها موجودة زي ما حضرتك عارف بدرجات متفاوتة في شريحة كبيرة بين المصريين، أنا بادوّر على مرض تاني ليه علاقة بالموت".

اعتدل دكتور مصطفى أكتر على مقعده متسائلًا:

- "وضح أكتر؟"

- "لما قريت الكتاب بتاع دكتور (Jacob Edward)، لقيت كلام عن حالات في القرن السابع عشر أصيبت باختلال نفسي معتقدين معاه إنهم أموات أو جثث".

ابتسم الدكتور مصطفى وهو يقول:

- "مرض نادر جدًا جدًا يا (خالد)، المريض بيكون متأكد إنه عبارة عن جثة، وأعراضه فيها تضارب لأن فيه مريض بيفتكر نفسه إنه جثة لكنه بيتحرك وبيتكلم وياكل ويروح الشغل وينام، ومريض لما يصاب بيه يفتكر إنه مات فعلًا وجوة القبر وطبعًا ما بياكلش ولا بشرب ويفضل ساكت، حتى لو حس بالجوع أو العطش بيقول جواه إنه جثة ومش هاينفع يتحرك من مكانه، والأعراض دي فيها شبه من الاكتئاب لكن مش هو الاكتئاب".

- "يعني أعراضه صعب اكتشافها؟"

- " لا ما اقصدش كده، أنا اقصد إنها شبه أعراض تانية كتير".

- "وإيه أسباب المرض ده؟"

- "الأسباب الحقيقية محدش يقدر يعرفها؛ لأن المرض مش منتشر، وبالتالي الأبحاث اللي اتعملت عليه قليلة جدًا، لكن في حالات من اللي أصيبوا بالمرض ده كانوا اتعرضوا لحادثة عنيفة خلتهم يعتقدوا إنهم ماتوا بعد الحادثة دي، كأنك مثلًا تتعرض للصعق بالكهرباء، وبعد ما تمر التجربة دي تفتكر إنك مت نتيجة الصعق ده وإنك دلوقت جثة".

- "ولو عايز أعرف أكتر عن المرض ده؟"

- "إيه يا (خالد)!! عايز تعمل تجارب على المرض ده؟!"

ابتسمت بحق هذه المرة وقلت بعد قليل:

- "مفيش دوريات بتتطرق للحالات دي، ده غير بصراحة إني قريت في كتاب إن الحالات دي بتصنف تحت حالة الاكتئاب الحاد، لكن أنا حسيت إن ده تصنيف بسبب قصور البحث العلمي في الموضوع ده".

- "أنا برضه زمان سمعت بعض التعليقات عن إن المرض ده بيتصنف تحت حالة الاكتئاب، لكن علاجه بأدوية الاكتئاب عمل حاجة غريبة، حالتين اتعالجوا من وسط ٨ حالات، وده في رأيي فشل لفكرة الاكتئاب".

- "أنا عايز أعمل التجارب، لكن مفيش عندي الحالات اللي أعمل عليها".

نظر دكتور مصطفى في عيني وقال بخبث:

- "التجارب بتبقى بتصاريح يا (خالد)، وإنت استحالة حد يترجلك تصريح؛ لأنك مش طبيب أمراض نفسية وعصبية، وفي نفس الوقت إنت حتى ما أخدتش الدكتوراه في علم النفس من الكلية".

فهمت لما يلمح الدكتور مصطفى، فقلت أنا بصدق:

- "يا دكتور إنت عارف إن فيه روتين كتير في مصر، وبسببه علم النفس بقى في الحضيض، والأبحاث اللي بتتقدم كلها متكررة وقديمة وغلطية، والتجارب في المعامل النفسية بقت عبارة عن حبر على ورق،

إنت عارف إني عملت تجربة على عينة من البلطجية في ٣ أماكن مختلفة من القاهرة لمدة سنة، وقدمت مع الماجيستير نتيجة التجربة دي اللي تابعتها في الواقع من غير حتى ما أعمل أي حاجة تفصل البلطجية دول عن حياتهم الشخصية.. وزي ما حضرتك فاكر يا دكتور، لما محدش انتبه للتجربة، ومحدش علق عليها أصلًا و...

قاطعني الدكتور وهو يقول:

– "أنا عارف من غير ما تكمل حبك لعلم النفس، لكن التجارب لما بتكون على المرضى النفسيين بتختلف زي ما إنت عارف".

– "التجربة أخلاقية".

– "أيوه الكلام ده تقوله لمدير المستشفى".

– "هو إنت تعرف مستشفى فيها حالات زي دي؟"

سكت كأنه وقع في فخ ثم قال بتردد:

– "أيوه أعرف مصحة فيها حالات زي دي.. بس إنت برضه مش هاتعرف تعمل التجارب إلا بأمر من المدير".

– "أكيد أنا هاخد الطلب ده من المدير".

– "أنا أعرف المدير معرفة شخصية، وعارف إنه هايرفض الفكرة من أساسها؛ لأنه هايعتبرك بتتعامل مع المرضى كأنهم فئران تجارب".

– "وإنت شايف إني من النوع ده؟"

– "لا طبعًا.. بس برده يا (خالد)".

قاطعته أنا هذه المرة وقلت:

– "أنا هاخد موافقة مدير المستشفى".

سكت قليلًا وهو يفكر ثم قال لي بعض لحظات:

– "أنا هاقولك على عنوان المصحة النفسية دي.. بس بشرط".

– "إيه هو؟"

– "مدير المصحة.. عايزك ما تقولوش إني أنا اللي باعتك له".

– "حاضر"..

نظر د. مصطفى في ساعته ونهض بسرعة قائلًا:

– "نسيت إني عندي محاضرة لفرقة تانية دلوقت، أنا هاكتبلك العنوان على ورقة وأديهولك، وبكرة تبلغني عملت إيه".

بالفعل أخذ ورقة على عجل من على مكتبه وخط عليها العنوان ثم ودعني وهو يقول لي:

– "أنا عارف إن فكرة الموت دي بقت مأثرة عليك اليومين دول، بس برضه خلي بالك على نفسك".

خرج من الغرفة وتركني أنا أقف بها وألملم أوراقي وأرتبها في حقيبتي الجلدية، ثم أتأمل الورقة التي كتب عليها العنوان.. الورقة كتب عليها:

(مصحة الأمل.. فيصل.. ش حسن حماد.. متفرع من ش العشرين).

لقد نسي الدكتور أن يعطيني اسم مدير المصحة .. على كل حال لا يهم.. وضعت الورقة في جيبي وخرجت من الغرفة، وسرت في ذلك الممر حتى وصلت إلى باب المبنى، حيث أن قسم علم النفس في الدور الأرضي من المبنى، فتحت الباب ونزلت بضعة سلالم حتى

وجدت نفسي داخل الجامعة، فكرت.. هل أذهب للمكتبة لتكملة الكتاب الذي كنت أتصفحه أمس، ولكن تذكرت أنني تركت ورق التلخيص في المنزل، ففضلت الذهاب للمنزل الآن.

ذهبت إلى باب الجامعة وأنا أخرج منه محاولًا تجنب زحام الطلاب الذين يدخلون من نفس الباب حتى أصبحت خارج الجامعة، توجهت إلى المترو ودخلت المحطة، دخلت محطة قطار المترو وسط الجموع وأنا أنظر بعمق على اللافتة التي علقت على المحطة (الدقي)، قلت في نفسي إنني لن آخذ وقتًا طويلًا كي أصل محطتي!!

***

ما هذا الظلام؟ إنه ظلام القبر حيث ترقد الجثث.. بالرغم من أن الساعة الحادية عشر صباحًا إلا أن القبر لا يصل له أي ضوء تقريبًا..

العظام الملقاة.. والكفنان القريبان من بعضهما.. وذلك الكفن المفتوح والذي خرجت يد جثته منه وهي تقبض على حجر اللحد القريب منها.

صوت أنين يتصاعد من الجثة التي تقبض بيدها على الحجر.. يد الجثة تتحرك مرة ثانية حركة عشوائية، حيث يحركها صاحبها يمينًا ويسارًا وهو يصدر الأنين، يده الأخرى مقطوعة، ولكنه – على كل – لا يشعر بها، وبالتالي لا يملك القدرة على تحريكها.. اليد تتحرك محاولة الوصول لنهاية ما تستطيع الوصول إليه.

تقبض اليد على التراب بعنف للحظات ثم تتراخى مرة ثانية.

***

فتحت (داليا) عينيها وهي ما زلت نائمة في فراشها، وسألت نفسها.. هل ما تراه الآن هي (دعاء) تجلس على الفراش المقابل لها؟ أغلقت عينيها وفتحتها مرة أخرى لتتضح الصورة أكثر قليلًا، نعم هي تجلس على الفراش تمسك برواية (نصف ميت) تقرؤها بتركيز شديد..

– "إنتِ صحيتي إمتى يا (دعاء)؟"

قالتها (داليا) وتأثير النوم ما زال في صوتها فرفعت (دعاء) وجهها من على الورق لتنظر لشقيقتها، عينيها محمرتان وسواد تكون تحتهما!!

– "أنا ما نمتش.. بقرأ دلوقت في صفحة ١٨٨".

نهضت (داليا) واعتدلت على فراشها قليلًا وهي تقول:

– "يا بنتي أنا سايباكي بعد ما صلينا الفجر ونمت، وكنتي إنتي بتقولي إنك مش هاتبدأي فيها إلا بكرة، علشان تحققي من أول كام كلمة من الفصل الأول".

سكتت (دعاء) وكأنها تستوعب كلمات شقيقتها أولًا قبل أن تجيب:

– "بعد ما نمتي قلت أقرا فيها شوية.. القصة دي فيه كلمة عايز أوصفها بيها".

– "كلمة إيه؟"

– "جنون"..

ابتسمت (داليا) وهي تفرك في عينيها وقالت:

- "إيه رأيك في أحداثها؟"

- "(دينا) و(حازم) بيحبوا بعض ويتجوزوا بعد مشاكل، (حازم) بيألف قصص لكن دور النشر بيرفضوه، لغاية ما يبدأ يألف رواية طويلة اسمها (نصف ميت)، وما يخليش مراته تقرأ القصة إلا بعد ما تتنشر، (حازم) عنده مرض الصرع، وبتجيله نوبات صرع كتير في الفترة اللي بيألف فيها القصة، الولد بيقدر يحرك الحاجات عن بعد وهو في نوبات الصرع، ويقدر يكسر أي حاجة.. دماغه فيها نشاط كهربي زيادة ملوش تفسير، ومحدش يعرف بالموضوع ده إلا مراته، لغاية ما يقعد مع مراته في يوم ويقولها لو مات تقرأ رواية (نصف ميت) كويس، وتحاسب من كل حاجة فيها، وتركز في كل حاجة بتحصل حواليها، دار من دور النشر توافق على نشر القصة، وفي يوم الصبح (دينا) تلاقيه ميت، بيندفن بسرعة من أهله بعديها تكتشف إنه قبل موته ورث مليون و ٧٠٠ ألف جنيه من خاله اللي كان عايش في الكويت قبل ما يموت بيومين بس".

كانت (دعاء) تقول الكلمات السابقة بانبهار، فقالت (داليا):

- "ما قلتيش رأيك إيه في أحداثها؟"

- "(حازم) ده طلع مصيبة، بس ليه هو مهتم بالتفاصيل كده جوا القصة؟"

وقفت (داليا) على قدميها بعد مغادرتها الفراش وقالت وهي تنفض شعرها:

- "أنا عايزكي تقري الرواية دي علشان تفهّميني اللي بيحصل".

لم تفهم (دعاء) ما المقصود من العبارة التي قالتها شقيقتها، ولكنها راقبتها وهي تتجه إلى باب الغرفة لتفتحه بهدوء..

توقفت فجأة وهي تمسك مقبض الباب!! فجأة سمعت (دعاء) صوت بكاء شديد يخرج من شقيقتها، قفزت من على الفراش وهي تضمها لصدرها، و(داليا) تبكي بحرقة وكأنها انهارت فجأة ولم تحتمل التظاهر بالقوة بعد الآن..

من وسط دموعها وصوتها المليء بالشهقات سمعتها تقول:

- "(حاتم) كان عنده صرع، وكان عنده كهربا زيادة في المخ أزيد من الحد الطبيعي للي عندهم الصرع، الحاجات حواليه كانت بتتحرك وهو في نوبة الصرع.. (حاتم) دور النشر كانت بترفضه الأول يا (دعاء).. (حاتم) كاتب تفاصيل من حياته الحقيقية"...

اتسعت عين (دعاء) وهي تراجع تفاصيل الرواية في عقلها برعب.

الفصل الثاني عشر

قبل أن أعود لمنزلي كان يجب علي أن أذهب للسوبر ماركت القريب من المنزل كي أبتاع بعض الطعام لي، ولأنني لم أذق شيئًا منذ وجبة غدائي أمس.

مع كل هذا الحر في أغسطس أضطر لتناول الكثير من العصائر والمشروبات الغازية باستمرار، لذلك اشتريت بعض علب العصير وزجاجة مياه غازية ولانشون وجبن رومي وزيتون للإفطار، ودجاجة مجمدة للغداء، فأنا أعشق الدجاج جدًا.

أخذت كل هذا واتجهت لعمارتنا، ودخلت المصعد وأنا أضغط على زر الطابق الخامس.

دخلت الشقة ووضعت الأشياء التي أحملها على أقرب مقعد لي، ثم جلست على المقعد المفضل لي في الصالة.

أنا (خالد رضا)، أحلم بأن أغير مستقبل علم النفس، حلم يبدو أنه طفولي ولكنه كان حلمي الوحيد منذ الطفولة، ومنذ أن كنت أقرأ أي كتاب عن علم النفس تقع يدي عليه، اشتريت عشرات الكتب عن علم النفس من على الأرصفة، ولم أكن قد تعديت الثالثة عشر من عمري..

اشتركت بأكثر من مكتبة كي أقرأ ما يحلو لي ويتعلق بعلم النفس الجنائي والصناعي والتحليل النفسي وعلم النفس العسكري والبيولوجي وعلم النفس التطبيقي، وعشرات التخصصات وقعت

تحت يدي في سن صغير، حتى أنني أتذكر أنني وقعت على مجلد نادر داخل مكتبة أحد مراكز الشباب المتواضعة يتكلم عن تاريخ علم الفسيولوجي الفرنسي وتحليل دقيق لتطوره عبر التاريخ.

اجتزت المرحلة الثانوية، واتجهت إلى كلية الآداب لألتحق هناك بقسم علم النفس، وأعيش في جنة العلم التي حلمت بها، لا أعتقد أنني تركت كتابًا واحدًا في مكتبة جامعة عين شمس يتكلم من قريب أو بعيد عن علم النفس لم أطلع عليه وأقرأ داخله جيدًا.. طلبت من أساتذتي الاطلاع على الأبحاث القديمة لطلبة الماجستير ورسائل الدكتوراه، في البداية تجاهلني البعض وابتسم البعض لي مشجعًا، ولكنهم صعقوا عندما لاحظوا أنني في السنة الأولى قرأت كل كتب السنين القادمة في الكلية وأنني أناقشهم في بعض أفكارها، عندها سمح لي البعض بالاطلاع على تلك الأبحاث.. تشبعت بأفكار علم النفس، وشعرت بأنني كلما غصت أكثر داخله كلما شعرت أكثر بالسعادة..

لم يكن النجاح في كل عام صعبًا عليّ، وخاصة أنه من خلال طريقتي في الكتابة أصبح أساتذة القسم يعرفون ورقة إجابتي ويعلقون عليها بعد إعلان النتيجة..

عند السنة الثالثة اكتسبت حب واحترام الأساتذة وأحببتهم أنا أيضًا، وقد تنبأ الجميع بأنني سأعين معيدًا في القسم، ولكن بعد انتهاء الدراسة رفضت تقديم أوراقي، مما جعل الجميع يندهش من تركي لفرصة كبيرة كهذه، ولكني فكرت ألف مرة قبل الرفض، حيث أنني في كل الحالات سأقوم بتحضير الماجستير والدكتوراه..

ولكن الحقيقة تكمن في سعيي إلى حصولي على وقت كبير كي أتابع الماجستير والأبحاث الخاصة التي أقوم بعملها منفردًا، معتمدًا

على فكرة معامل التجارب النفسية التي أحاول تطويرها من خلال رصد الظواهر أثناء حدوثها وتشريحها وتحليلها، وليس أن آتي بمريض واعزله عن مجتمعه لأراقب تفاعلاته.. بل أراقب المريض بدون أن يدري، كي أخرج بكل النتائج التي أريدها ويمكنني الحكم بموضوعية على الحالات الفردية.

مجنون أليس كذلك؟ لقَّبني زملائي بالقسم بتلك الصفة بعد أن كانوا يعلمون كل مرة بعد انتهائي من إحدى تجاربي الغريبة التي أصبت أو تعرضت لمشكلة، جربت العيش مع البلطجية وفتوات الشوارع المصرية، وعاصرت مشاجراتهم العنيفة وتضررت بسببها.

وفي بحث آخر مارست الشعوذة لمدة أربعة أشهر بدون أن يعلم عني أحد، وادّعيت صلتي بالجان وأنني صاحب بركات، وبدأ الناس يتوافدون عليّ، وكنت أنا أصنف تلك الحالات التي تتوافد، لأعرف أن ٨٢% من تلك الحالات لم تكن مصابة إلا بأمراض نفسية أو أوهام أو هلاوس، أما النسبة الباقية فكانت بالفعل بعيدة عن المرض النفسي، وهذا ما جعلني أدرس تلك الحالات بدقة أكثر، لأؤمن في النهاية بوجود تلك الخوارق غير المفهومة وأكتفي بذلك في بحثي.. وربما لأن النتيجة التي خرجت بها في بحثي كانت تقوم على مبدأ أن هناك من ينخدعون بمبدأ الوهم بالفعل، ولكن هناك أيضًا من هم مصابون بأعراض غريبة تخرج عن علم النفس أو الطب البشري.

تلك النتيجة لن ترضي الجهات العلمية، لذا قررت الاحتفاظ بهذا البحث لنفسي وعدم إعلانه الآن.. جربت الكثير من الأبحاث على فئات كثيرة، حتى ألحقني زملائي بالجنون بعد أن اطلعوا على نتائج

الأبحاث، وعلى كلٍّ.. توقفت أبحاثي بعدما فقدت الإرادة على تكملتها بعد ما حدث...

هذا بالنسبة لما يتعلق بحياتي العملية والدراسية..

أما فيما يتعلق بحياتي الشخصية.. فقد توفي والدي قبل مولدي بثلاثة أشهر، وترك والدتي في كنف أهلها، أو بالتحديد كنف جدي العزيز.. تربيت في تلك الشقة منذ الطفولة، وكان أول من أخذ بيدي في صغري هو جدي، ولأن والدتي كانت تعمل في الشئون القانونية لشركة حكومية، فقد كانت تغيب صباحًا وتتركني مع جدي.

علاقة غريبة نشأت بيننا نحن الاثنين، كان قليل الكلام كثير الابتسام، وقد كنت دائمًا أغرقه بالأسئلة عن الحياة والكون وعن الأشياء التي أراها، يبتسم لي عندما يسمع سؤالي الغريب أو المحرج غالبًا، ثم يعتدل ويتكلم بنبرته الواثقة وصوته الهادئ القوي الذي يحمل لمحة من الخشونة المريحة للأذن.

يجيبني عن كل ما في رأسي بلا خجل، يشعرني بأنني في مثل عمره، فقد كان يقول لي أكثر من مرة ما رأيك في ذلك القرار أو تلك المشكلة، وكنت أنا أعتدل في مقعدي مقلدًا جلسته الواثقة وأتكلم بنبرتي الطفولية قائلًا رأيًا مضحكًا، فيهز رأسه بمعنى أنه فهم وجهة نظري، وهو يحاول أن يداري ابتسامته عني.

هذا جانب من شخصيته، أما الجانب الأغرب فهو أنه كان شديدًا وعنيفًا لدرجة لا توصف، أرهبه بشدة، وأشعر برعشة تجتاح أطرافي عندما أسمع صوته يناديني.. نعم ليس فيما قلت أي تناقض، لقد كنت

أخافه بشدة، وأفكر دائمًا بشكل العقاب الذي يمكن أن أتوقعه لو أخطأت.

لن أكون متحاملًا وأقول أنه كان يضربني دائمًا، أو أكون مجاملًا وأقول أنه كان يقبلني فرحًا عندما أخطئ، بل أقول أنه كان خليطًا من الحالتين بطريقة جعلتني أفكر سنوات وسنوات في حياته.

كيف أحبه بتلك الطريقة، وأخاف مجرد ذكر اسمه بذلك الشكل؟ أشعر بالأمان بوجوده، وأرتجف من الهلع عندما يجلس بجانبي.. يغلبني النوم على قدميه وهو يربت على رأسي، وأخاف لو لمسني كي لا تكون تلك ضربة من ضرباته.. أريد أن أكون منصفًا معه وأقول أنني رأيته يتعامل مع خالاتي وخالي الأكبر بشدة ممزوجة بالحب، ولكنه كان صارمًا أكثر معهم وأقل صرامة معي..

إذا وبخني أحد أفراد عائلتي في صغري أجري إليه وأحتمي به، وهو يلف يده القوية على خاصرتي؛ فأخرج ألا لساني لهم بكل سماجة وكأنني أتحداهم أن يقترب مني أحدهم أو يرفع صوته.

كنت نموذجًا عجيبًا لطفل تلقّى تدليلًا، ولم يتلقّ في نفس الوقت، لا أتذكر أنني تعاملت بنوع من الأنانية في صغري، ولكن ليس لأنني ولد مطيع، بل لخوفي من جدي إذا لم يعجبه تصرفي، وفي نفس الوقت لا أتذكر تقريبًا أنه رفض لي مطلبًا ولو كان تافهًا.

أحببت والدتي بالطبع، وربتني هي من الصغر، وكانت النبع الذي لا ينضب لحنان أغترف منه وقتما أريد، لدرجة أنني في صغري لم أشعر بغياب والدي إلا عندما سمعت كلمة (بابا) يرددها زملائي في المدرسة، وأيضًا لم أفهم ما أهميته طالما الجد موجود والأم موجودة!!

شيء آخر غريب.. فبرغم أنني كنت أقضي جل حياتي مع جدي، إلا أنني لم أعلم الكثير عن حياته السابقة، كان قليل التحدث كما قلت سابقًا وخاصة عن نفسه.. عرفت مرة أنه كان بطلًا في رفع الأثقال في شبابه، ومرة عرفت أنه اخترع شيئًا ما يتعلق بموتور البواخر، حيث أنه كان مهندسًا في شيء يتعلق بالنقل البحري.

عشت حياة لم يؤرقها إلا القليل من المشاكل على مرتب والدتي ومعاش والدي ومعاش جدي الذي كان يصر أن ينفقه على المنزل، وقد باعت والدتي شقتها بعد وفاة والدي ووضعت نقودها في البنك كي تساعدها الأرباح على تربيتي.

كبرت حتى وصلت لسن العاشرة، وقد فوجئنا بإصابة والدتي بمرض ما لن أذكر اسمه.. لكنه علمها كثيرًا قبل الموت.. لحظات أكره أن أتذكرها وأنا أجلس وحيدًا في الشقة أنتظر وصول جدي ليطمئني بعدما متعوني من زيارتها..

كان الموضوع يتعلق بعدوى ما وخطرًا على حياتي، ظل الحال هكذا لعام كامل، حتى جاء جدي للشقة في مرة ومعه رجال الأسرة ونساؤها.. النساء يحطن بي ودموع متجمدة في أعينهن تنتظر لحظة الانفجار، الرجال يتمالكون أنفسهم..

جدي يجلس أمامي وأرى يداه ترتعشان!! يا للهول!! منذ متى ويد جدي ترتعش؟! منذ متى وهو يلتقط أنفاسه بصوت عال ويبلع ريقه بتلك الطريقة؟! ابتسمت له.. فقال لي إن والدتي توفيت اليوم صباحًا، وإنهم استخرجوا تصريح الدفن ودفنوها.. ظلت ابتسامتي

مرسومة على وجهي وقلت ببساطة: "يعني مش هايبقى أشوفها دلوقت خلاص؟"

سمعت عندها نحيب نساء أسرتي ونشيجاتهم، والدموع بدأت في الظهور في أعين الرجال، كررت سؤالي فهز جدي رأسه نافيًا، فقلت: "يبقى هاشوفها بعد ما أموت إن شاء الله، وأكيد هي مرتاحة".

توقفت بعض النساء عن البكاء، ونظر كل واحد إلى رفيقه بدهشة مغلفة بالعطف، ولكن جدي ابتسم قليلًا وهو ينظر في عيني وأنا أنظر في عينيه.. نظراتي كانت تقول له اطمئن فأنا لن أبكي، ونظراته تقول لي إنه يعرف أنني أتمالك نفسي أمام عائلتي.. ثم انتظرني جدي لأبكي، ولكنه لم يشاهدني وأنا أبكي منذ تلك الواقعة، والحقيقة أنني حاولت البكاء.. نعم حاولت البكاء.. فلم أفلح، المشكلة أنني أحاول البكاء على أمي التي يصر عقلي على أنني لم أفقدها بعد.. آخر مرة رأيتها كانت ليلة أن جاء خالي من معمل التحاليل وأيقظها من النوم، حيث كانت تنام بجانبي، وسمعتها تتحدث هامسة معه كي لا توقظني...

قال لها إن العينة التي أخذوها منها موجبة، وإنها مصابة بهذا المرض فعلًا، فقالت له أن يخفض صوته قليلًا كي لا أستيقظ!! بالطبع كنت مستيقظًا أستمع لحديثهما، عندما قال خالي إنها يجب أن تحتجز في المستشفى من صباح الغد، ردت هي عليه بأن يجهز لها ملابس كافية ويتركها الآن كي لا أستيقظ من النوم.

خرج خالي من الغرفة وفتحت عيني لها، فسألتني عن سبب استيقاظي، وقد اندهشت عندما قلت لها أنني سمعت الحديث الذي دار.. ابتسمت وقالت: "تفتكر أنا خايفة من الموت؟"

فزعت عندما سمعت كلمة موت واتسعت عيني، فضمتني لصدرها وقالت لي: "اللي يزعل وهو رايح يقابل ربنا يا حبيبي ربنا يزعل من مقابلته هو كمان".

قلت أنا بصوت مكتوم: "وهو إنتي هاتموتي يا ماما؟"

– "لا يا حبيبي.. الموت دي كلمة وحشة، قول أني رايحة أقابل ربنا".

– "أمال هاتقعدي المستشفى ليه لو عارفة إنك هاتقابلي ربنا؟"

قلت العبارة الأخيرة ووالدتي تشعر بدموعي الساخنة تبلل ملابسها، فقالت لي بهدوء:

– "يمكن ربنا يخليني كويسة ويأجّل المقابلة شوية علشان أكمل تربيتك وأجوزك وأشيل عيالك يا (خالد)، ويمكن ربنا يحب يقابلني دلوقت زي ما أنا حابة أقابله".

– "وتسيبيني لوحدي يا ماما؟"

– "أسيبك لوحدك إزاي وأنا مطمّنة إن ربنا معاك يا حبيبي؟! مين عارف بكرة هاتكبر وتتجوز وتخلف عيال زي القرود، وتعلمهم إنهم ما يخافوش من مقابلة ربنا".

معادلة غريبة.. كان من المتوقع مني أن أبكي بحرقة وأتشنج وأصيح وأصرخ، لكني وجدت نفسي هادئًا بسبب هدوء والدتي.. وفعلًا شعرت بأن الموضوع ليس صعبًا لهذه الدرجة مع الابتسامة في

وجه والدتي، وصوتها الهادئ الحاني، ويدها التي تتحرك على شعري بحنان.

- "نام يا حبيبي دلوقت وما تخافش".

رفعت رأسي الصغير عن صدرها ونظرت لها بخوف، فقالت:

- "إنت مش بتصدّق كلامي؟"

- "آه".

- "يبقى صدّقني لما أقولك إني جنبك يا (خالد) في كل وقت ومش هاسيبك".

نمت على صدرها باطمئنان مرة ثانية، وبعد دقائق، وقبل أن أذهب في النوم.. سمعتها تهمس قائلة:

- "ما تخافش يا حبيبي.. لو مُت.. هاستناك عند ربنا عشان نبقى مع بعض".

وكانت هذه هي آخر محادثة دارت بيننا حتى هذه اللحظة، لأستيقظ فلا أجدها بجانبي، وأعرف أنها ذهبت للمستشفى.

هذا هو السر الذي جعلني لا أبكي ولا أفتقدها، لأنني أشعر بأنها سعيدة الآن، وبأنها معي في كل لحظة تنتظرني كي آتي لها.

ظل جدي ينفق عليّ من معاش والدتي ووالدي ومن معاشه، بجانب الأرباح البنكية التي تركتها والدتي، وانتقلت الوصاية إليه، خصوصًا أن والدي بلا أقارب تقريبًا، دخلت المرحلة الثانوية ثم الجامعة والتحقت بالجامعة..

مع الوقت كان يجب أعلم أن جدي ليس هو العملاق الذي لا يشيخ ولا يصاب بأمراض ولا يشعر بالألم، لقد كبر جدي حقًا، ولكن ابتسامته وقوة يده ونشاطه منعوني من تصديق ذلك.

كبر حقًا، ولكن عقله الراجح وجلسته معي كل يوم صباحًا بعد صلاة الفجر، والتي كان يصر أن يصليه حتى بعد أن وصل للثمانين في المسجد، وأن أرافقه أنا للمسجد، ثم ننتهي من الصلاة ونعود للمنزل، لنجلس في الشرفة ككل يوم منذ طفولتي يقول هو الأدعية ويستغفر الله على مسبحته الطويلة بصوت خفيض لا أتبين منه إلا همهمات ويحاول الشاي بلبن مشروبنا المفضل وأتناوله أنا معه وننتظر للشروق ونتكلم معًا عن الحياة والناس.

لم أشعر بسنه حتى توقفت تلك الجلسات من جانبي، بالطبع بعد تخرجي وتحضيري لرسالة الماجستير والانشغال بأبحاثي الغريبة صرت أنام ساعات النهار وأسهر ليلًا حتى قبل الفجر ليغلبني التعب وأنام قبل أن يستيقظ هو... فوجئت بعد حصولي على الماجستير بأنه أصيب بالسرطان !!!!

لم أكن أعرف شيئًا عن السرطان سوى بعض المعلومات البسيطة لذلك ظللت متخوفًا ونحن نجري على الأطباء ونقوم بالتحاليل وقد علمنا أنه يجب أن يجري تلك العملية لاستئصال الورم، الورم الذي أصبح خبيثًا ويجب علينا التسريع بالعملية.

كان يطلق النكات على ليسري عني خوفي الواضح على وجهي، ويقوم بالسخرية من الأطباء الذي يعالجونه ويضحك بصوته القوي..

لكن ذلك لم يخدعني، أنا أقرب الأشخاص إليه وأعرف جيدًا أنه ليس من تلك النوعية التي تواجه المرض بالسخرية..

كانت سخريته ونكاته وضحكاته تبث داخلي الاطمئنان، لقد أراد أن تظل صورته في عيني كما هي عن الرجل الذي لا يخشى الألم.. الألم يحرقه ولكنه يأبى أن يصرح به في وجودي.

تمت العملية وارتاح جدي كما كان يقول لنا جميعًا ونحن نقف حوله بعد خروجه من المستشفى، خالاتي يتناوبن خدمته يومًا بعد يوم حتى استرد عافيته بعد شهر وأمر بأن لا تأتي إحداهن مرة ثانية للمنزل وتترك بيت زوجها.

فرحت وأنا أرى العملاق يعود من مرقده مرة ثانيًا ليقف شامخًا أمامي.

داومت معه على الذهاب لجلسة العلاج الكيميائي وعلى أخذ الدواء اليومي حتى لا تنشط الخلايا السرطانية في جسده ويعود السرطان، بعد المداومة على إيصاله للمستشفى بضع مرات رفض بعد ذلك أن أذهب معه مؤكدًا علي أن أعود للتحضير لرسالة الدكتوراه مرة ثانية، بعد مناوشات لم أكن لأكسر له كلمة بعدما أكد خالي أنه سيصطحبه في سيارته لمواعيد العلاج الكيميائي وأكدت خالاتي على أنه سيداوم على الأدوية.

عدت أنا بقوة لرسالة الدكتوراه ولكن زادت أبحاثي وزاد جنوني هذه المرة وأصبحت أتغيب عن المنزل بالأيام وأعود منهكًا لأنام،

ولأول مرة منذ أن ولدت لا أشاهد جدي إلا كل فترة مع الاطمئنان عليه من خالاتي وعلى رعايته..

قررت السفر للمنيا لمدة عشرة أيام لأغطي مجموعة حالات في المستشفى الجامعي ستكون نتائج تغطيتهم مفيدة لي في الرسالة، وفي اليوم العاشر تلقيت الهاتف الذي يقول لي بفزع " جدك بيموت "

تركت ملابسي في غرفتي بالفندق وحتى أوراق بحثي وحاسبت الفندق ورجعت القاهرة مستقلًا القطار، عندما عدت لمنزلي فوجئت بالكارثة، أدخل الشقة فأجد الجميع يجلس بالصالة حزيني الأوجه، أقارب لم أرهم منذ أعوام وأقارب لم أعرف وجوههم والكثير من الأطفال.

نظرت في أعينهم جيدًا وأنا أتمالك أعصابي وأغلقت باب الشقة واتجهت لباب غرفة جدي وفتحتها.. فراش جدي في آخر الغرفة الواسعة وبجانبه الدولاب العتيق القديم الضخم الذي يحتفظ به جدي بجانب الفراش كنوع من الذكرى لزوجته الراحلة، خالاتي يجلسن بجانب الفراش على المقاعد الخشبية وخالي يقف أمامه ينظر إليه..

اقتربت من الفراش وأنا أنظر لهم قبل أن أقف أمام جدي النائم وجسده يرتعش، لا ليس هذا جدي الحبيب، نحل جسده وظهرت عظامه وغارت عيناه؟!!!

نظرت بحدة لإحدى خالاتي فتكلمت بين الدموع أن جدي توقف عن أخذ الدواء منذ أسابيع وأنه قال لهم ذلك منذ أيام لأنه كان يكره الدواء بسبب شعوره بالغثيان عند تناوله.. اتسعت عيني في غضب،

أكملت قائلة بأسى أنه منذ أن سافرت أنا وهو يكره تذوق الطعام ويشرب الماء بصعوبة ويشتكي من ألم بمعدته، وعندما غصبوه أكثر من مرة على تناول الطعام تقيأ ما في معدته بسرعة..

كل هذا وهو يردد في كل ثانية لهم " محدش يقول لخالد ".. تسارعت دقات قلبي وأنا أتخيل ما حدث، قال خالي بدون أن يلتفت لي أن جدي أوهمه أنه سيذهب إلى جلسات العلاج الكيماوي معي واعتقد خالي أنني أذهب به للجلسات في موعدها، ولكنه فوجئ به يخبره أمس أن ذلك لم يحدث.

قلت بصوت مبحوح:

– " حد جاب دكتور "

ردت إحدى خالاتي بأن الطبيب قد أتى منذ ساعات وهو يقول أن جسده صار مليئًا بالأورام السرطانية ونقلناه للمستشفى وقد انفرد ثلاثة من الأطباء بخالي وقالوا له أن المريض يموت الآن ومن الأحسن نقله للمنزل حتى لا يواجهوا مشاكل في استخراج الجثة من مشرحة المستشفى.

أنا فقدت القدرة على الوقوف ، أريد أن أجلس.. تحسست بيدي أقرب مقعد لي فقربه أحدهم مني وجلست عليه أنظر لجدي.. ها أنا أنظر الآن لجدي الراقد يرتعش.. قدمه تتحرك قليلًا وصوت أنفاسه يعلو وكأنه يتنفس بصعوبة وصوت حشرجة يتعالى من حنجرته.

نهضت ووقفت أمام فراشه وطلبت من الجميع مغادرة الغرفة للحظات، لم يسمعني الجميع في البداية لكني كررت طلبي بنبرة أعلى فأمرهم خالي بأن يغادر الجميع الغرفة ثم تبعهم للخارج.

أغلقت باب الغرفة وعدت لأجلس على الفراش وأنا متمالك نفسي وأتكلم مع جدي مغمض العينين قائلًا:

– " مش عارف انت سامعني دلوقت ولا لا، أنا (خالد) يا جدو، حفيدك اللي كل اللي حواليك بيقولوا عليه ابنك، ياااااه بقالي كتير ما اتكلمتش معاك زي زمان، كوباية الشاي بلبن والبقسماط اللي كنت بحب آكله وأعمل صوت بيقي وانت تضحك علي وتقولي انت فاكر نفسك فار... أنا هاكلمك دلوقت وعايز أسالك على حاجة، انت ليه ما أخدتش الدوا يا جدو؟ ليه ما روحتش جلسات الكيماوي؟ أقولك أنا ليه.. انت أكيد زعلت مني الشهور اللي فاتت دي، زعلت مني علشان مش حاسس بيك.. مبقتش اقعد معاك زي زمان ولا باتكلم معاك ولا بسأل كل يوم عن الدوا والعلاج.. خالو بيقول إنك كنت بتتعب من الدوا علشان كده بطلته.. بطلته ليه يا جدو؟ بطلته علشان بتتعب منه بس وإلا علشان حاسس إنك مش فارق معايا؟ لما بطلته السرطان انتشر في جسمك يا جدو، أكيد انت ما كنتش تعرف، كنت فاكر الموضوع بسيط.. "

لفت حركة جدي ورعشاته بينما وجهي يحافظ على جموده

– " أنا اللي عملت فيك كده.. سبتك وما اهتمش بيك، أيوه أنا ما اهتمتش بيك ولسيتك وكنت أنا الوحيد اللي المفروض أسال على الدوا ومواعيده وأعرف حاسس بإيه كل يوم. أنا دلوقت واقف

فقدتك وسط شعوب وبس عارف أعمل إيه دلوقت؟ يا ترى لو انت سامعني يا ... هاتسامحني؟؟؟ انا آسف "

حركة جدي لفتت تماما ووجدته ينقلب على جنبه الأيمن فساعدته ببطء التقط أنفاسه وخفت حركته فقبلته على جبينه وانصرفت وأنا أعود لأجلس تلك المرة على مقعدي.

تحدثت مع جدي، تكلمت معه، قلت له الحكايات، من وقت لآخر يفتح أحدهم الغرفة لينظر لنا فتعاجله نظراتي القوية تأمره بإغلاق الباب لينظر لجدي وينظر لي ويتعجب أنه مازال على قيد الحياة ويغلق الباب بعدها. ظللت ساعات أجلس في الغرفة ومن وقت لآخر يتقلب جدي بصعوبة فأساعده على التقلب حتى انتصف الليل وبدأ الجميع يغادر المنزل ما عدا خالاتي وخالي وباقي الجميع في الخارج وظللت أنا ساهرًا حتى وجدت جسده وهو نائم على ظهره ينتفض على الفراش، وقفت على قدمي بسرعة محاولا تهدئته لكنه فتح عينيه ونظر لي والتقت عيناه بعيني.. وشعرت قلبي ينقبض، نظرته لي لم ينظرها لأحد في حياته، نظرة يستنجد بي بها وأنا أشعر بقلبي ينقبض أكثر. يدي على جسده تحاول تهدئته وهو ينظر لعيني وجسده يتحرك حركة بسيطة لا إرادية منه ويرتعش ويده ترتفع وتنخفض وأنا أحاول أن امسكها

- " ما تخافش يا جدو أنا هنا "

أقولها بصوت متهدج فيزداد جسده في الارتعاش وتقع عيني على قدمه فأجد أنها تتصلب فجأة وتتوقف عن الحركة فأنظر لعينيه وأنا ألقنه الشهادتين بصوت عالٍ وأرددهم بسرعة وهو يجذب يده من يدي فأتركها ولكنه أمسك رسغي منها وقبض عليه ثم هدأت نظرة

عينيه فجأة وهدأ جسده ورأسه يميل يمينًا على الوسادة وبعض قطرات من الدماء تتساقط من جانب فمه.

ما هذا؟ هل مات؟ أين هو الآن؟ أين أنت يا جدي..

ماذا شعرت وأنت في سكرات الموت؟

ماذا شاهدت؟ لماذا نظرت لي هكذا؟ هل تألمت أمي مثلك وهي تموت؟ لقد كنت أنا السبب المباشر في موتك.. أنا أعرف أنه قدرك ولكن الأمور تجري بأسباب وأنا كنت السبب، أنا قاتلك يا جدي، أنا قاتلك يا من ربيتني.. نهايتك كانت على يدي أنا.

غطيت وجهه بهدوء والدمع يأبى الخروج من عيني، وفتحت باب الغرفة ليقابلني من استيقظ من النوم من صوتي وأنا اردد الشهادتين يتساءلون فقلت لهم بهدوء أن جدي مات ومن الأحسن ألا اسمع أي أصوات صراخ وإلا استخدمت يدي لاسكت من يصرخ.

لم تصدقني خالتي في البداية ولكن عيني كانت صادقة وهي تنظر لهم بحدة وخالي يقتحم الغرفة في حين قلت أنا من يريد أن يلقي نظرة عليه يدخل منفردًا أما من يريد الصراخ فسأطرده بهدوء قبل أن يفكر في الصراخ..

حاولت إحدى بنات خالي المتواجدات الصراخ ولكنها اصطدمت بعيني تنظر لها بغضب وأنا اقترب منها فخافت أن استخدم يدي بالفعل فكتمت صرختها بصعوبة.

دخلت غرفتي وأنا أجلس على فراشي أفكر مات والدي ووالدتي وجدي، آخر من يربطني بأسرتي الحقيقية حتى بعائلتي، والذي أشعر

أنا بحاجة لذلك لست حزينًا بهذا القدر عليها، أما والدي فأتمنى أن أراه لمرة واحدة فقط، اريد ان احتضنه واقبله وانام على صدره.. أما جدي فهو من أتمنى أن أتحدث معه لثانية واحدة فقط.

أريد أن أتكلم معه لثانية، أريده أن يسامحني على ما فعلت معه، أريد أن أبكي أمامه وأطلب الصفح منه.

حاولت البكاء وأنا في هذا الوضع فلم استطع.. أعتقد أن حياتي ستنتهي بموت جدي وعلي انتظار موتي أنا الآخر لألحق بأسرتي للعالم الآخر.. وأن أمر بنفس ...

الفصل الثالث عشر

الساعة الواحدة ظهرًا

صرخة الأم تخترق الحارة الجانبية الهادئة لتعلن عن وفاة ابنها الأكبر ذو الستة عشر عامًا.. الرجال في الدكاكين يهرولون للمنزل الذي خرج منه الصراخ، هذا صبي الميكانيكي الذي أرسله سيده ليستطلع الأمر، وهذا الشاب الذي يعمل في محل البقالة الصغير على أول الحارة وهذا وهذا وهذه وهذه والكثيرين يركضون إلى هذا المنزل المكون من ثلاثة طوابق ويصعدون إلى الطابق الأخير وهم يسمعون باقي الصرخات تخرج منه..

لا حول ولا قوة إلا بالله

لقد توفي (علي) ابن (سيد محروس) السائق لعربة إسعاف تلك المستشفى التي لا يعرفون اسمها، تقول والدته أنه لم يستطع الاستيقاظ باكرًا وطلب من والدته أن تتركه لينام وبالفعل حاولت إيقاظه الآن ولكنها اكتشفت أنه فارق الحياة، حاولت النساء تهدئة الأم والرجال يتأكدون من الجثة والأشقاء يحاولون الدخول للغرفة والرجال يهدئون من روعهم، ظل الحال بهذا الارتباك حتى قال أحد الأشقاء:

– " حد يكلم بابا بسرعة "

قالها الشقيق الصغير فهرع الجميع يستفسر عن رقم الهاتف المحمول للأب، من كان يتخيل أن هذا الأب قد شارك الليلة السابقة

في دفن ثلاثة جثث لفاقدي الأهلية، من كان يتخيل أنه بيده أدخل جثث لنسف ، ونبش قبورهم.. ترى كيف سيتقبل خبر موت أحد أولاده؟

***

وقفت (داليا) و (دعاء) في المطبخ وتلك الأخيرة تقول بابتسامة باهتة

– " ما تخافيش يا بنت أكيد (حاتم) كويس بس انتي اللي خايفة على القاضي

توقفت (داليا) عن متابعة الطبخ ونظرت لوجه شقيقتها الذي طغى اللون الأحمر عليه وزادت الهالات السوداء تحت عينيها وهي تجاهد لتفتحهما كي لا تنام وتترك شقيقتها لخوفها.

– " بطلتي قراية ليه يا (دعاء) في الرواية؟ "

– " قلت أرتاح شوية وأعمل معاكي الغداء علشان بابا وماما لما يجيوا، أكيد مش هاسيبك لوحدك "

قالت (دعاء) العبارة السابقة ثم تبعتها قائلة بعد ثوان وكأنها تذكرت شيئاً ما:

– " هو انتي ليه فضلتي مصممة أقرا الرواية بعد ما الصور اللي صورتهالك طلع فيها لون اسود؟ "

– " لما تكملي قراية هاتعرفي كل حاجة؟ "

فجأة سمعت الفتاتان صوت طرقات عالية على باب الشقة فانتفضت (داليا) وهي تشهق وعينيها تتسع مما جعل (دعاء) تنظر لها مندهشة وكادت أن تقول لها شيئاً لولا أن (داليا) أمرت (دعاء) بأن تفتح باب الشقة..

حاولت (دعاء) أن تفتح فمها للكلام ولكن صوت الطرقات عاد مرة ثانية... كانت ثلاثة طرقات يفصل بين الطرقة والأخرى ثانية واحدة فأصبحت بطيئة.

ذهبت (دعاء) لتفتح الباب واقتربت منه فعاد صوت الطرقات قبل أن تفتحه بثوان فانتظرت حتى انتهى الطارق من الطرق وفتحت جزء صغير من الباب لأن هناك سلسلة تصل من الباب للحائط حتى لا يسمح للباب بأن يفتح للنهاية بل تعطله السلسلة كي تتأكد من الطارق أولاً.. فتحت الباب قليلاً لتشاهد من وراءه من يطرق الباب ولكنها وجدت الفراغ !!!!

دارت بعينيها جيداً، لا يوجد أي شخص؟؟! نزعت السلسلة وفتحت الباب بالكامل ونظرت جيداً وهي تقول في نفسها من هذا الذي يستطيع أن يطرق الباب وفي خلال جزء من الثانية يختفي من أمامه؟

أغلقت الباب وعادت مرة أخرى للمطبخ شاردة ولكنها قبل أن تتخطى باب المطبخ سمعت (داليا) التي تقف منشغلة أمام الموقد تقول لها:

– " لما فتحتي الباب ملقيتيش حد، صح؟ "

فتحت (دعاء) فمها مندهشة فقالت (داليا) وهي مازلت تعطي ظهرها لها:

- " الباب هايخبط دلوقت تاني، اوعي تفتحيه لانك مش هاتلاقي حد وراه "

هنا دوى صوت الطرقات على الباب فصلبت (دعاء) في حين أن (داليا) أدارت وجهها لها وهي ترتعش ودموع تتكون في عيناها.. ثم سقطت على الأرض فاقدة الوعي.

***

- " لو مش مصدقني شوف بنفسك "

قالتها (دينا) لشقيقها الذي يقف بالقرب من الباب، بلع ريقه وقال:

- " ازاي عرفتي إن محدش ورا الباب قبل ما أفتحه؟ "

وضعت يدها بين كفيها و(أحمد) يقف متجمداً عند مكانه بالقرب من الباب، لم تمر فترة كبيرة إلا وقالت (دينا) وهي مازالت تضع رأسها بين كفيها:

- " دلوقت الباب هايخبط لأخر مرة "

عندمنتصف العبارة عادت الدقات القوية على الباب فجرى (أحمد) ليفتح الباب مرة ثالثة ولم يجد من يطرقه!!!! عندما نظر لشقيقته الجالسة وجدها تتناول من على المنضدة الجانبية رزمة الورق التي أصبحت لا تفارقها وهي تقول:

- " (حازم) عايز يكلمني "

اتسعت حدقتا عين (أحمد) وهو يتأمل شقيقته قائلاً:

(مقطع من الرواية الأصلية)

***

المقبرة. الظلام الرهيب والجو القبض. الجثث المتناثرة.. جميع الجثث تحولت لعظام متناثرة أو عظمة وحيدة أو أشياء غريبة لا تعرف ما هي. الجثتان الوحيدتان اللتان قد كفنا بالكفن الأبيض إحداهما للشاب معشول الجسد ذو اليد المشوهة والوجه المحروق المدمر والذي كان يمسك بيده اليمنى علبة الخاتم قبل أن ينتزعها منه (هادي). أما الآخر ذو اليد اليمنى والوجه المحروق وعينه اليسرى التالفة هذا هو الذي كان على قيد الحياة قبل أن يدخلوه القبر.. إنه الآن يتحرك بصعوبة زاحفًا على تراب القبر وهو يصدر من حنجرته صوت مكتوم يجاهد لينال الهواء وذاكرته لا تعيد إليه التفاصيل الكاملة.

***

ظلام يحيط به فلا يرى بعينه الوحيدة، رائحة ثقيلة لا يتحملها جهازه التنفسي، لا يشعر بيده اليسرى ولكنه في نفس الوقت بدأ يشعر بضغط على كتفه الأيسر في موضع القطع، يده تتحسس التربة بلا فهم وهو يجاهد ليتذكر ماذا حدث له. زحف جزء بسيط بجانبه ولكنه استغرق دقيقتين ليزحف بضعة سنتيمترات، اصطدمت يده بملمس قماشي فأمسكه بعنف محاولًا تمييزه وكأنه وقع على كنز سيفسر له أين هو الآن ويمكنه ان يتوقع المكان الذي يزحف داخله.

تحسس بيده الوحيدة الشيء القماشي بروية حتى وصل إلى جزء ليس قماشي !! ملمس طري جعل يده تنتفض لأول وهلة، عادت يده لاستكشاف نفس المنطقة فشعر أن هناك شيء لزج يلتصق بيده من

ذلك الجزء الطري، فجأة وصلت المعلومة لرأسه وكأنها صاعقة كهربية سرت في جسده.

إنه يلمس وجه إنسان ملئ بالدماء، ظلام وتراب من حوله وملمس قماشي داخله رجل.. إنه داخل القبر الآن ، لم يتحمل الفكرة وفقد وعيه في الحال.

***

الفصل الرابع عشر

لقد طبخت في الغداء بدلًا من الإفطار كما كنت أنوي، قمت بإعداد الدجاجة المجمدة التي اشتريتها وحشوتها بالبصل والطماطم والفلفل وبعض التوابل وأدخلتها الفرن وقمت بسلق المكرونة وأنا بين الحين والآخر أتوجه لغرفة نومي كي أبدل ملابسي وأعود سريعًا لمتابعة عمل الصلصة وهي تنضج على النار.

كنت أفكر في الطعام وبجانبه أفكر في موضوع المصحة التي سأذهب إليها اليوم كما قال لي د / مصطفى، فكرت فيما سأفعله عند الرجوع من المصحة وفي شكل بحثي تلك المرة حيث أنني سأقوم بالبحث على مرضى في مصحة وليس مرضى في ظروف طبيعية أي أن البحث سيتأثر بظروف الضغط الذي يتعرض له المريض من خلال جو المستشفى.

لا يوجد حل إلا أن أحاول مراعاة شكل الأسئلة التي سألقيها على المرضى وطريقة التعامل التي ستحدد صدقهم من كذبهم معي، ظللت أفكر في تلك الأمور وأنا أقوم بمتابعة الطعام من وقت لآخر وأجلس في الصالة أمسك ببعض الأوراق أخط عليها بعض الأسئلة كي لا أنسى وفي نفس الوقت أذكر نفسي بطرق المعاملة التي سأعاملها للمرضى عن طريق كلمات أتركها في أماكن معينة بالورق ترشدني لطرق التعامل ومتى أبدئها أو أتوقف عن العمل بها مع المريض إذا اتخذ نوع من الحيل الدفاعية.

نضج الطعام فنقلته للمائدة وحاولت أن أفتح التلفاز كثيرًا ولكنه لم يستجب، يبدوا أن الكهرباء لا تصل من الأساس لدوائره الداخلية، لا يهم أخرجت من مكتبتي كتابًا لدكتور مصطفى زيادة رحمه الله ولكني تذكرت أنني قد قرأته منذ أيام فأخرجت كتابا آخر قديمًا لدكتور / فرج عبد القادر طه الذي كنت أشتري كتبه منذ طفولتي..

كان كتابًا عن مبادئ علم النفس فتحته لأنشط معلوماتي بلغة الكتاب السهلة الممتعة وأخذت الكتاب وجعلته بجانبي أقرأ قليلًا من الصفحة ثم أمضغ بعض الطعام حيث أن تلك الطريقة كنت استخدمها في صغري وأنا أتناول الطعام بدلًا من مشاهدة التلفاز..

انتهيت من الطعام فرفعته من على المائدة ودخلت الحمام لأغسل يدي من أثر الطعام أغلقت الباب على نفسي ووقفت على حوض الغسيل ومددت يدي لأفتح الصنبور ولكن مرآة الحمام جذبتني قليلًا.

قربت وجهي منها باستغراب حتى توقفت أمامها تمامًا.. أين انعكاس صورتي في المرآة !!!!!!

***

شهق شهقة كبيرة وهو يحاول أن يحرك يده من على الجثة التي وضع يده عليها يتحسسها، إذن هو داخل قبر، باللهول باللهول، هل مات وينتظر الحساب أم أن.. أم أن ماذا؟

ابعد يده عن الجثة وأوصاله ترتجف مما فهم.. حاول الارتكاز بيده على الأرض لينهض ولكنه فقد الوعي فجأة.

***

لماذا لا أرى انعكاسي في المرآة؟؟؟؟؟؟؟ توقفت لدقيقة أنظر للمرآة بنوع من التركيز محاولًا تأمل السطح المصقول وهل به مشاكل في التنظيف !! لا جدوى من ذلك فانعكاس باب الحمام يظهر بالمرآة ولكن انعكاسي هو الذي لا يظهر.

فتحت الصنبور بشرود وأنا أغسل يدي بالصابون والماء.. انتهيت وخرجت على الصالة وأنا أفكر في المرآة؟؟ لماذا لا يرى شخصًا ما انعكاسه في المرآة، لقد مر علي قبل ذلك نوع من هلاوس الفصام واضطراب الشيخوخة يجعل المريض يرى انعكاسات صور لأشخاص آخرين عندما ينظر للمرآة.

وفي حالة أخرى وجد المريض صورة طفل صغير ينظر إليه من الجانب الآخر للمرآة.

هل أصبت بمرض نفسي؟؟ هل هو إجهاد؟ ربما لأنني أسهر الليل في القراءة والبحث وأنام في بعض ساعات النهار فأصبت بتلك الهلاوس، بالطبع لن أصرخ وأقول أنني مجنون وأنني مصاب بمس من الجان أو العفاريت، لقد قابلت حالات من الجنون التي يرى المريض فيها أشخاصًا يتحدثون معه كل ليلة فلن أفزع من هلاوس بصرية، ولكن يجب علي معرفة سرها.

على كل حال الوقت لأنام قليلًا حتى أكون في كامل وعيي عندما أذهب للمصحة.

هل أنظر لمرآة غرفة نومي قبل أن أنام؟ لا لن أفعل سأحاول تمالك أعصابي لأنام قليلًا.. دخلت لفراشي وأنا أردد بعض أدعية النوم، قبل أن أنام شعرت ببعض الألم في عيني .. أعتقد أن عيني تأثرت هي الأخرى بالإجهاد.

***

(دعاء) بدأت تفقد أعصابها فعلًا، عدم النوم، شقيقتها التي فقدت وعيها أكثر من مرة، الرواية الغريبة.. كل ذلك يدعوها لأن تفقد أعصابها ولذلك فقد بدأت بنقل شقيقتها من المطبخ وهي تنادي على شقيقها الأصغر الذي أصابه الرعب وهو يشاهد شقيقته (دعاء) تحاول أن ترفع (داليا) من على الأرض لتسند جسدها وتجرها لغرفة النوم.

صرخت (دعاء) في شقيقها بأن يحضر لها زجاجة العطر من الغرفة بسرعة.. جرى الصغير للغرفة وهي تحاول أن تجر شقيقتها بصعوبة وقد تذكرت أنها طلبت من شقيقها أن يحضر زجاجة العطر من غرفتها وهي ذاهبة بداليا إلى الغرفة الآن.. لقد فقدت عقلها.

نادت على الصغير بأن يظل بداخل الغرفة، وبالفعل استطاعت نقلها إلى فراشها ووضعتها على الفراش وجلست هي تلهث على الفراش الآخر ثم تذكرت شقيقتها الراقدة على الفراش فهرعت تأخذ زجاجة العطر من الصبي الصغير وتحاول إفاقة (داليا) برائحتها، نجحت

بعد ثوانٍ في تنبيه (داليا) مع بضع ضربات خفيفة باليد على خديها كي تفيق.

جلست بجانبها وهي تشعر بالإجهاد يتملكها ولكنها تماسكت على نفسها وطلبت منها تفسيرًا لما حدث فتذكرت (داليا) الأحداث وكاد وجهها ينقلب مرة أخرى لولا صرخة من (دعاء) أفزعتها، لقد بدأت (دعاء) تخرج عن شعورها بالفعل وهي تطلب تفسيرًا لما يحدث حولها:

– " اتفق قولتي إلك وقفتي لغاية فين في الرواية "

قالها (داليا) بنوع من الإرهاق فردت (دعاء) نافذة الصبر:

– " لغاية ما مات الكاتب وأهله دفنوه "

– " كملي بعديها هاتفهمي "

صاحت (دعاء) بغضب:

– " أنا اتخنقت هاتقولي وإلا لا "

قالت (داليا) بإصرار:

– " اقري وانتي هاتشوفي بنفسك "

كان الصبي ينظر لهم برعب فنظرت له (دعاء) وأمرته بأن يلعب في الخارج فجرى الصبي وتركهم بالغرفة، ثم قامت (دعاء) من على الفراش وأخذت الرواية من على الكومود الخاص بها وجلست على فراشها هي وفتحتها لتكمل قراءة و (داليا) تنظر لها وتقول:

– " قبل ما تقراي أي كلام لازم اقولك أنا شوفت إيه امبارح بليل خلاني أصرخ "

– "؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟ "

– " العروسة اللي لابسه فستان فرح كانت هدية من (حاتم) بعد ما خلصنا امتحانات السنة دي، العروسة دي شوفت دم نازل من عنيها على الأرض والدم بيرسم شكل قلب جواه سهمين عكس بعض، الرسمة دي كان دايمًا بيرسمها (حاتم) في الكشاكيل وكنت أنا بافلده وبارسمها في كل مكان "

***

على الضوء القليل الذي يأتي من النافذة رأت دميتها التي أهداها لها (حاتم) والتي اتخذت شكل عروس صغيرة ترتدي فستان زفاف، العروس ينزل سائل من عينيها يشبه الدماء !!! ينزل ليغطي فستانها الأبيض ثم يكمل نزوله بغزارة حتى تنزل القطرات للأرض، فتحت عينيها بفزع وهي تشهق والقطرات تتجمع على الأرض لتكون رسمة مهزوزة المعالم لقلب يخترقه سهمان متقاطعان.. ياللهول إنما هي تلك الرسمة، إنما هي.

***

منزل (سيد محروس).. شقته خالية إلا منه هو بعدما استدعوه وفوجئ بوفاة ولده، وبجانبه وقف أحد أقربائه وهناك زوج شقيقته ولكنه في الحمام يملأ طشت كبير بالماء ويتأكد من خلط الماء البارد بالساخن ليصبح الماء فاترًا كي لا يؤذي الجثة.

نعم فهذا هو غسل جثة (علي) ابن (سيد).. قرر الجميع أن اكرام جثة الصغير دفنه وبالتالي كان يجب أن يبدأ غسل الجثة وفي اثناء ذلك يذهب البعض لاستخراج شهادة الوفاة والأوراق اللازمة والتي ليست هامة لدفن الجثة فهو سيدفن بمدافن الأسرة بالقناطر.

بعد فترة حزن وبكاء من الأب بعدما عاد ملهوفًا على ولده استجمع شجاعته وقرر أن يقف في أثناء غسل جثة ولده.

لذلك وضعوا منضدة الطعام القديمة وسط الصالة ورفعت السجاجيد ونقل الأثاث ووضعت جثة الفتى الشاخصة المتصلبة قليلًا على المنضدة، وتطوع أحد اقاربهم بأن يغسل الجثة بنفسه لأنه يعرف قواعدها الشرعية، بكل رفق خلع ملابس الصبي وهو يقول الأدعية و(سيد) يساعده بنوع من الانقياد وكأنه لم يفق من الصدمة بعد ثم يغطي عورته بقطعة قماش تداري ما تحتها .

جاء الماء وتأكد المغسل من ملمسه قبل أن يأخذ منه بكوب نحاسي ويبدأ يصبه على جسد الفتى ووالده يقف ناظرًا إلى الفتى بنوع من الشرود ومن وقت لآخر يساعد المغسل بأن يرفع يد والده أو يسند جسد ولده أو يناول المغسل الكافور الذي أحضره الرجل معه ووضعه على هذا المقعد البعيد..

فجأة تلوي صرخة لفتاة من الخارج فيسمع الجميع الرجال يصيحون فيها بأن تصمت وتظل الصرخات تنفلت من وقت لآخر لدرجة أنهم سمعوا صوت صفعة قوية أسكتت إحداهن ولم يسمع لهن صرخة لمدة طويلة.

(سيد) ينظر لولده بشرود وأفكار متخبطة تأتي لعقله لا يجمعها خيط تفكير منطقي، ذكرى قديمة لإمام المسجد في خطبة الجمعة يقول بأن الميت يشعر بكل من حوله ويشعر بمن يلمس جسده بل ويتوجع ألمًا إذا آذاه أحدهم، لذلك المغسل يعامل جثة ولده برفق.

يتخيل (سيد) كل الأحداث القادمة لأنه يعرفها ويشعر ألمًا يجب أن تحدث، الكفن الأبيض الذي سيلف به، الصلاة التي ستصلى عليه في المسجد، نقل النعش إلى القبر ثم....... توقف عقله هنا مرة أخرى وكأنه لا يعلم بحق ماذا سيحدث بعد الوصول للقبر.

بدأ المغسل يتلو دعاءً بصوته الرخيم وهو يستعد ويطلب من زوج شقيقة (سيد) أن يملأ الطشت للمرة الأخيرة ليتوضأ الفتى قبل أن يكفن.

***

الفصل الخامس عشر

الساعة الرابعة عصرًا

استيقظت من نومي مفزوعًا وأنا أنظر للمنبه، لم يرن برغم أنني ضبطه على الرابعة ولكن جيد أنني استيقظت من تلقاء نفسي، هناك حلم ما حلمت به في أثناء النوم ولكن تفاصيل الحلم غريبة.. هناك مقبرة مظلمة وجثث وأشياء بلا معنى !!! تحاملت على عقلي وأنا أتذكر بعض التفاصيل عن جثة تتحرك في مقبرة وتستغيث؟ واسم مكان يتردد في ذهني .. أشعر أني سمعت ذلك الاسم قديمًا أو مررت عليه وأنا أستقل إحدى المواصلات، تذكرت إنه اسم منطقة مقابر معروفة؟ لماذا يتردد في ذهني مع هذا الحلم كأنني أشعر أنني أريد الذهاب هناك، ابتسمت رغمًا عني عندما نسج خيالي قصة مضحكة تصلح للأفلام الهابطة، تخيلت أن رجلًا دخل المقبرة وهو حي ويحاول أن يستغيث بي عن طريق الاتصال العقلي، ارتفعت ضحكتي فجأة وأنا أقول في نفسي أنه يحاول إرسال رسالة من داخل القبر لي، لماذا لا يستخدم إحدى عروض الهاتف المحمول خاصة أن الرسائل مجانًا من الساعة الواحدة بعد منتصف الليل حتى الثامنة صباحًا وسعر الدقيقة لأي محمول عشرون قرشًا فقط.

أكملت ضحكاتي وأنا أقفز بتثاقل من على الفراش، حان الوقت لارتداء ملابسي والذهاب إلى المصحة النفسية.

انتهيت من ملابسي سريعًا وغادرت المنزل وأنا أستقل تاكسي قديم جدًا أشرت له، قلت له أن يذهب لفيصل وبالتحديد شارع العشرين، ابتسم لي السائق العجوز وانطلق بدون كلمة، نظرت للطريق في الخارج وأنا أفكر في شكل هذا المرض الذي أنا ذاهب لفحصه لأن المريض من المحتمل أن يرفض الحديث باعتباره جثة وأيضًا يرفض الطعام فيضطر الممرض إلى إطعامه، ولكن هل تم تجربة الجلسات الكهربية على تلك الحالات؟!!

جاء لي خاطر مضحك عن الأفلام الساذجة التي تصور الجلسات الكهربية للمرضى النفسيين كنوع من التعذيب أو على أساس أن الطبيب النفسي يعمل كهربائيًا بعد الظهر ويجري وقت فراغه بكهربة المرضى عن طريق جهاز مرعب الشكل والمريض يتأوه ويصرخ.

لقد حضرت أكثر من جلسة علاج بالصدمات الكهربية وأعرف مدى دقة ذلك العلاج الذي يستخدم في علاج بعض حالات الفصام والهذيان وجنون العظمة والوسواس القهري وبعض حالات الصرع النادرة جدًا والتي يضطر فيها الطبيب لضبط كهربية المخ عن طريق الجلسات الكهربية التي تحتاج لأشعة على المخ وقياسات عديدة.

وأخذ موافقة من أهل المريض أو من المريض نفسه إذا كان على درجة من الوعي وبعدها يقوم طبيب التخدير بتخدير المريض كليًا فلا يشعر المريض بأي ألم أثناء الجلسة كما يتصور البعض.

تلك الجلسات التي يقوم فريق عمل برعاية المريض قبل وبعد الجلسة وحتى الأذن بالعلاج بالجلسات يتم تحت إشراف طبيب

استشاري يراجع حالة المريض والأدوية التي لم تؤت ثمارها معه وهو من يحدد عدد الجلسات ومواعيدها.

اعتقد أنني يجب أن أخذ في الاعتبار السؤال عن تعرض الحالات التي سأزورها للعلاج بالصدمات الكهربية أم لا.

فجأة دوى صوت سائق التاكسي يقول:

– " مال ايدك يا باشا؟ "

نظرت له باستغراب فأشار إلى يدي بدهشة فنظرت فلم أجد شيئاً !!!

طلبت منه التوضيح أكثر فأشار بيده مرة أخرى؟؟ ثم نظر لي متسائلاً بعينيه عن غبائي وعدم ملاحظتي..

لم أملك إلا أن أشكره على اهتمامه كي يهدأ برغم أنني لا أفهم ما يشير بالضبط؟؟؟

يتناول الوالد اللقيمات ببطء وهو بين الحين والآخر ينظر لغرفة نوم ابنتيه ثم ينظر للأم فتنظر هي الأخرى له بحسرة:

– " أنا قلبي مش مرتاح على البنتين "

قالها الأب وهو يتوقف عن تناول الطعام فتقول الأم وهي تمسح بعض الطعام الذي سقط على ملابس الصغير:

– " أنا لما دخلت من ساعة ولقيت (داليا) نايمة و(دعاء) قاعدة تقرأ وتقولي إن (داليا) تعبانة شوية وهاتكمل نوم وإنها مش هاتقدر تقوم تاكل اسكريت "

ثم أشارت للصغير وقالت

– " وحادة بتقول إن (داليا) أغمى عليها في المطبخ النهاردة الصبح "

– " ما هو علشان كده قلتلك نجيب دكتور لداليا "

– " اصبر بس الموضوع مش هايحتاج لدكتور "

لم يتخيل الأبوين ما يحدث الآن داخل غرفة نوم الفتاتان.

(داليا) تنام على ظهرها مغمضة العينين و(دعاء) تنظر للرواية بعينين زائغتين وهي تضعها على الفراش أمامها مفتوحة على إحدى الصفحات.

استيقظت (داليا) ونظرت لشقيقتها وقالت بصوت حزين متقطع العبارات:

– " فهمتي خلاص "

انتفضت (داليا) من الصوت ونظرت لشقيقتها تلومها على تلك المفاجأة.. هدأت وقالت بعدها بصوت تجاهد كي تخرج سليمة بسبب النوم الذي يغلبها"

– " (حاتم) كتب ليه الكلام ده؟ "

أغمضت (داليا) عينيها وتساقطت دمعة فجأة سالت على خدها ثم اختفت، فقالت :: تام) بعدم تصديق:

– " لما يموت الكاتب أرملته هاتشوف في ليلة دفنه إن العروسة اللي لابسة فستان فرح اللي اشتراها ليها في عيد ميلادها أيام الجامعة غرقانة دم والدم اللي نازل ده بيكون بركة كبيرة بتكتب كلمة

حبيبي، نفس الكلمة اللي كان بيكتبها ليها في كل مكان لما بيتخاصموا، ونفس خط ايده "

أخذت أنفاسها وأكملت:

- " الأرملة هاتفتكر قصة (نصف ميت) القصة اللي كان دايمًا بيتكلم عليها قبل ما يموت.. تلاقي إن جوزها ساب ليها وسط القصة تحذيرات من حاجات بتحصل في وقت معين، هاتلاقي البطلة اللي في الرواية عندها عروسة شبه اللي عندها وبيحصل ليها نفس اللي حصل عندها.. ده معناه إن الكاتب بيعلن ليها عن وجوده معاها.. ومعناه إن فيه حاجة عايز يقولها ليها لكنه مش عارف يكلمها. الكاتب مكنش عنده صرع بس، الكاتب كان بيقدر يحرك الحاجات عن بعد ويكسرها بسهولة من خلال كهربة مش طبيعية في عقله. بعديها هاتشوف رقم جوزها بيتصل بيها على موبايلها فتفتح الموبايل ماتلاقيش حد لكن المراية اللي قدامها هاتشوف فيها صورة واحد بتكون من الدخان!!!! في الرواية الصورة اللي ظهرت ليها دي صورة (النصف ميت) ودة شخص مهم لازم تحفظ شكله كويس لو ظهر ليها تاني في أي مكان، تاني يوم الأرملة هاتجيب أخوها صاحب جوزها علشان تحكيله عن الحاجات اللي بتحصلها وأخوها معاها الباب هايدق عليها تلات دقات ورا بعض ببطء ويسكت شوية ويدق تلات دقات برضه ويسكت شوية ويدق تلات دقات برضه، الرواية اللي مع الأرملة بتفسر صوت الدقات وتسميها (الرمز) وإنها هاتسمع الرمز ده تاني.. "

ضحكت (داليا) مرة أخرى وقالت:

- " تفتكري كل اللي حصل ده صدف؟؟؟ "

كانت (دعاء) تنتظر ذلك السؤال وتخاف منه فقالت بسرعة مستنكرة:

- " قال الله ولا قالك يا شيخة.. إلتي تقصدي إن (حاتم) حصل له حاجة وحشة "

ابتسمت لها (داليا) بارهاق ونهضت بتثاقل واقتربت من فراش (دعاء) ثم أخذت منها الرواية برفق وهي تقول:

- " نامي يا حبيبتي دلوقت "

حاولت (دعاء) المقاومة ولكن شقيقتها ربتت على شعرها بحنان وهي تعدل لها وضع المخدات فأغمضت (دعاء) عينيها وأراحت رأسها على الوسادة وهي تغيب في النوم.

أما (داليا) فوضعت الرواية على الكومود وأطفأت ضوء الغرفة وعادت لفراشها تفكر في آخر أيامها مع حبيبها عندما انتهت الامتحانات وصار عليها أن تسافر للاسكندرية في خلال يومين على الأكثر.

المفاجأة أن (حاتم) لأول مرة منذ عرفها أعد لها برنامجًا ليومين قاما فيه بزيارة حدائق ودخول السينما مرتين وتناولا في اليومين الإفطار والغداء والعشاء في مطاعم كبيرة حتى عندما تمنت أن تزور الحسين قاما بالتجوال فيه ودخول المسجد والصلاة فيه، ثم تناولا الطعام عند مطعم شهير فوجئت هي باسمه الغريب (بحة)..

ثمان وأربعون ساعة قضتها في سعادة وفعلت كل ما تمنته وجلست في كل مكان سمعت عنه أو لم تسمع عنه، وفي النهاية قبل أن تغادر القاهرة جلست على المقهى الذي يحفظ بعثات الذكريات لهما.

- " كان نفسي نكون متجوزين يا (داليا) دلوقت "

احمرت وجنتيها من الخجل وقالت بصوت خافض:

- " وأنا كمان "

فجأة تذكرت شيئًا فعاد وجهها للجدية وقالت:

- " أنا ما رحتش أكلمك طول اليومين اللي فاتو على الرواية زي ما طلبت مني "

- " آه "

- " دلوقت أنا اقدر اتكلم، انت عارف رأيي يا (حاتم) في الرواية دي من ساعة ما قريتها وأني قولتلك عليها إنها عبقرية ورعبتني جدًا لدرجة أني قعدت ليالي ما نمتش من الخوف من المقابر وأشكالها ووصفك ليها "

- " أنا عارف أنتي عايزه تقولي ايه "

- " لا مش عارف، انت ليه خليت الذكريات المشتركة اللي في الرواية بين البطل والبطلة تبقى ذكرياتنا وأحلامهم أحلامنا.. دا حتى دبلة الخطوبة اللي كنا بنحلم بشكلها إنها تكون مكتوب عليها حروف اسمنا من برة الدبلة بشكل بارز.. خليت البطل والبطلة يلبسوها "

- " يا حبيبتي ما أنا قلتلك إني حطيت فيها كل مشاعري وأفكاري وكل... "

قاطعته (داليا) قائلة بنبرة حادة:

- " ليه مش عايز تجاوبني وتقولي البطل بتاع الرواية يبقى عنده نفس المرض زيك ونفس الرواية اللي بيألفها.. لكن الحاجة اللي معرفهاش عنك.. انت بتحرك الحاجات اللي حواليك بارادتك؟ "

- " ده موضوع كبير مش زي ما انتي متخيلة "

- " وكمان العروسة اللي اشتريتهالي امبارح وماردتش اتكلم معاك فيها، عروسة لعبة لابسة فستان فرح، زي العروسة اللعبة اللي لابسة فستان فرح في الرواية "

كادت أن تكمل كلماتها لولا أن قاطعها هو قائلًا:

- " الرواية دي هي أنا يا (داليا)، انتي قولتيلي انت نفسك وأنا اهو كتبت رواية حطيت فيها مشاعري وعذابي وذكرياتي، الرواية دي لو فشلت يبقى أنا فشلت ولو نجحت يبقى أنا نجحت، لأن الرواية دي هي أنا.. لو بتحبيني صحيح حبي الرواية دي واقريها كويس "

- " إيه ده؟ انت بتقول نفس كلام البطل في روايتك "

- " بلاش الكلام ده يا (داليا) واسمعيني.. أنا من بكرة هارجع أكمل مشواري مع الناشرين يمكن الاقي اللي يقبل ينشر لي، وفي نفس الوقت عايز اطمنك واقولك الرواية دي خيالي أنا "

برغم تلك العبارة لكن (داليا) شعرت بالخوف ينمو داخلها

***

توقف التاكسي أمام أحد محلات البقالة وهو يسأل عن شارع حسن حماد ولكن البقال كان مشغولًا مع فتاة صغيرة فقلت أنا له:

- " هو انت ما تعرفش فين شارع حسن حماد "
- " لا والله يا بني انا أول مرة أعرف إن فيه شارع اسمه حسن حماد جوه شارع العشرين، مع أني من الطالبية أصلاً "
- " طب نمشي شوية يا حاج جوة شوية يمكن نلاقي حد يعرفه "
- " نتوكل على الله.. بس يمكن الحكومة غيرت اسم شارع من الشوارع زي عادتها وسمته حسن حماد ده "

سار سائق التاكسي بي قليلاً وفجأة اشرت له عند شارع علقت امامه لافته زرقاء لامعة كتب عليها شارع حسن حماد فابتسم لي سائق التاكسي العجوز وتوقف وهو يضغط على الفرملة فاندفعت للأمام قليلاً وانفتح تابلوه السيارة لتقع على قدمي صورة صغيرة داخل برواز من الذي يعلق.. صورة لفتاة حسناء تبتسم.

- " دي بنتي "

قلت أنا بابتسامة:

- " ربنا يخليهالك يا حاج "

أخرجت حافظة نقودي وأخرجت ثلاثون جنيهًا منها وأعطيتهم له ولكني شعرت اني أعرفه، رأيته قبل ذلك ولكن متى لا أتذكر، قبل أن اغادر التاكسي قلت له:

- " احنا اتقابلنا قبل كده يا حاج؟ "

ابتسم الرجل الطيب وقال:

- " أنا كمان باشبه عليك يا بني، ممكن أكون وصلتك قبل كده لمكان، المهم سامحني يا بني أني خليتك توصل متأخر "

فتحت باب التاكسي وانا أودعه بأدب سار بعدها بعيدًا ودخلت أنا الشارع أبحث بعيني عن المصحة وقد نسيت أنني لم آخذ رقم المصحة، ها هي ذا عبارة عن عمارة كبيرة علقت عليها لافتة كبيرة عليها اسم المصحة وكلمات عن وعد المريض بالاسترخاء والراحة النفسية التي سيلاقيها داخل المصحة.

دخلت المصحة التي تتكون من سبعة طوابق بعدما عرفت بعد ذلك، الاستقبال عبارة عن بهو كبير انيق يجلس به ممرضان يرتدي أحدهم ملابس عادية قميص وسروال أما الثاني فقد ارتدى ملابس المستشفى التي تتكون من قميص وسروال من نفس اللون الغامق وهناك بادج معلق على جيبه كتب عليه الاسم الذي لم استطع قراءته لصغره.

تمشيت خطوات بسيطة داخل البهو ذو الإضاءة الخافتة المريحة للعين ووسط بعض أواني الزرع الذي أعتقد أنه للزينة، توقفت امام الكاونتر الذي يجلس خلفه الرجلان، تنحنحت وانا اسأل عن مدير المستشفى فقال لي أحدهم وقد كان أسمر قليلاً حزين الوجه مصبع العينين لا يبتسم:

- " فيه مع حضرتك مريض؟ "
- " لا.. أنا جاي أقابله لأمر شخصي "

نظر الممرض لزميله الآخر بشوش الوجه الذي ابتسم لي وقال:

- " والله ده مشي من ساعتين لكن هو قال إنه هايرجع على الساعة ٨ بليل، حضرتك تقدر تستناه هنا لو تحب لغاية ما يجي "

قال لي ذلك وهو يشير إلى المقاعد الجلدية في آخر البهو فشكرته واتجهت هناك وجلست.. استمرت جلستي لدقائق قبل أن اجد رجلًا

يجلس بجانبي، إنه مريض يرتدي نفس ملابس طقم المرضين هنا، لكن من تلك المسافة القريبة قرأت الاسم الذي تحت بحروف انجليزية صغيرة على البادج المعلق على جيبه

(ثابت عيد) هذا هو ما استطعت قراءته من الاسم الثلاثي المكتوب على البادج.

شعرت أن (ثابت) هذا ينظر لي بين الحين والآخر فبادلته أنا أيضًا النظرات الخاطفة لأتفرس ملامحه، وسيم برغم سنه الذي أعتقد أنه وصل للأربعين أو في أواخر عقده الثالث.

كان ضخم الجثة حتى وهو جالس ذو وجه أبيض مُطلي قليلًا وشعر ناعم برغم مقدمة رأسه الخالية من الشعر.. هذا الرجل كان وسيمًا جدًا في شبابه على ما يبدو لي من عينيه المتوسطة وأنفه المستقيم وشفتاه المتناسقتان.

– " محسوبك (ثابت) يا باشا، أؤمرني "

قالها لي فاندهشت من عرض المساعدة الغريب هذا وهو لا يعرفني فقال هو كأنه يرد على استفساري الذي مازلت أفكر فيه

– " أنا شوفتك يا باشا من شوية وقفت تسأل هناك عن حاجة وبعديها قالولك تيجي تستنى هنا، أؤمرني يا باشا وأنا أخلصلك أي حاجة "

بحكم زياراتي لأكثر من مصحة تعلمت أن هناك بعض المرضين يستطيعون بالفعل صنع المعجزات من خلال معرفتهم بكل كبيرة وصغيرة في تلك المصحات فقلت له بحذر:

– " عايز أقابل مدير المستشفى "

أخرج من جيب قميصه علبة سجائر وعرض علي واحدة فرفضتها شاكرًا فأخذ هو واحدة وأشعلها وقال بذكاء:

– " الباشا شكله جاي علشان حاجة معينة، أكيد مش جاي تسأل على مريض أو تستفسر عن نظام المستشفى،صح "

– " صح "

– " طب ما تقولي يا باشا انت عايز إيه وأنا ممكن أوفر عليك المشوار لمدير المستشفى "

– " مش هاينفع يا (ثابت) علشان أنا محتاج المدير يمضي لي على ورقة معينة.. حاجة كده زي تصريح "

فتح فمه مبتسمًا وقال:

– " بعد إذنك يا باشا ما تقولي تصريح إيه وأنا أفيدك دا المدير ده في حكم ابني الصغير، وانت سيد العارفين احنا بنبقى عارفين كل حاجة عن المستشفى أحسن من مديرها بنفسه "

شعرت أن اللعبة ممتعة وقررت أن أكملها مع هذا المرض فقلت:

– " أنا جاي هنا أعمل بحث عن حالات مرضية معينة موجودة في المصحة دي، أنا باحضر دكتوراه في علم النفس وعايفدني البحث ده أوي في اللي أنا باعمله "

– " يبقى ده التصريح اللي انت عايزه من الدكتور علشان تقدر تعمل البحث بتاعك صح؟ "

رددت عليه مبتسمًا:

– " صح يا (ثابت) "

أخذ (ثابت) نفس طويل من السيجارة وقال لي بنبرة خافتة:

– " مش هايديك التصريح "

– " ليه؟؟؟؟؟ "

– " خدها مني كلمة يا دكتور، أنا أعرف المدير أكتر منك وعارف إنه مش هايديك التصريح علشان تشوف المرضى وتعمل عليهم بحث، من سنة باين جه طلاب في خدمة اجتماعية وطلبوا تصريح برضه زيك وهو رفض على طول وقعد يقول إن دي مهانة لما شوية عيال بيدرسوا عايزين يقفوا قدام المرضى ويلعبوا في عقولهم "

توقعت أنا شيئًا مشابهًا ولكني كنت أعتمد على لباقتي معه لأقنعه بأهمية هذا البحث، إذن ضاعت آمالي في البحث.. إلا إذا:

– " انت محتاج البحث ده أوي يا دكتور؟ "

قال (ثابت) العبارة السابقة وهو يفكر بعمق فقلت أنا وقد فهمت مقصده:

– " أكيد محتاجه يا (ثابت).. تقدر تساعدني؟ "

– " طبعًا يا دكتور بس انت ما فهمتنيش حالات إيه دي اللي بتكلم عليها "

نظرت باتجاه المرضى الجالسين خلف الكاونتر فوجدتهم منشغلين تمامًا في الحديث

– " عندكم يا (ثابت) فيه مرضى عندهم حالة غريبة.. فاكرين نفسهم جثث، أو بمعنى تاني هما فاكرين إنهم ماتوا وإنهم جثث دلوقت وفيهم اللي لا ياكل ولا يشرب لوحده وفيهم اللي بيتكلم، تعرف حد منهم "

نظر لعيني وهو يهرش أعلى رأسه:

– " لكن انت عرفت منين يا دكتور إن فيه حالات بالمواصفات دي هنا؟؟ "

– " أنا مش قلتلك إني باحضر دكتوراه في علم النفس، الأساتذة بتوعي في الجامعة هما اللي دلوني على هنا يا (ثابت).. بس شكلك بيقول إنك تعرف الحالات دي "

أخذ (ثابت) آخر نفس في السيجارة ثم أطفأها في كعب حذائه وابتسم لي:

– " كلك نظر يا دكتور "

– " ماتخافش يا (ثابت) أنا حسيبك من أول ما شوفتك وهاريحك على الآخر بس طمني انت الأول "

– " بص يا دكتور انت تخرج من المستشفى دلوقت وتقول اللي قاعدين هناك دول إنك هاتيجي للمدير بكرة وتجيلي الساعة ١١ ونص الليلة، أوعى تيجي قبل كده علشان دي الوردية بتاعتي، هاتلاقيني قاعد هناك على الكرسي ده، ولما تيجي أنا هاظبطك على الآخر، بس ماتستناش احنا بقى "

ابتسمت أنا أيضًا له وأنا أنهض لأستعد لمغادرة المصحة.

***

- " هاهاهاهاهاها مبروك يا (فضل) "
- " الله يبارك فيك يا (مصطفى) عقبال بنتك "
- "ما قلتلك نجوز العيال لبعضهم انت اللي تخنت دماغك "
- " القلب وما يريد يا شقيق "

شرب (عبد الحي) آخر جرعة من كوب الشربات وهو ينظر لابنته وهي تجلس بجانب عريسها والأغاني تختلط بأصوات الشباب الذي يهلل للعريس والفرحة تملأ المكان، أغمض عينيه بسرعة والألم يتزايد في صدره وشعوره بالغثيان يعاوده خاصة بعدما شرب من الشربات الذي يقدم في الفرح، ابتسم وفتح عينيه مقاوماً الشعور بالغثيان كي لا تلاحظ ابنته الوحيدة ألمه.. ما أجمل عين ابنته، تأملهما والأفكار السوداء تعاوده عن لحظات موته التي اقتربت، ربما كانت تلك هي آخر مرة يرى فيها عين ابنته، وربما ظل بضعة أيام ليتمكن من أن يودعها جيداً، ولكن الآن يجب أن تستمر فرحتها ولا يعرف باقتراب موته أحد.

نهض فجأة وهو يصفق بيديه محاولاً الاندماج مع الشباب وهو يغني مع الجميع.

(مقطع من الرواية الأصلية)

***

الفصل السادس عشر

الساعة الثامنة ليلاً

مقاعد الفراشة الحمراء يجلس عليها الرجال أمام المنزل ينتظرون خروج الجثة والبعض يسأل في داخله عن سبب عدم دفنها منذ ساعات، ولكن وكنوع من الأدب يجب عليهم السكوت والانتظار وخاصة وأنهم متأكدين أن (علي) سيدفن الليلة.

أما داخل المنزل ستجد أن الشقق في الثلاثة طوابق مفتوحة الأبواب وداخل كل شقة ينتظر المعزين لأن جيران (سيد) تطوعوا باستضافتهم لأن شقة (سيد) لن تسع بالتأكيد كل هذا العدد وخاصة النساء كي لا يختلطوا بالرجال، ولكن برغم كل تلك الشقق المفتوحة الأبواب ستجد بين الحين والآخر بعض الرجال يقفون على السلم لتدخين سيجارة.

في شقة (سيد) في الطابق الثالث يجلس بالداخل بعض الرجال فقط بجانب (سيد) وقد اتفق الجميع على عدم وجود النساء في نفس الشقة التي تحتوي على جثة (علي) كي لا تتأثر إحداهن وتطلق الصرخات والعويل.. في الصالة يجلس (سيد) صامتاً وأحد الرجال يتحدث مع من بجانبه بصوت عال.

- " صلاة العشاء هانزل نصليها كمان شوية ولازم نصلي على الجثة بعد العشاء على طول علشان المصلين اللي في المسجد يصلوا معانا، لو فاتت صلاة العشاء علينا تبقى خسارة كبيرة "

– " ماهو احنا مستنيين باقي قرايب (سيد) من البلد علشان يلحق يدفنه"

– " كده مش هايلحق واحنا قدمنا مشوار طويل للقرافة في القناطر وهايتعب أوي بالليل واحنا بندفن "

دخل الشقة فجأة رجل يرتدي بدلة سوداء وربطة عنق وهو يقول بلهفة أن الرجال وصلوا من البلد وهم وراءه على السلم الآن، العبارة جعلت من بالشقة ينهض استعدادًا لمصافحة الرجال ومن ثم نقل الجثة للمسجد للصلاة عليها.

***

تلفتت (داليا) حولها جيدًا وهي تنظر بحذر ثم تفتح هاتفها المحمول وتبحث بين الأرقام وهي تقول في نفسها أن تلك هي المرة الألف التي تتصل بهاتف (حاتم) وتجده مغلق.

لم يبق أمامها إلا صديق (حاتم) الحميم (علاء) الذي أخذت رقمه منذ أيام دخول (حاتم) للمستشفى، هي تعتقد أنها مازالت تحتفظ برقمه حتى الآن، ظلت تبحث بين الأرقام في هاتفها المحمول حتى وجدته فضغطت زر الاتصال وانتظرت حتى سمعت الجرس المنتظم:

– " ألو.. (علاء) معايا؟ "

– " أيوه يا أفندم مين معايا؟ "

– " أنا (داليا) يا (علاء) زميلتك في الكلية "

– " ياااه أخبارك إيه يا (داليا)؟ عاملة إيه؟ أكيد بتتصلي بيا علشان تشكريني "

– " اشكرك على إيه؟ "

– " على الدبلة بتاعتك، ألف مبروك يا... "

قاطعته (داليا) وهي تقول بسرعة:

– " ممكن تفهمني فيه إيه؟ "

– " الله !!! مش (حاتم) عندك من أول امبارح؟ "

– " عندي فين؟ احكيلي بالتفاصيل لو سمحت "

– " (حاتم) كلمني في التليفون يوم الأربعاء اللي فات وقال لي إنه عايز يعمل دبلتين مخصوص بشكل معين علشان أسماءكم تبقى بارزة عليها من برة وأنا قلتله سيبلي الموضوع وكلمت قريبي اللي عنده محل دهب والراجل في خلال تلات أيام بالظبط كان مخلص الدبلتين وجه (حاتم) من القاهرة وهو فرحان ويقول إن ربنا كرمه أوي وفيه ناشر قبل ينشر أول رواية ليه وإنه أخد مقدمة من الناشر ده، ودفع فلوس الدبل واخدهم وقال إنه نازل القاهرة تاني علشان يتابع حاجات قانونية مع الناشر وهايسافر بعديها على اسكندرية علشان يخطبك.. هو ما جاش لغاية دلوقت؟ "

دبلة منقوش عليها أسماءهم !!! إن (حاتم) يصر على تنفيذ ما في قصة (نصف ميت)...!!!!!!!!!!!!

***

يرفع الناس أصواتهم بالدعاء وهم يقفون قريبًا من القبر..

(هادي) يقوم بتسوية الأسمنت بعد أن أدخل هو والرجال جثة تلك الزوجة الصعيدية الشابة وفتى صغير لم يعد القامة يقف ممسكًا

يد والده ينظر للقبر الذي يحوي جثة والدته غير مصدق والكشافات البيضاء تتوجه ناحية (هادي) وهي ترسم له الظلال المضخمة على الأرض والعرق يتجمع على جبينه وهو يزيح بعض التراب عنه ويقف أمام القبر يقول بعض الأدعية وهو يرفع يده أمام عينيه..

هناك شعور ينتابك في بعض الأوقات بأن عليك أن تنظر باتجاه معين فجأة، انتابه هذا الشعور فنظر على يساره بعيدًا عن تجمع الرجال وهو مازال يرفع يديه ويقول الأدعية..

وسط الظلام (علي) يقف هناك ينظر إليه..

استمر فم (هادي) في ترديد الدعاء بطريقة آلية وهو مازال ينظر بعينيه لعلي الذي نظر له بثبات، لا تلك النظرة ليست طبيعية، إن (علي) ينظر إليه بنوع من الاتهام هذه المرة، نعم نوع من الاتهام وإلا لماذا رفع (علي) يده وأشار بها ناحية قبر السيدة التي انتهى (هادي) من دفنها للتو؟!!! (علي) ينبه (هادي) أنه يعرف أنه سيحتفل بمقابر الليلة مرة أخرى.

***

نار، نار تشب في ذراعه اليسرى أو بالتحديد مكان قطع ذراعه الأيسر، لقد عاد له الألم مرة ثانية ليستفيق من الغيبوبة وهو يحرك يده بحركة عشوائية خائفة.. هناك بعض الإدراك عاد له مرة ثانية وهو يرفع يده ويتحسس وجهه ويرتجف مما يشعر به.

لقد تغيرت ملامح وجهه تمامًا من تلك الزوائد التي تكونت في وجهه وهو بالطبع لا يعرف أنها تكونت من الحروق التي تعرض لها

وجهه، وحتى عينيه الخائفة التي شعر بأنها وتوقع أنها مصابة، لم يتوقع أنها تلفت للأبد من إحدى الشظايا التي اخترقتها.

صور مشوشة تعود لذاكرته عنه وهو يجلس في مقعد بحافلة تتجه إلى مكان ما، بجانبه شاب يبتسم وهو ينظر لعلبة حمراء ثم يختفي المشهد بسرعة لتتداخل بعد ذلك مشاهد كثيرة لأصوات صراخ وانفجار ونار وأصوات ثم ظلام تام.

يجب أن يصرخ.. أخذ نفسًا من فمه فشعر بألم في صدره ولكنه تحامل وحاول الصراخ فخرج صوت من حنجرته غريب.. إن عدم دخول مياه لجوفه مدة كبيرة كان له تأثير على صوته، ولكنه الآن لا يفكر في العطش بل يفكر في الخوف، إنه في المقبرة ينتظر مصيره أن يموت ولن يشعر به أحد، مد يده اليمنى السليمة وحاول الزحف بها ولكنه فشل، محاولة أخرى و.. وأظلمت الدنيا في عينيه.

***

شركة (t.m.devon) للنقل إحدى شركات

مجموعة (طاهر محمد مصطفى)

خطت العبارة السابقة على لافتة كبيرة علقت على سور كبير ضخم بأحد أحياء مصر الجديدة، السور ينتهي ببوابة حديدية ضخمة وقف عليها رجال الأمن ومن الداخل في الساحة توقفت عربات نقل وحافلات وبعض الأوناش مختلفة الأحجام.

من الداخل ثلاثة مباني كل مبنى منهم يتكون من طابقان إلا مبنى واحد يتكون من أربعة طوابق، وفي الطابق الرابع تقبع غرفة مكتب

مدير الشركة (طاهر مصطفى) الذي جلس في مكتبه أمام شاشة الحاسب الآلي ينظر له ويتحدث مع شخص يجلس أمام المكتب وهو يضحك ويشير للشاشة.

يأخذ نفسًا من سيجارته ويتكلم مع الرجل الجالس أمامه بخصوص شيئًا ما وهو يضحك بين الحين والآخر.

جرس هاتفه المحمول يرن فينظر بلا مبالاة على شاشة الهاتف ليعرف من المتصل.

ولكنه يهتم فجأة من تغير ملامح وجهه ويطلب من الرجل الجالس أمامه أن يغادر المكتب لدقائق، فينهض الرجل بتثاقل وهو يقول له:

- " أنا جايلك كمان شوية "

يغادر المكتب ويغلق بابه خلفه فيرد (طاهر) على الهاتف ويتحدث بصوت خافض، إنه (هادي) يخبره بأن هناك مفاجأة جديدة تنتظره الليلة عنده، ابتسم (طاهر) وهو يستمع لهادي الذي طلب منه الحضور كما كل ليلة في نفس الموعد..

ولكن (طاهر) أبلغه أنه سيكون عنده الليلة حوالي الساعة الثالثة صباحًا لانشغاله الليلة بعمل ما.

أغلق الهاتف وضغط على زر التكتافون المجاور له وهو يستدعي الرجل الذي هو في الحقيقة صديقه الشخصي ونائبه في مجموعة

الشركات، جاء الرجل وهو يبتسم وقبل أن يجلس على مقعده قال له وهو يغمز بعينيه:

- " شكل الموضوع فيه حريم الليلة "

أطلق (طاهر) ضحكة عالية وهو يومئ برأسه ويقول:

- " عندك حق يا أبو علي، فيه حريم الليلة، وشك حلو علي"

***

الفصل السابع عشر

الساعة الحادية عشر والنصف تمامًا

وصل المشيعون للمقابر متأخرين بعدما انتظروا باقي العائلة بعد الصلاة على الميت وسيارتهم تتوقف أمام منطقة المقابر، من داخل المقابر جاء ثلاثة رجال من العائلة يهرولون كانت مهمتهم هي انتظارهم عند المقابر وفتح القبر وتهويته قبل وصولهم بساعات وتنبيه عامل المقابر على وصول الجثة الليلة، الرجال يسيرون والكشافات الضخمة تنير لهم الطريق بين المقابر، تلك المقابر بنيت بنظام مخالف للمقابر الطبيعية حيث بنيت على شكل غرف فوق الأرض وليس تحت الأرض لأن الأرض في تلك المنطقة طينية وبمجرد حفر الأرض لمسافة تتعدى أقل من متر يقابلك الطين والمياه الجوفية تبدأ في الصعود .. لذلك قرر الأهالي منذ سنوات بناء مقابرهم على شكل غرف فوق الأرض ترص الجثث في كل غرفة بجانب بعضها مع وجود اللحد الذي يصففه التربي من الأحجار حول الميت بعد ما يحفر حفرة بسيطة جدًا لا تصل حتى لنصف متر، لم يبدأ الناس في بناء المقابر بهذا الشكل إلا بعد أن أخرجوا فتوى من الأزهر عن صلاحية دفن الجثة فوق مستوى سطح الأرض محاطة باللحد المصنوع من قوالب الطوب بسبب الأرض الطينية التي ستغرق التربة لو حفر بها .

توقف الرجال أمام قبر عائلة (سيد) وأنزلوا الخشبة بهدوء .. باب القبر الصغير المبني على ارتفاع متر عن الأرض والذي لا يزيد عرضه

عن متر وطوله عن متر أو يزيد قليلًا مفتوح، دخل التربي القبر ومعه الكشاف بعد أن قفز داخله بصعوبة وتبعه إليه أحد الرجال .

فجأة وقف عند باب القبر رجل من أقارب زوجة (سيد) له لحية خفيفة ويرتدي جلبابًا بني اللون، نظر له (سيد) وقد عرف أنه سيلقي موعظة ما عن الموت، الحقيقة أن (سيد) بدأ يستعيد عقله مرة أخرى ويتخيل ما سيحدث الآن .. بدأ الرجل يتكلم ويعظ الناس و(سيد) يفكر بسرعة وكأنه استعاد ملكة التفكير الآن فقط

– " يا أخواني نقف اليوم على قبر أخينا (علي) رحمه الله، نقف لندعو له بالمغفرة .. "

– " أمين "

نظر (سيد) إلى جثة ولده الملفوفة في الكفن الأبيض وهو يقول لنفسه

(هنا ترقد جثة ولدي)

– " ندعو له بالرحمة والعتق من النار "

– " أمين "

(سيدخل ولدي الآن للقبر، ولضعه في الحفرة التي يسمونها اللحد سنكشف وجهه وتسنده كي يبدأ الحساب)

– " اللهم خفف عليه ظلمة القبر "

– " أمين "

(سنترك ولدي في الظلام وحيدًا في القبر)

– " لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بقدر "

سقطت الدموع من عين سيد

– " اللهم ثبته عند الحساب "

– " آمين "

رفع (سيد) عينيه الدامعة إلى القبر .. فرأى الغربي يقف داخل (القبر) ينظر للجثة ويحمل الكشاف !!!! توقفت دموع (سيد) عن النزول وهو يتفرس في ملامح الغربي

– " اللهم بدد ظلمة القبر عليه "

– " آمين "

تلك العينان، تلك النظرة .. لقد رأى مثلها أمس، رأى مثلها أمس على وجه (هادي) .

– " اللهم ثبته عند السؤال في القبر "

– " آمين "

(هادي) الذي كان ينظر للجثث الثلاثة بنوع من الاشتهاء، هذا الغربي ينظر نفس النظرة لولده !!! نظر (سيد) لجثة ولده ثم نظر للغربي الشاب الذي يقف ناظرًا للجثة .

– " اللهم أبدله دارًا خيرًا من داره وأهلًا خير من أهله "

– " آمين "

اتسعت عين (سيد) وهو يقول بداخله

(هذا الرجل سيسرق جثة ولدي)

(سيسحب بعدما يغادرون القبر ليبيعها مثلما يفعل (هادي))

– " اللهم ادخله جنتك واعصمه من نارك "

– " آمين "

(لا لن يحدث هذا لن يحدث هذا لن يحدث هذا)

– " ادعوا لأخيكم (علي) بما يجول في صدوركم "

رفع الناس أكفهم وهم يدعون بصوت منخفض إلا (سيد) الذي توقف وهو ينظر للجثة طويلًا حتى أن أحد أقربائه لاحظ ذلك فحاول أن يقترب منه ويقلل انفعاله الذي بدأ يظهر على وجهه، انتهى الرجال من الدعاء واقترب رجلان من الجثة ليرفعاها

– " سيبوا (علي) مكانه "

قالها (سيد) بحدة يأمر الرجلان بأن يبتعدا عن الجثة، فهم الناس ما يحدث وقد توقع البعض أن ينهار (سيد) الآن ولكنه لم يعط فرصة لهم وذهب عند الجثة ونزل على ركبتيه والأيدي بدأت تمسك بملابسه لتمنعه وهو مازال يقول للجميع بصوت قوي

" ابعدوا عن (علي) "

رفع جثة ولده قليلًا وهو يحتضنه والرجال الآن يفصلونه برفق عن ولده والعبارات تنهال عليه بالصبر والهدوء وعن قضاء الله وهو يصيح ويصيح والدموع تنزل من عينيه حتى فجأة قال وهو يصيح بصوت جهوري:

- " التربي عايز يبيع جثة ابني زي ما بعت أنا الجثث امبارح "

توقف الناس فجأة ثم تعالت الاستغفارات وبدأت النظرات الغريبة توجه للتربي الشاب الذي أنكر بشدة و .. حاول الناس التكلم مع (سيد) الذي يحتضن جثة ولده ولكنه لا يجيب !!! نادى عليه الجميع ولكنه سكت فجأة ومال رأسه للأمام فأصبح هو جالسًا على ركبتيه ويحتضن ولده ورأسه على كتف ولده .. هزه الناس فسقط هو وولده .

تعالت الشهقات .. لقد مات (سيد) .

***

القبر مرة أخرى، مد يده اليمنى ليمسك بها أي شيء، ثم يزحف، تلك المرة استعاد جزء كبير من وعيه وشعوره بالألم، واستعاد أيضًا شعوره بالعطش والجوع الشديد وربما لأن شعوره الآن أقرب من الشعور الطبيعي عادت عزيمته تشتعل مرة أخرى ليحاول الخروج من هذا القبر بأي طريقة، تلك المرة زحف كثيرًا حتى اصطدمت يده بحائط، تلمس الحائط جيدًا ثم غير اتجاه زحفه لليمين أكثر .. دقائق يسرقها الزمن وهو يزحف أكثر باتجاه اليمين، يزحف أكثر وأكثر حتى اصطدمت يده بجلمس حجري مرة أخرى فتحسسه هو أيضًا محاولًا تخيل شكله .

درجة سلم، الحمد لله ولكن كيف يزحف ليصعد هذا السلم؟!!!! حاول أن يصرخ ولكن صوته خرج متحشرجًا ككل مرة حتى أن حنجرته آلمته فقرر ألا يصرخ بهذا الشكل الآن .

ذراعه اليسرى التي لا يشعر بها تعطيه شعورًا مرعبًا لأنه حاول استخدامها بطريقة لا إرادية حتى يستند عليها ولكنه تذكر عدم وجودها، لف ذراعه الأيمن تحت جسده ثم لف ركبتيه وهو يشعر باحتكاك جسده بالتراب ويشعر بجروح جسده التي لا يراها تلسعه الآن، ها هو استطاع أن ينصب جسده على ركبتيه ويده اليمنى تسنده قدم ركبته اليسرى للأمام ثم اليمنى ثم حرك يده ببطء لترتكز على أول درجات السلم ليبدأ الصعود الهادئ .

لماذا يشعر فجأة بألم في ذراعه اليسرى الآن و .. أتلك عينيه التي غرقه، لا يهم الألم يأتي من كل قطعة في وجهه وجسده فليس هناك وقت لتحديد اتجاه الألم الآن، درجة ثم الثانية ثم الثالثة ثم، ما هذا؟ صداع قوي يمسك رأسه بقبضة حديدية وأصوات كثيرة تتكلم، من شدة الألم رفع يده التي يرتكز عليها ليمسك رأسه فوقع على السلم لتصطدم رأسه بالدرجات مرة ثانية ويغيب عن الوعي .

***

فتحت (دعاء) عينيها في ظلام الغرفة وهي تشعر بنوع من ارتخاء الجسد بعدما نامت فترة لا تعلم مدتها ولكنها كانت كافية لتشعر بلذة الاسترخاء، ولكن من الواضح أنها مازالت في المساء، فجأة تذكرت شيئًا هامًا .. موضوع (حاتم) والرواية، قفزت من على فراشها بسرعة حتى أنها شعرت بدوار خفيف بسبب انخفاض ضغط الدم البسيط الذي يحدث نتيجة النهوض المفاجئ من وضع النوم .

تحسست طريقها في الظلام باتجاه باب غرفة النوم لتفتحه وتخرج للصالة المظلمة ولكن ضوء النافذة الذي يدخل ليسقط على الأثاث

بنير لها الطريق، حانت منها التفتت للنافذة فلمحت شخصًا يجلس بها فتوقعت بالطبع إنها (داليا) .

فتحت باب النافذة الزجاجي ورأت بالفعل (داليا) تجلس على مقعد خشبي تعطيها ظهرها لتنظر إلى الشارع، تنحنحت فلم تنظر لها (داليا)، اقتربت منها وهي تضع يدها على كتفها ولكنها لم تثار أيضًا !!!! نادتها باسمها فنظرت (داليا) هذه المرة لها .. أطلقت (دعاء) شهقة وهي تنظر لوجه شقيقتها الذي لوثته الدماء حول عينها اليسرى؟؟؟؟؟

قالت (داليا) بهدوء:

– " ماتخافيش ده مش دمي "

لم تشعر (دعاء) بنفسها إلا وهي تنحني وتضم شقيقتها لصدرها وكادت أن تبدأ بالبكاء لولا صوت شقيقتها تقول:

– " كملي قراية لنصف ميت "

– " إيه اللي حصل لعينك "

– " كملي قراية لنصف ميت "

– " فيها إيه الرواية تاني "

– " كملي قراية لنصف ميت "

نهضت (داليا) وشقيقتها مازلت تحتضنها وابتعدت (دعاء) برفق عنها وهي تربت عليها بحنان فنظرت (دعاء) في عين شقيقتها تتأمل بقعة الدماء المرتسمة حول العين على شكل دائرة .

– " دي آخر علامة يا (دعاء) "

– " يعني إيه؟ "

– " (حاتم) مات خلاص "

كانت تقولها بنوع من التقرير وملامح وجهها متجمد فقالت شقيقتها بحدة:

– " بتقولي إيه؟؟؟؟؟؟ "

– " اقري وانتي تعرفي إيه اللي حصل "

تركتها (دعاء) وخرجت تتحسس طريقها للصالة بحدة ثم تدخل غرفة النوم وتفتح الأضواء ثم تأخذ الرواية الموضوعة على الكومود بغضب وتفتحها على الصفحة التي توقفت عندها وتبدأ القراءة .

***

لم تصدق نفسها وهي تقرأ الورقة، تركتها جانبًا وأكملت بحثها في مكتب زوجها وهي بين الحين والآخر تنظر إلى صدرها ولبقعة الدماء التي تجمعت عليه، فجأة شعرت بدوار وبان....

(مقطع من الرواية الأصلية)

***

(مدافن عائلة أبو العين ١٩١١) تأمل (علي) اللافتة الرخامية المكتوب عليها تلك العبارة بعدم فهم، كان جالسًا أمام الحائط الذي يشقه ينظر له وسط الظلام .. مع عين اعتادت الظلام أصبح يرى جيدًا وخاصة ليلًا، كان ينظر للحائط ثم ينظر للأرض بخزي وهو يتذكر تفاصيل الليلة السابقة الذي دعاه فيها الرجل الطيب كما كان يقول إلى أن يذكر الله، نظر للحائط مرة أخرى ثم أخرج صوت من حنجرته كأنه يكلمها، صوت مبحوح، الغريبة أنه ظل يخرج هذا الصوت كأنه يكلم الحائط لدقائق ويشير بيده الصحة يمينًا ويسارًا حتى توقف فجأة وعينيه تتسع وثغره يبتسم ويسكت قليلًا وهو يتأمل الحائط طويلًا .

فجأة نهض وهو يبتسم للحائط ودموع تتساقط من عينيه وكأنه سمع خبرًا سعيدًا أو كأنه شعر بشيء أراح مشاعره، نظر للحائط نظرة أخيرة ثم غادر حوش الشيخ أبو العين وهو يبتسم .

الفصل الثامن عشر

دخلت المصحة النفسية ولكن هذه المرة بعد الساعة الحادية عشر والنصف كما قال لي (ثابت) الممرض الذي يعمل بالمصحة، تخطيت الباب المفتوح قليلاً في نفس الإضاءة الخافتة وأنا أتعجب من شيء لا أتذكره ولكنه أثار دهشتي جداً .. (ثابت) يجلس خلف الكاونتر مكان الرجلين السابقين فاتجهت إليه رأساً وأنا أصافحه وهو يقول لي بصوت خافض:

– " في ميعادك يا دكتور "

– " أنا قولت أجيلك الساعة ١٢ إلا ربع علشان تكون في الأمان "

– " الله ينور عليك يا دكتور "

أريد أن أضحك من ذلك التفخيم الذي يمارسه معي (ثابت) عندما يلقبني بدكتور برغم أنني نبهته أنني أحضر الدكتوراه ولم أحصل عليها بعد .. ذلك هو الذي يدرسه أشهر خبراء المبيعات في العالم عندما يعلمون رجل المبيعات استخدام الألقاب الشرفية أثناء اتمام الصفقات بطريقة معينة لرفع شأن العميل ولكن تستخدم الألقاب بطريقة محترفة كي لا يشعر العميل بأنه يخدع من قبل رجل المبيعات، قام من خلف الكاونتر وهو يدور حوله حتى أصبح أمامي وكنت أنا قد أخرجت النقود من جيبي وهو يغادر الكاونتر فبمجرد أن وقف أمامي مددت يدي أضعهم في يدي وهو يقول لي:

– " ما تخليني يا دكتور، والله أنا مرتاحلك لله في لله مش مسألة فلوس "

– " وأنا كمان مرتاحلك يا (ثابت) "

نظر (ثابت) حوله وهو يقول:

– " قولتلي بقى يا باشا عايز تزور أنهي مريض؟ "

– " يا (ثابت) انت عارف كويس انا اقصد أنهي حالات أنا عايز أشوفها "

سعل وهو يمسك صدره من قوة السعال ثم قال لي:

– " بس أنا خايف المرضى يعملوا مشاكل أو .. "

– " أنا حاقولهم أني دكتور ماتقلقش، ثم نوعية المرضى اللي أنا عايز أشوفها مش حاتعمل أي مشاكل "

– " انت قولتلي إنك عايز تشوف اللي عندهم فوبيا الموت "

توقف عقلي لحظة من الدهشة من لفظة فوبيا الموت لأنها أولاً ليس الاسم العلمي لوصف الخوف المرضي من الموت ثانياً أنا لم أقل تلك الكلمة فكيف عرفها، وكأنه شعر بما يدور في عقلي فابتسم وقال:

– " أنا خريج حقوق يا دكتور واشتغلت كتير مع الدكاترة وعارف أمراض كتير أوي، واقدر اصنفها كمان لو عايز "

ابتسمت رغماً عني وقلت له:

– " لا يا (ثابت) أنا قلتلك الصبح أنا عايز ألقي نوع من المرضى، أنا عايز المرضى اللي فاكرين نفسهم جثث .. معتقدين انهم أموات أو ماتوا في حوادث "

لماذا يراودني احساس أن (ثابت) يعرف من البداية عما أتكلم لكنه يلاوعني لسبب ما

– " تعالى ورايا "

قالها فجأة بدون تفاهم وهو يسير بخطى واسعة باتجاه السلم، فتبعته بسرعة قبل أن أفقده وأنا أقول داخلي تلك المصحة غريبة لأنني لم أشاهد مصحة بنيت بذلك الشكل وكأنها مستشفى عادية لاستقبال المرضى وبلا ساحة صغيرة أو حديقة خلفية !!! صعدنا طابق واحد فوجدت نفسي في ممر طويل مليء بالغرف على الجانبين والممر نفسه معتاه بإضاءة خافتة جدًا تكاد تتبين طريقك وأنت تسير .

– " فيه عنبر فيه طلبك يا دكتور ... (إلا أنا ما اتشرفتش باسم حضرتك "

قالها (ثابت) وهو يسير وأنا وراءه فرددت:

– " اسمي (خالد)، لكن ما قلتليش إيه حكاية العنبر ده "

– " العنبر ده فيه حالات بتتعالج من زمااااان وأنا ما اشتغلتش مع المرضى هناك لكن أعرف إن حالاتهم غريبة وفيه ناس جربت عليهم كل حاجة "

– " طب تعرف الأدوية اللي استخدموها أو اخدوا جلسات كهربية مثلًا "

– " مش عارف لكن سمعت إن اتجرب عليهم أدوية الاكتئاب، بس الجلسات الكهربية ما اظنش حد جربها عليهم أو أنا ما اعرفش يمكن اتجربت "

لحظة .. عنبر يحتوي على مرضى من نفس نوع المرض، استخدام عنبر ليجمع عدد من المرضى أمر صعب ولا يحدث إلا في المصحات الكبيرة التي تخضع لاشرافات طبية ومتابعة دقيقة أو بعض المصحات الضخمة جدًا والتي يمكنها متابعة تلك العنابر حتى لا يحدث اختلاط بين المرضى وأفكارهم فيزداد المرض تعقيدًا، كيف لتلك المصحة أن تجمع نفس الحالات في هذا العنبر المنفرد؟؟!!

– " انت شغال هنا من امتى يا (ثابت)؟ "

رد علي (ثابت) بدون أن ينظر لي وهو يجتاز الممر وأنا وراءه

– " من زمان أوي، من قبل ما المدير الحالي يمسكها "

دخل (ثابت) في ممر على اليمين فتبعته ثم ممر أيمن أيضًا، ثم أيسر ثم سرنا في ممر أطول من الممر السابق وهو يقول:

– " قربنا نوصل خلاص "

نظرت لساعة يدي فوجدتها الحادية عشر وخمسون دقيقة

– " ١٢ إلا عشرة يا دكتور "

قالها (ثابت) عندما لاحظ أني انظر لساعتي ولكن كيف لاحظ وهو ينظر أمامه؟

توقف فجأة عند غرفة بلا رقم !!!!! كدت ان اقول شيئًا ولكن صوت بسيط سمعناه ثم انقطعت الكهرباء .. فوجئت بالظلام ولم اخف فليس هناك وقت للخوف انا متسلل لتلك المستشفى ولكن صوت (ثابت) قطع حبل افكاري

– " اسمع يا دكتور انا نازل اشوف إيه الحكاية كده الممرضات والعمال والنبتشية هايتجمعوا تحت، عقبال ما ارجع الكهرباء تاني لازم تخش دلوقت العنبر علشان لو رجعت وحد كان هنا في الطرقة ما يشوفكش، وأنا لما هارجع الكهرباء هاجيلك العنبر تاني أشوفك عايز حاجة وإلا لا .. ماشي؟ "

لم يكن أمامي اختيار فلا أستطيع التراجع كي لا تعود الكهرباء فجأة ويراني من بالمصحة وتبدأ المشاكل ولا أستطيع الوقوف هنا حتى لا افاجأ أن يأتي من يسأل عن سبب وجودي أمام العنابر ليلًا

– " ماشي بس حاول ماتتأخرش عليا "

شعرت به يقبض على ملابسي ويجرني للأمام وصوت باب يفتح وأنا أشعر أنني أجتازه

– " ما تخافش "

كانت تلك آخر كلمات (ثابت) قبل أن أسمع باب الغرفة يتغلق من الخارج .

***

ظلام .. لم أخف يومًا من الظلام، عندما مات جدي الحبيب وأوصلته عند القبر ووضعت جثته داخل التراب لم أخف ظلام القبر، ولم أخف عليه من الظلمة لكن خفت عليه من الوحدة ومن عدم وجودي بجانبه مثلما تمنى، لماذا أخاف من الظلام وفيه أنام وفيه أفكر وفيه أتذكر، بل ربما شعرت براحة في الظلام عندما يكون باختياري، الشيء الوحيد الذي يؤرقني هو وحدتي في الظلام .

عندما أموت فلا يشعر بي أحد، عندما أمرض ولا أستطيع الحركة فلا يسمعني أحد، ولكن هنا في ذلك العنبر لم أكن وحيدًا، عندما دخلت وسمعت الباب يغلق علي تحسست بيدي الطريق وتمشيت للأمام حتى اصطدمت بشيء أصدر صوتًا معدنيًا عند الاصطدام به، تحسسته إنه مقعد .. تأكدت منه مرة أخيرة بيدي ثم جلست عليه .

تنحنحت فخرج صوتي عاليًا في الظلام:

– " السلام عليكم؟ "

قلت التحية وأنا انتظر ردًا وأنا اخاطر بأن يصاب المرضى بالفزع ويهللون لو شعروا بالخطر مني، لكن برغم كل شيء فسلوك هؤلاء بالذات لا يمكنني توقعه، مرت فترة طويلة جدًا من الممكن أن تكون دقيقة أو دقائق لكنها لا تزيد عن خمسة دقائق وسمعت صوتًا رفيعًا لشاب يقول:

– " انت مين؟ "

طريقة حديث الشاب جعلتني أعرف بسرعة أنه يعاني من إدمان على المخدرات أو انه مصاب بمرض ما في المخ يجعل طريقته في الكلام

تشبه طريقة كلام الشخص المعاطي للمخدرات، ولكن كيف يجلس شخصًا سواء أكان ملحدًا أو مصابًا بمرضٍ في المخ وسط هذا العنبر.

– " أنا عيان جديد "

كانت تلك الطريقة الوحيدة لكسر الحاجز الذي كنت سأصنعه لو قلت لهم أنني طبيب كما أوهمت (ثابت)، أعتقد أنهم سيتقبلوني قليلًا لو اعتقدوا أنني مريض مثلهم.

الصوت الرفيع: " مفيش هنا عيانين ولا تعبانين "

أنا: أمال فيه إيه هنا؟ "

الصوت الرفيع: " فيه هنا ميتين مقتولين، فيه هنا ناس مستنيين يوم القيامة "

يا الله كلماتهم تقبض القلب واقتناعهم الزائد بفكرة كونهم جثث رهيب

أنا: " يعني أنا ميت زيكم "

الصوت الرفيع: " أنا ماقولتش عليك ميت، انت ادرى بنفسك "

أنا: " هو فيه كام واحد في العنبر هنا؟ "

الصوت الرفيع: " عنبر إيه؟ دي تربة واحنا ميتين فيها "

ندمت أن الكهرباء مقطوعة ولن يمكنني تدوين ملاحظات هامة عنه وعن إجاباته

أنا: " انتوا كام واحد "

الصوت الرفيع: " كتير "

أنا: " أمال أنا مش سامع حد غيرك ليه؟ "

الصوت الرفيع: " الجثث حواليك يا ... "

أنا: " خالد، وانت اسمك إيه؟ "

الصوت الرفيع: " رفاعي "

قلت له بطريقة عادية:

– " انت ميت يا رفاعي من امتى؟ "

رد علي بنفس الطريقة العادية البسيطة:

– " من ٦ شهور "

فسألته بحذر:

– " ينفع أعرف انت مت ازاي؟ "

سكت (رفاعي) وأنا أفكر هل أكون الفحمه عندما ألقيت هذا السؤال الذي يظهر أنني تسرعت في ...

– " هاحكيلك كل حاجة، انت أول واحد يسمعني "

قالها (رفاعي) ليوقف استرسالي في التفكير ويجعلني استمع له بكل جوارحي.

وبصوت (رفاعي) الرفيع البطيء العبارات استمعت لما قاله:

***

الفصل التاسع عشر

حكاية رفاعي

أنا (محمد رفاعي) يدعوني الجميع برفاعي اختصارًا لاسمي، ولدت في حي الشرابية في منزل والدي (رفاعي الحوت) الذي كان فتوة كبير في الشرابية أو (قبضايا) كما كان يحب أن يطلق على نفسه، وليس كما سنعتقد انه فتوة يرتدي الجلباب ويمسك النبوت، لا بل كان أحد الفتوات الأقوياء بالشرابية في الأربعينات والخمسينات من القرن السابق حيث أن والدي المتوفى وهو في الستين من عمره عام ١٩٧٧ .

كان والدي عملاق الجثة يدخل المشاجرات حتى وهو في هذا السن ويضرب بكفه الضخم يمينًا ويسارًا فيقع من يقف أمامه بمجرد أن يتلقى ضربة واحدة من يده القوية، لم يحمل سلاحًا قط حيث أن من يدخل المشاجرات يجب أن يحمل سلاحًا يدافع به عن نفسه مثل العصا أو السكين أو السيف الصغير الذي نسميه نحن (سنجة)، لكن والدي كان يدخل تلك المشاجرات بقلب ميت لدرجة أن من يمسكون بتلك الأسلحة يتراجعون للخلف وكثيرًا ما يهربون من أمام قبضته المرعبة، يقولون انه تعلم القتال في الجيش المصري ـ أو الجهادية كما يطلق والدي عليه ـ عندما التحق به وظل هناك حتى رتبة شاويش وشارك في معركة العلمين ضد قوات المحور ويقولون أن والدي تعلم القتال بالأيدي العارية من خلال رفيق له في الجيش،

وظهرت ثمرة ما تعلم بعد رجوعه من الحرب وعمله عندما فتح ذلك المقهى وأصبح فتوة يحكم الكثير من حارات الشرابية بقوته، ولكن الشرابية كان لها أكثر من فتوة يحمولها بدون مقابل مادي ووالدي كان أحدهم لذلك كان هؤلاء الفتوات محبوبين وسط الشرابية وتذكر سيرهم بكل خير في المجالس .

لم أرث عن والدي قوة الجسد ولا القدرة على القتال بيدي العارية مثله عندما يضرب هذا ويرفع هذا في الهواء بيد واحدة ويرمي هذا ويكسر ذراع هذا .. لم أرث عنه إلا القلب الميت كما يقول الناس عني، قلبًا ميتًا جديرًا بولد (رفاعي الحوت) الوحيد بعد أن رزقه الله بالخلف في سنه الكبير هذا، المقهى يدر علي مبلغًا جيدًا كل شهر، وأنا لا اقرب النساء في الحرام ولا أشرب الخمور لأن كل هذا حرام، ربما بعض سجائر الحشيش التي أرى أنها ليست حرامًا لأن عقلي لا يلعب عني أو لو شعرت بأني أريد بعض المشاعر البسيطة التي تخرجني من أي حزن أتناول بعض الحبوب (ترامادول) هو أحسنهم عندي .. تزوجت في سن صغيرة حيث طلب مني والدي قبل موته منذ عشرين عامًا أن أعف نفسي وفعلت كما أمر وأنجبت ثلاثة أولاد .

تبدأ الحكاية منذ عام تقريبًا عندما جاء أحد الشباب الذي يعتقد نفسه أنه بمجرد أن أمسك سيجارة واشترى زجاجة (بيرة) فقد أصبح مؤهلًا لأن يكون بلطجيًا، في البداية جلس على المقهى عندي كأي زبون عادي وكثرت جلساته وكان يدفع الحساب بانتظام .

حتى جاء اليوم الذي اعتذر عن دفع الحساب للقهوجي الذي يعمل عندي، وقال له أن يزيد الحساب على النوتة والمرة القادمة يحاسب على مشروباته، جاء القهوجي بجانبي وأنا أجلس عند المكتب الصغير الذي اتخذته لنفسي بعيدًا عن الزبائن داخل المقهى بجانب مخزن الشيشة والشاي والسكر والقهوة، قال لي بصوت خافض عن هذا الشاب الذي يريد أن يفتح حساب له هنا، خرجت معه ونظرت للشاب الذي أشار له القهوجي وعرفته فورًا فقلت للقهوجي أن يفتح له حسابًا كما أراد، وإن كنت بذلك أختبر هذا الشاب، مر أسبوع جاء فيها الشاب الذي عرفت من كشف الحساب أن اسمه هو (وليد) جاء للمقهى أربعة مرات وكل مرة يطالب بإضافة مشروباته على حسابه القديم، حتى اليوم الذي سمعت فيه أحد عمال المقهى يتكلم مع شاب صغير السن وصوت الشاب الغاضب يعلو رويدًا رويدًا، تركت الشيشة من يدي وخرجت لصالة المقهى وأنا أسأل الشاب عن سبب حنقه وصوته الغاضب فقال لي الشاب أنه تعرض للسرقة بالإكراه في ذلك المقهى، صدمتني عبارته فهذه أول مرة أسمع فيها عن تلك الحادثة داخل المقهى.

– " جه واحد على القهوة أول امبارح وقال لي إنه عايزني في حاجة قومت معاه واخدني على الشارع اللي ورا القهوة وراح مطلع مطوة وأخد مني فلوسي بالعافية وقاللي لو اتكلمت هايقتلني بالمطوة دي "

قال الشاب هذا الكلام وأنا أغلي من الغضب حتى قلت له:

– " أخد منك كام؟ "

– " ٦٠ جنيه "

أخرجت من جيبي المبلغ وأعطيته للشاب الذي رفض في البداية ولكني حلفت أمامه أكثر من مرة حتى قبل بالمبلغ وأخذه وطلبت منه أن يخبرني عن شكل الذي فعل هذا .. فوصف لي وصف تفصيلي لوليد، كما توقعت من أول يوم عن هذا الحقير، طلبت منه أن يجلس في المقهى ولا يخف فأنا سأتعامل مع الموقف

مر يوم و(وليد) لم يأت للمقهى ولكن تكرر الموقف مع زبون آخر حكى نفس الحكاية تقريباً عن (وليد) بل وقال أن (وليد) عندما لم يجد معه مال كافي سبه وحذره من الجلوس على تلك القهوة لأنه سيقتله لو فعل ذلك، اليوم الثالث تكرر البلاغ وعرفت كيف يأتي (وليد) كل مرة ويسحب زبونًا من على القهوة بدون علم عمال المقهى، لقد قال الثلاثة الذين تعرضوا للسرقة على يده أنه أتى في الصباح الباكر عند الساعة العاشرة، أي أنه يأتي في الوقت الذي لا أتواجد فيه في المقهى وفي نفس الوقت لا يوجد في المقهى سوى عامل واحد لأن ضغط الزبائن يبدأ بعد صلاة الظهر .

اليوم التالي انتظرت في المقهى من الصباح الباكر وعيني على المقاعد المواجهه للشارع والتي يأتي إليها (وليد) ليأخذ الزبائن من عليها، وفعلًا أتى (وليد) بوجهه الأحمر وشعره الأكرت وشفاهه الغليظة، ابتسمت وأنا أقول أن تلك الملامح التي يعتقد أنها ستدب الرعب في قلب من يعارك معه لا تدل على قوته أو على قدرته على

الدخول في مشاجرة، فقمت وأنا أضغط على جيبي الأيمن وأتأكد من السكين الصغيرة التي احتفظ بها في جيب سروالي، كان (وليد) يتحدث مع رجل جالس يدخن الشيشة حتى فوجئ بخروجي من داخل المقهى.

– " بتعمل إيه يالا؟ "

قلتها بصوت عال فارتبك وهو يقول:

– " ما بعملش حاجة "

– " تعرف ياد لو شوفتك هنا تاني، أنا هاطلع عين أمك "

– " ماتقدرش، ولو راجل وريني نفسك يا ابن المرة الـ.. "

لم يكمل عبارته عندما وجد يدي تصفعه على وجهه للدرجة أنه ترنح للوراء من شدة الصفعة، فجأة أخرج مطواة من جيبه وفتحها وظل يلوح بها في الهواء وأنا قاربت على الضحك من مظهره الطفولي الذي يعني أنه لم يقتل أحدًا من قبل بتلك المطواة، رفعت قدمي في الهواء أضرب بها عضوه التناسلي كما كنت أرى والذي يفعل في المشاجرات حيث كان يرفع قدمه ليضرب بها قدم من يعارك معه أو يكسر له ركبتيه من ضربها في الاتجاه المعاكس، تأوه (وليد) وهو يتراجع بسرعة وفعل ما لم أتوقعه !! رفع المطواة من بعيد وقذفها علي فاخترقت المطواة فوق سرتي تمامًا، ولكن لم يدخل منها لبطني سوى اثنين سنتيمتر أو أقل.

لم أصدر صوتًا ولكني أخرجت المطواة ببطء وصوت خوار يتصاعد من فمي ولكنه خوارًا غاضبًا .. تصلب (وليد) في مكانه وهو

يراني أسير إليه وأنا ألوح بالمطواة بعيدًا وأخرج من جيبي سكيني الصغير ثم أمسك بملابسه بيدي اليسرى وباليد اليمنى التي تحمل السكين اشرح وجهه بها .. صوته وهو يتوجع يوقظ الشارع وأنا أكمل ما أفعله بسرعة حتى وضع هو يده على وجهي محاولًا إبعادي عنه ففعلت بيده ما فعلت بوجهه ثم نال جسده الكثير من الجروح وفي النهاية ألقيت السكين من يدي وأنا أكيل له اللكمات لوجهه الذي اختفت ملامحه من كثرة الدماء، فجأة وقع مغشيًا عليه على الأرض فتركته وأنا أضغط بيدي على الجرح في بطني ليقف النزيف ودخلت مقهاي غير عابئ بالشارع الذي التف حول (وليد) الملقى على الأرض ولا الرجال الذين حاولوا نجدته.

استندت على القهوجي كي يدخلني للداخل وهو يجري على الهاتف ليطلب الإسعاف ولكني أوقفته وأنا أعطي له الأمر بالذهاب للدكتور / بيشوي الذي يقطن بالعمارة المقابلة للمقهى وهو سيفعل اللازم، حمل الرجال (وليد) بعيدًا عن المقهى ذاهبين به إلى المستشفى أو إلى أهله لا أعلم المهم أن دكتور / بيشوي نزل جريًا بعد أن شرح له القهوجي المشكلة ومن حسن الحظ احتفاظه بخيط جروح أغلق به جرحي وأصر على إبلاغ الشرطة ولكن رفضي القاطع منعه من مناقشتي كثيرًا، قررت الذهاب للمنزل للراحة وبالفعل كنت في منزلي بعد نصف ساعة لأنام من الإجهاد ومن الدم الذي نزف مني، وبرغم أن زوجتي كادت تموت من المفاجأة عندما رأت الدماء إلا أنني استطعت أن انزع من قلبها الشك في أن هذا الولد الذي أذيته سينتقم مني، أنا واثق أنه بعد تلك العلقة لن يقرب المقهى ولا الشارع من الأساس .. نمت وزوجتي بجانبي تخفف عني ثم استيقظت على

صوت زوجتي تطلب مني تناول الطعام الذي أحضرته على صينية ليمكنني تناوله وأنا جالس بجانبي على الفراش .

تناولت الطعام وغبت مرة ثانية من الاجهاد ولكن تلك المرة استيقظت على يد قوية تهزني ففتحت عيني لأجد ثلاثة رجال يمسكون السكاكين الضخمة ويلوحون بها في وجهي وأحدهم يجذبني من ملابسي لأنهض وهو يشهر السكين بجانب رقبتي .

نظرت بسرعة للفراش في الظلام الذي يقطعه الضوء القادم من النافذة المفتوحة فوجدت آثار دماء؟؟!!! ثم جثة زوجتي مقتولة، بدأت المقاومة ولكن شيء ثقيل هبط على رأسي شعرت معه بألم وعدم وضوح في الرؤيا ثم لم أشعر بالدنيا بعدها و .... استيقظت في شقة غريبة وأنا مقيد إلى فراش وجرحي ينزف والألم يقطعه، من وسط الرجال الذين تراصوا حولي وجدت الكلب (وليد) يقف يضع ضمادات على وجهه ورقبته، عرفته من شفتيه الغليظتين وشعره الأكرت، تبينت بعد ذلك في يده سكينًا طويلًا مسنون يتحسسه هو بتلذذ ويقول:

– " بقى يا ابن الكلب تقولي امشي وما أجيش هنا تاني انت ما تعرفش أنا من عيلة مين من الشرابية، أنا من عيلة (سلامة) يا روح أمك، ودلوقت أنا مكتوب اني مقيم في المستشفى وقت ما مراتك اندبحت وانت اختفيت، يعني مفيش تهمة عليا، لأن طالما جثتك مش موجودة يبقى انت ما اللي قتلتها يا حلو ، ومراتك مدبوحة وانت مش موجود يبقى هالبسها انت لغاية ما يلاقوك .. دلوقت بقى أنا هاوريك مين فينا الراجل، أنا هاحرق قلب أمك عليك زي ما حرقت قلبك على مراتك "

انتهى من جملته واقترب من الفراش ثم رفع السكين عاليًا وانهال بها على رقبتي مرارًا وهو يفصلها عن جسدي وأنا اتحرك يمينًا ويسارًا حتى أمسك أحدهم بشعري كي يمكن لوليد أن يفصل رأسي جيدًا، بعد أن خلعوا رأسي من جسدي أخذ (وليد) يعبث في جسدي بالسكين محاولًا تشويهه ليخرج ذلك الغضب المتولد من ضربي له، الشقة التي ذهبوا بها هي شقة أحد أعمام (وليد) ومكانها بالدقي نقلوا جثتي بعدها حتى وصلت لتلك المقبرة، أعطوني للتربي الذي قبض منهم حسالة جنيه مقابل دفن جثتي في مكان أمين، عرض التربي جثتي على أكثر من زبون ليبيعها لكنهم رفضوا بسبب رأسي المفصولة عن جسدي وبسبب الجروح التي ملأت جسدي وأحشائي التي خرجت من معدتي بعد بقر بطني، ولذلك رماني التربي في ذلك القبر غصبًا عن ارادتي، وقيد حادث زوجتي ضد مجهول ومازلت الشكوك تحوم حولي أنا يبحثون عني أو عن جثتي ليثبتوا عدم تورطي في قتل زوجتي .

صوت (رفاعي) الرفيع كف عن الكلام فناديته باسمه لم يجب، كررت ندائي أكثر من مرة ولكن سمعت صوت جعلني أقف على قدمي من الدهشة، صوت رقيق لفتاة !!!!!!!!!!!!!

– " (رفاعي) مش هايرد عليك "

صوت فتاة؟؟؟؟؟؟ قلت بعد أن جلست مرة أخرى على مقعدي

– " انتي بنت؟ "

– " آه "

– " ازاي ليجي هنا عنبر الرجال؟؟؟؟ "

بالطبع بدأت الظنون تلعب برأسي عن وجود فتاة في عنبر الرجال ذلك لا يعني الكثير

– " انت فاكرني مرتاحة هنا .. "

– " !!!!!!!!!!!!!؟!!!!!!!!!!!!! "

– " أنا تعبانة أوي، تعبانة أوي "

– " اسمك ايه؟ "

– " مريم "

بلعت ريقي محاولًا اختيار كلماتي:

– " وايه اللي جابك وسط الرجالة يا (مريم)؟ "

تنهد الصوت الرقيق وقال:

– " أنا ما جيتش بمزاجي يا استاذ "

كادت الدهشة تجعل عيني تقفز من وجهي ولكني تحليت بالصبر وأنا أحاول استدراجها

– " (مريم) انتي تعبانة من إيه؟ "

أجابني الصوت الرقيق بعد تنهيدة حارة:

– " أنا بنت .. ميتة وسط رجالة، عايزني ارتاح ازاي "

هذا غير ممكن بأي مقياس، هناك شيء خاطئ ولو لم يكن هناك شئ خاطئ فبالتأكيد أنا المجنون هنا .

– " انتي مين اللي جابك هنا؟ "

– " التربي "

– " وليه جابك هنا "

– " عايز تعرف ليه؟ "

– " يمكن اساعدك تخرجي من هنا "

شعرت بصوت الفتاة يطير بحق وتضاف السعادة على نبراتها

– " بجد .. أنا هاحكيلك بس خرجني من هنا، أنا زعلانة "

الفصل العشرون

حكاية مريم

اسمي (مريم سامح سليم) سني ستة عشر عامًا، أنا أكره منزلي جدًا، هذا لو كنت أمتلك منزلًا من الأساس، ماهو المنزل في رأيك؟ أهو جدران وسقف وأرضية؟ أم غرف نوم ودورة مياه؟ أم أسرة دافئة؟!!! لو كان اختيارك الأخير فأنت في صفي وستفهم موقفي حتمًا، وستفهم لماذا أكره منزلي، أو للتحديد أكثر فأنا أكره أسرتي لأنني أعتبر أن المنزل هو الأسرة ليس أكثر أو أقل ولكن أهلي لم يوافقوني الرأي، أعيش بمنطقة في شبرا تسمى (المظلات) في أحد أحيائها أقطن مع أبي وأمي وشقيقتي وبقية أشقائي الرجال الثلاثة .. لم يمنع والدي عني شيء يتعلق بالطعام أو الملابس أو النقود، ولكنه منع عني كل الحريات .

فوالدي يمتلك مطبعة بأحد أحياء شبرا ودخله من المطبعة يجعلنا نعلو قليلًا عن الطبقة المتوسطة ولكننا لا نقترب بالطبع من طبقة الأغنياء، تحوي سفرتنا يوميًا على أنواع كثيرة من الطعام ونبدل ملابسنا كثيرًا ويحمل بعضنا حواسب آلية محمولة من باب المظاهر لا أكثر، ووالدي يعطي الجميع مصروفًا ليس قليلًا بل ويزيده إذا كرر طلب النقود وخاصة لي أنا وشقيقتي، فهو ينفق علينا بسخاء لغرض ما في نفسه، شقيقي الأكبر تخرج من كلية الهندسة وأصبح مهندسًا معماريًا وساعده والدي ليفتح له مكتبه الهندسي بمدينة نصر، شقيقي

الأصغر منه تخرج من التجارة ويعمل مع والدي في المطبعة ويعتبر هو عصا والدي التي يتكأ عليها في أعماله .

شقيقي الثالث ترك المدرسة الثانوية وصمم أن يعمل في التجارة والتي لا يعلم أحدنا ما نوع تلك التجارة التي تغيبه عن المنزل تلك الساعات ولا يعود إلا لينام فقط، حان الوقت لتعرف لماذا ينفق علينا والدي بذلك السخاء ولماذا يدللني أنا وشقيقتي في بعض الأحيان وما هو المقابل الذي يريده، في الغالب ستقول أنه يريد مصلحتي ويريد أن يراني بأحسن حال وهذا هو ما في عقله ولكن بطريقة أخرى .

يريد أن أدخل كلية الطب، وبالطبع شقيقتي الصغرى التي مازالت في المرحلة الاعدادية يجب أن لا تقل عن الطب أو الهندسة، ينفق علينا فيما يخص التعليم والدراسة والكتب بطريقة غريبة، هل تعرف أن داخل شقتنا مكتبة كبيرة تمتلئ بالكتب العلمية والموسوعات الأدبية والعلوم والفنون وتواريخ الحروب، كتب كبيرة لامعة الأغلفة كثيرة التكلفة، هو لم يقرأ كتابًا في حياته برغم عمله في طبع الكتب، وأشقائي لا يقرأون الكتب، إنما اشترى كل تلك الكتب لأنه اعتقد أنه بتلك الكتب سيجعل عقولنا أكثر تفتحًا ومداركنا أكثر علمًا وبالتالي سنصبح الأطباء أو المهندسين كما أراد، ولكن الحقيقة أنني أكره التعليم، ما المشكلة في تلك الفكرة، أشعر أنني اكتفيت من التعليم وأريد الاستقرار في المنزل، أريد أن ألقى بشريك حياتي الذي سأخدمه بكل الطرق وانتظره بعد عودته من عمله والغداء جاهز .. أخلع ثيابه وأحممه بنفسي وأناوله الطعام في فمه فلا يتعب هو يده بمشقة تناول الطعام، أعطيه كل الحنان الذي أدخره في قلبي ولا انتظر منه حتى كلمة شكر .

ستتهمني بالجنون يا استاذ ولكن كل الفتيات يتكلمن عن أهمية التعليم والمستقبل وأهمية الحفاظ على المساواة بين الزوج والزوجة والكثير من الكلام المحفوظ، ولكن الجميع نسي أو تناسى أنني من حقي أن اختار بكامل حريتي أن أكمل تعليمي أو لا أكمله وخاصة أنني وصلت لسن النضج الذي يمكنني من اختيار طريقي القادم لا أن يفرضه أحدهم علي، وحتى لو أخطأت فسأتحمل نتيجة خطأي لأني اخترت حريتي وتلك هي المشكلة الحرية .. والدي يضربني عندما يشتم في حديثي معه تلميح بأنني أكره المذاكرة أو أنني لا أريد دخول الجامعة وسأكتفي بالثانوية العامة، لا ليس ضربًا .. هل تتخيل فتاة يمسكها والدها من شعرها ويجرها وراءه على الأرض وهي تصرخ ثم ينهال عليها ضربًا بيده الخشنة من أثر التعامل مع ماكينات الطباعة، ثم يستهل الحفل بفاصل من الركلات التي تصيب جسدي ببراعة وكأنه يصوب على المناطق التي تؤلم ولا تؤذي، وتصل ذروة الحفل عند مقطوعة الصفعات التي يعزفها على وجهي وتكون في الغالب أسرع من أن يتحملها رجل طبيعي، لدرجة أنني حاولت مرة أن أحصي عدد الصفعات السريعة فما أحصيته منها كان اثنان وعشرون صفعة وأعتقد أن هناك صفعات لم أحصها، وينتهي الحفل البهيج غالبًا ببعض الضربات المركزة على الظهر أو لكمة خفيفة كنوع من الختام، كل ما سبق كان بدون استعمال أدوات كحزامه الجلدي أو حذائه ذو الكعب أو العصا أو الحبل الملفوف، وهذا الحفل من الممكن أن يقام ثلاثة مرات أسبوعيًا ولا يقيمه في الأجازات الرسمية وبعض الأعياد وفي نهار رمضان كي لا يفقد ثواب صومه علي.

هل تعرف لماذا يفعل كل هذا .. إليك الحقيقة، والدي كان فقيرًا منذ صغره ولم يكمل تعليمه فاضطر الى العمل في المطبعة منذ طفولته

التي لم يعشها، وبالتالي كما قال هو لي أحد المشاجرات مع والدتي أنه تمنى لو يتزوج امرأة متعلمة جامعية تربي أولاده بطريقة أفضل من تربية والدتي لنا، في البداية كان شقيقي الأكبر المهندس الذي كان يتلقى الضرب منذ صغره لو أهمل لحظة في عدم المذاكرة أو فكر لحظة أن يلعب مع زملائه أو يجلس ليشاهد التلفاز، وانتهت مشاكل شقيقي بمجرد تخرجه من الهندسة، ثم شقيقي الأوسط الذي تلقى نفس ما تلقاه من سبقه إلى أن دخل جامعة أقل من هندسة أو طب كما أراد والدي فلم يعره والدي اهتمامًا بعد ذلك وابتعد عنه تمامًا وبالتالي شقيقي الأصغر الذي ترك المدرسة فتركه والدي، ولم يبق غيرنا نحن انا وشقيقتي .. كلنا نحن نمر بأصعب مما مر به جميع من سبقنا لأنه وضع أمله في تلك المرة، يتكلم دائمًا عن العريس الذي لن يقبل به لبناته إلا لو دفع كذا وكذا وكان طبيبًا كبيرًا او مهندسًا أو صاحب شركة ضخمة او ... او .. او ... ويتكلم عن الفرح الذي سينفق عليه عشرات الآلاف وعن جهازنا الذي سيكلفه من المال ما لم ينفقه أب على بناته من قبل، هل تريد الحقيقة يا استاذ .. والدي يشعر بعقدة نقص رهيبة تجعله يريد أن يرانا نحن نأكل وندرس ونرتدي ما لم يناله هو في حياته، نصبح أطباءًا لأنه فشل في ذلك، نقرأ الكتب الضخمة المكتوبة بلغات أجنبية لأنه تمنى أن يفعل ذلك، نتزوج زيجات ناجحة ونقيم فرحًا أسطوريًا لأنه تزوج فتاة ريفية طيبة غير متعلمة ولم يقم فرحًا كما كان يحلم لأنه لم يكن يمتلك مالًا في صغره، وأنا لن أتحمل كل هذا، لن أتحمله .. انا أبحث عن .. عن رجل بمعنى الكلمة

.. صفاته .. للحق لم أفكر فيها كثيرًا ولكني تعرفت عليه بمجرد رؤيته ..

كنت أغادر مدرستي وأنا أسير وحيدة أفكر بالمشاكل التي ستقابلني لو علم والدي أن مدرس التاريخ سيشكوه مني غدًا عندما يحدثه على الهاتف، كنت أفكر حين وقفت أمام المكان الذي سيأتي فيه الميكروباص لاستقله وأنزل أمام شارع منزلي، طويل وسيم طيب الملامح يرتدي نظارة طبية بدون اطار جعلته أكثر وسامة وأكثر رجولة ورزانة، اقترب مني هذا الشاب وسألني بابتسامة عذبة عن أحد الشوارع القريبة .. ارتبكت وأنا مازلت أنظر إليه بدون أن انطق فكرر السؤال وابتسامته تزداد، أنا في الغالب لا أتحدث مع أي شاب أو ولد وأتجنب حديثهم فأنا أعرف أنهم يتسابقون على الفوز بالفتاة ذات الزي المدرسي لينالوا منها قبلة أو لمسة وفي النهاية يتفلون لغيرها، ولذلك أتجنب الحديث معهم كي لا أظهر من النوع السهل مثل الباقي، لكن هذا الشاب كان يجب أن اجيبه، نعم يجب أن أتكلم معه

– " آخر الشارع ده هاتلاقي ميكانيكي تكسر يمين في يمين وتلف حوالين بيت قديم مكتوب عليه ثنا.... "

توقفت عن شرح بقية الطريق وأنا أرى في عينيه نظرة عدم الفهم المختلطة بالخجل فعرضت عليه أن يسير معي حتى نهاية الشارع وسأصف له الطريق من هناك لاسهل عليه، لا أعرف كيف عرضت هذا العرض وقد ظهر الندم على وجهي وأنا اقول داخلي أنه سيعتقد أنني فتاة لعوب و ... ولكنه وافق مع عبارة بسيطة يرجو أن لا يعطلني .. ابتسمت وسرنا والجميل أنه كان صامتًا طوال الطريق وكأنه يخجل من التحدث معي، بالله هذا هو الرجل الذي أردته، لم

يحاول أن يستغل وجود فتاة تسير بجانبه ويفتح معها حوارًا لكي يتودد إليها، كنت سأموت وأحدثه حتى جاءت لي فكرة أن أسأله عن المكان الذي يريد الوصول إليه بالتحديد فأجابني بخجل ثم سكت قليلًا وسألني إن كنت أسكن قريبًا من هنا فأجبته بصدق بمكان منزلي وسألته عن منزله فأجابني وهكذا وجدت نفسي أسير بجواره يسألني بخجل وأسأله بخجل ونحن نبطئ في خطواتنا كي لا نصل لآخر الشارع، وحتى بعد أن وصلنا إليه أكملنا الطريق، هل تعرف كم من الوقت ظللنا نسير؟ نصف ساعة بدون أن نشعر حتى عدنا مرة أخرى إلى المكان الذي سأستقل منه الميكروباص إلى منزلي، أنا لست فتاة لعوب والله ولكني شعرت تجاه هذا الرجل بشعور مختلف، كأنني أريد أن استأمنه على أسراري وحياتي ونفسي، يمكنك أن تتخيل أننا تبادلنا أرقام هواتفنا المحمولة بعد أن حكى لي عن عمله وطموحه وحياته وحكيت أنا بدوري عن معظم حياتي بصدق وكأنني لم أحك لشخص من قبل .

هو يعمل مهندسًا متخصصًا في الشبكات بشركة اتصالات مشهورة ويبلغ من العمر خمس وعشرون عامًا، اسمه (عبد الله) اسمه جميل مريح به نبرة من السكينة تنزل على قلبي عندما انطق اسمه، والآن تطور الموضوع بسرعة لدرجة أننا لمدة اسبوعان لم تفوت ليلة واحدة لم نتحدث فيها لساعات .. كان دائمًا ما يتصل هو بي ويظل يتحدث ويسألني عن حياتي وأحلامي وطموحي وأنا أجيبه بسعادة وأنتعش من لهفته علي وأنا الذي اعتقدت أنني أنا التي أتلهف عليه وليس هو، يمكنني أيضًا أن ألاحظ أنه ميسور الحال وهو يحدثني كل ليلة بالساعات من هاتفه الشخصي بدون أن يسمح لي أن أهاتفه أنا، يا له من شاب مؤدب متدين لا يفوت فرض صلاة ويسألني كل يوم

عن صلاتي هل أديتها أم لا وينصحني بطريقة مهذبة رقيقة لا تجرحني، هذا غير أنه طوال الأسبوعان ابتعد تمامًا عن الحديث عن أي ما يخدش الحياء في كلماته ..!!! هذا هو الرجل الذي أردته يا أستاذ صدقني .

للدرجة أنه طلب مني ألا أخبر أي من صديقاتي عنه كي لا ينظرن لي على أنني فتاة سيئة السمعة تصادق الشباب وتحدثهم في هاتفيهم ليلًا وأن انتظر حتى .. حتى يأتي لمنزلي ليتقدم لخطبتي.

كدت أقفز من الفرحة وأنا أسمعه يقول أنه سيأتي لمنزلي بعد شهر على الأكثر ليتقدم لخطبتي، ستبدأ السعادة من الآن وسأغادر هذا البيت الكئيب وأكون في كنف رجل آخر يحميني من بطش والدي لي ويعطيني حرية اختياري والتي سأختاره لها بالتأكيد لأنه أعطاني تلك الحرية، عندما خرجت من مدرستي ذلك اليوم وجدت اسمه على هاتفي المحمول يتصل بي، ابتسمت ورددت عليه فسمعته يقول لي يجب أن أسير في الشارع الجانبي الموازي لشارع مدرستي، فلما سألته قال لي أن هناك مفاجأة تنتظرني، يتحدث معي على الهاتف وأنا أسير بعد أن تركت زميلاتي بحجة أنني سأشتري شيئًا وأعود لهم مرة أخرى، سرت في الشارع حتى وجدته أمامي يحمل علبة هدايا حمراء كبيرة وعليها وردة حمراء، ابتسمت وأنا أقترب منه وهو يغلق هاتفه ثم يتناول الوردة ويعطيها لي ..

أخذتها وأنا أشتم رائحتها بنشوة، تلك الرائحة الدافئة لأنها من يد حبيبي (عبد الله)، أعطاني الهدية الكبيرة وطلب مني أن أفتحها، ففتحتها فوجدت دمية كبيرة على شكل قطة جميلة، فرحت بها جدًا وزادت

فرحتي بعد أن طلب مني أن أسير بجانبه في هذا الشارع قليلًا ليتحدث معي لدقائق قبل أن أعود لمنزلي .

سرت بجانبه حتى نهاية الشارع نتكلم وأنا أشعر بنعاس بسيط يثقل جفوني، اتخذنا منعطفًا جانبيًا مليء بالأشجار الجميلة وسرنا قليلًا حتى سمع (عبد الله) هاتفه المحمول يرن استأذن مني يجعل لي دقيقة يتحدث فيها على الهاتف، أقاوم النعاس و(عبد الله) يبتعد عني وهو يتحدث على الهاتف بانفعال .. النعااااااس، أريد أن أنام يا (عبد الله)، لماذا تبتعد هكذا؟! لماذا تدور الدنيا بي .. صوت من خلفي أعتقد أنه باب سيارة يفتح !!! حاولت النظر خلفي بدون أن أقع بسبب الدوار ولكن يد رجل وضعت على فمي ويد أخرى طوقتني وسحبتني لمكان ما أعتقد أنه سيارة، حاولت الصراخ ولكن شعور بالنعاس جعل لساني ثقيل جدًا حتى شممت رائحة تشبه رائحة الوردة الجميلة التي أهداني إياها حبيب قلبي، ولكن الرائحة أقوى تلك المرة و .... لم أشعر بشيء، استيقظت وعصابة على عيني تجعلني أسمع ولا أرى، أشتم رائحة منفرة كنت أشمها وأنا أزور خالتي في المستشفى منذ ثلاثة أعوام، ربما هي مطهرات طبية أو أدوية، أصوات كثير تتكلم، حاولت النهوض ولكني لا أشعر بجسدي !!! ثم عدت إلى النوم فجأة واستيقظت مرة أخرى وأنا أسمع هذه المرة حوارًا ميزت فيه صوت (عبد الله) ورجالًا آخرين .. لا أصدق ما أسمع، (عبد الله) يعمل في بيع الأعضاء البشرية؟؟؟؟؟؟؟ يتحدث عن جسدي وعن القرنية التي سيستخرجوها مني الليلة ليبيعوها؟!!!!

أحاول النهوض مجددًا فلا أشعر بجسدي .. (عبد الله) لم يحبني ولم يكن يحدثني إلا لاستدراجي، الوردة .. الرائحة الجميلة منها .. صوت السيارة .. ابتعاده عني وهم يأخذوني كي ينفي أي شبهه عنه لو رآه

أجمعهم، غبت عن الوعي تماما، ظللت في تلك الحالة إلا أن مررت بثلاثة عمليات لاستئصال أجزاء من جسدي، أشعر بهم ينتزعوا عيني وكبدي وشيء آخر يؤلمني وفي العملية الرابعة وأثناء تخديري شعرت براحة كبيرة، لقد مت وحان وقت دفني بعد أن أخذوا بعض الأشياء من جسدي كقطع غيار احتياطية وتركوا جسدي خاليا، مستشفى (جولدن بادي) لجراحات اليوم الواحد بمدينة نصر، هكذا ينطقون الاسم، هذا هو المكان الذي أخذوا فيه أجزاء جسدي، و(عبد الله) اسمه الحقيقي (محمد صابر محمد) وعمله الحقيقي مدرس ثانوي بمدرسة بالجيزة ويعمل مع مدير المستشفى في اجتذاب الفتيات وخطفهم لسرقة أعضاءهن، وفي ليلة باردة نقلوني إلى تلك المقابر البعيدة ودفعوا لذلك النجس الذي يعمل تربي مبلغ من المال ليخفي تلك الجثة كبقية الجثث التي يخفيها، وكان نصيبي تلك المقبرة والتي لم يراع حق حرمة دفني مع رجال.

***

التفت (مريم) من كلامها فقلت لها بسرعة:

– " انتي هنا من امتى يا (مريم)؟ "

– " من سنة ونص، بابا وحشني أوي، ماما وحشتني أوي، كنت عايزة اتجوز، كنت عايزة اخلف، حرموني من كل ده "

هؤلاء المرضى يمتلكون عقلًا منظمًا يشبه عقل مريض جنون العظمة أو لأنهم .. لحظة مرة أخرى كيف تأتي فتاة لتجلس في عنبر كهذا في المستشفى؟؟؟؟؟؟؟؟ عنبر للرجال؟؟!!!!! ناديت على (مريم

) ولكني لم اسمع صوتها، قدرت أنها ستصمت الآن ولكن صوت نبت الدماء في عروقي دوى في الظلام .. صوت أطفال تبكي !!!!!!

– " تقدر تقول يا استاذ انت مين؟ "

صوت رجل عجوز أو على الأقل تعدى حاجز الخمسين قال العبارة السابقة، مازال صوت الأطفال يبكي في الظلام

– " أنا مريض جديد معاكم "

ضحك الصوت العجوز فقلت له:

– " انت مين ومين الأطفال اللي بتعيط دي؟ "

صمت طويل داخل الظلام قطعه الصوت العجوز ثانية:

– " أنا راجل فقير على باب الله دخلوني هنا من باب الشفقة مش أكتر، أخدوا فيا ثواب ودخلوني هنا .. أنا ميت من زمان أوي من سنين طويلة، أنا أول واحد جيت المكان ده، والكل نسيني، أتفرجت على الناس اللي دخلت وخرجت من هنا "

– " ومين الأطفال دول؟ "

– " دول حكايتهم بسيطة أوي "

الفصل الواحد والعشرون

حكاية الأطفال

قال الصوت العجوز:

منذ سنتين جاء رجل للتربي الذي أدخلنا كلنا هنا ، وهو يحمل شيئًا صغيرًا ملفوفًا في قطعة قماش وموضوع في كيس بلاستيك .. هل تريد أن تعرف من أتى بالشيء الملفوف بالقماش الأبيض؟ إنه تمرض في عيادة طبيب نساء خاصة، طبيب تخصص في إجهاض النساء اللاتي تكون الجنين داخل أرحامهن، وبالتالي فهم الآن جثث، يخرج الطفل الوديع من جسد أمه العاهرة القاتلة، ثم يعطيه لممرضه ليلعب به إلى هذا التربي .

هناك ما يشبه العقد بين الممرض والتربي، عقد قديم جدًا، عقد مصالح لتوريد الجثث، يأتيه بجثث أطفال وجثث كبار وكل شيء بحسابه، ولكن يا استاذ أحدثك الآن عن جثث الأطفال الصغيرة التي تأتي هنا في بعض الأحيان بحجم قبضة اليد .

الأطفال اللذين لا يعلمون لهم ذنب في الحياة سوى أن هناك أم وأب لا يريدون وجودهم، أو لنقل لهم وقت الجد غير راغبين فيهم كأنهم اشتروا علبة جبنة من السوبر ماركت ثم أصبحوا غير راغبين في الجبنة فتخلصوا منها في صندوق القمامة، داخل هذا المكان ما يزيد عن ثلاثون طفلًا دخلوا إليه بغير ارادتهم ودفنوا هنا بغير ارادتهم، ينتظرون يوم القيامة ليأخذوا حقوقهم منه ولو أردت أن تتأكد من

صدقي فزر ٢٣ ب شارع محمود علم مصر الجديدة، د / سامح حسان اخصائي نساء وتوليد.

***

فجأة توقف الصوت العجوز عن الحديث وإكمال القصة؟!! تعلمت ألا أنادي على أحد ولكن صوتًا ما تحدث معي بطريقة مريبة، صوت شاب.

الصوت الشاب: " خالد، أهلًا بيك معانا "

جاء الصوت من على يساري تمامًا وكأن صاحبه يجلس بجالي الآن، ولكن بلا خوف أجبته:

ـ " أهلًا بيك انت، انت عرفت اسمي منين؟ "

ـ " أنا عارفك كويس "

ـ " اسمك إيه؟ "

جاء الصوت في الظلام يقول

ـ " (حاتم) وسيبني احكيلك حكايتي "

الفصل الثاني والعشرون

حكاية المؤلف

أنا (حاتم)، لن أتكلم عن تفاصيل حياتي سوى أنني سببت الكثير من الدهشة لمن حولي، الدهشة ثم الاستنكار ثم الرعب ثم الرضا بالأمر الواقع، هذا هو حال والداي بعد أن اكتشفا ما أنا عليه في الطفولة، عند غضبي يشعر جميع من بالغرفة بالألم أما عند شعوري بالنعاس يشعر أقرب الأشخاص لي بنفس الشعور بالنعاس، وصلت سن الخامسة ووالداي يخفون عن الجميع ما يحدث معهم، أجوع فيجوع أقربهم لي، أخاف من شيء بسيط كما يخاف أي طفل آخر فيشعر أقربهم لي بالخوف بلا سبب

في ليلة ما كانت والدتي تضع العشاء لنا أنا ووالدي على المنضدة وفزعت هي حيث وجدت طبق الأرز الذي وضعته أمامي أصبح أمام والدي، بالطبع والدي تسمر من الرعب .. وأنا أكمل ما أفعل وأطباق المائدة تبدل أماكنها وتتحرك على المنضدة حركة مهزوزة.

كنت أفعل ذلك لأحصل على اعجاب والداي معتقدًا أن ما أفعله هو حالة طبيعية يفعلها جميع الناس وأنني يجب أن أصل لها، ولكن والداي كان لهما رأيًا آخر، تحدثا معي تلك الليلة وهم يطلبون مني أن أريهم ما أستطيع فعله .. أعتقد أن الفزع الذي ارتسم على وجوههم كان تعبير غريب علي أو على أقل تقدير لم أتوقعه من والداي عندما يراني أحرك أقلامي الرصاص وأكسرها من على بعد خمسة أمتار.

حاول والدي أن يتمالك أعصابه ولكن والدتي ابتعدت عند ركن الغرفة وهي تشاهدني وأنا أمسك القط الصغير الأسود الذي أحضره أبي منذ عام وأضعه أمامي وأنظر له بابتسامة طفولية فيتثاءب القط ثم ينام على الفور، سألني والدي وهو يحاول الاحتفاظ برباطة جأشه عن كيفية جعلي القط ينام هكذا فقلت له ببراءة أنني لاحظت أن عمو (محمد) وطنط (سامية) يفعلان مثلما أفعل والكثير من أقرباننا حتى انتم تفعلون مثلما أشعر تمامًا فعندما أريد تناول الطعام وقبل أن أنطق ينطق من يجلس بجانبي أنه جوعان ومثل ذلك في النوم والحزن والشبع والغضب وكل ما أشعر به، فقلت في نفسي لما لا أجرب أن أتخيل أنني أشعر بشعور معين وأرى التأثير على من حولي، ونجح الموضوع فأصبحت أتخيل أي أفكار وأجد من بجانبي ينفذ ما أفكر فيه تمامًا، ثم انتهيت من إجابة سؤال والدي وسألته أنا بدوري ببراءة ودهشة أليس الجميع يستطيع فعل ذلك ..؟

لن أنس تلك النظرة وهو ينظر إلى والدتي المذعورة أولًا ثم ينظر لي بابتسامه ويقول أن الذي أملكه لا يملكه غيري وأنه يجب علي الحفاظ على سرية ما أملك كي لا يغضب مني هو وأمي ومنذ هذا اليوم بدأت رحلات العلاج السرية لبعض الشيوخ لقراءة القرآن على رأسي اعتقادًا منهم أنني مصاب بمس من الجان أو ليس من العفاريت، واستمرت المحاولات الفاشلة لمحاولة اكتشاف ما يحدث لي حتى سن العاشرة الذي ظهر فيه علي أعراض مرض الصرع والنوبة الحادة التي أخافت من حولي فذهبوا بي للشيوخ مجددًا حتى وصلنا إلى شيخ المسجد القريب من بيتنا ولكنه نهرهم لتركي كل تلك المدة بدون استشارة طبيب عن حالات التشنج الغريبة تلك وأمرهم

بالذهاب إلى الطبيب بسرعة . وعند د / أمجد فوزي جراح المخ والأعصاب الذي تبنى حالتي وطمأن أهلي على، عائلة والدي بالطبع لا تعرف موضوع أن الأشياء تتحرك من حولي وأنني أزرع أحاسيس في العقول، وفوجئ الجميع بتحرك الأشياء حولي أثناء نوبات الصرع مما جعل والداي يحتلون ملامح الدهشة أمام عائلتي كأنهم أول مرة يشاهدون ما يحدث . وتابعت العائلة حالة الصرع الغريبة التي تنتابني وتتحرك من حولي الأشياء وحاول البعض مساعدة والدي بدله على أسماء شيوخ أو قساوسة حتى .

ولكن د / أمجد ألغى الموضوع عندما صارحناه بكل شيء وأريته الأشياء التي يمكنني فعلها في حالتي الطبيعية وخاصة بعد أن تحول زرع الأحاسيس في العقول إلى زرع ذكريات غير موجودة في العقول .. قال أنه قابل أكثر من حالة خارج مصر مصابة بنشاط كهربي غير طبيعي في المخ يمكنها فعل العجائب برغم أنه لم ير حالة زرع ذكريات مزيفة مثلي في العقول ولكنه رأى حالات يمكنها تحريك المواد الصلبة أو تحريك الماء وحالة يمكنها التحكم في الأدخنة الناتجة عن الحرائق .

لكنه لم يعلم أن الذكريات التي أزرعها في العقول تخلو بالأخطاء والتي من الممكن أن يكتشفها الشخص الذي يفحص ذكرياته . تلك الأخطاء علمت أنها اهتزازات في طول الموج الكهربي الذي يصدر من مخي لمخ الشخص الذي أؤثر عليه وتلك الاهتزازات يظهر بها أخطاء بسيطة داخل الذكريات وتفقد بعض واقعيتها .

***

تنتشر تلك الحكاية في الجامعة ثم تظهر حكاية ثانية وثالثة ورابعة وتسمع من يقول أن فتاة تحكي عن (حاتم) بأنها شاهدته عندما كانا بالفرقة الأولى (السنة الأولى) بالكلية أثناء إحدى المحاضرات ينهض من المدرجات ويتجه إلى الدكتور الذي يشرح المحاضرة ثم يأخذ القلم الموضوع أمامه على المنضدة ويعود لمكانه مرة أخرى ليكتب بالقلم بضعة أشياء ثم يعيد القلم أمام منضدة الدكتور بدون أن يعترض الدكتور أو يتكلم أو ينظر له أحد الطلاب، هي الوحيدة التي رأته، بالتأكيد الجان هم الذين يمكنهم فعل هذا .

***

خفت نوبات الصرع وتعامل معي الجميع طبيعيًا وتعاهدت أنا ووالداي أن نحتفظ بسر الإمكانات النفسية التي يمكنني فعلها داخل أسرتنا كي لا أتعرض لمشاكل من حولي، دخلت الجامعة ونزحت إلى القاهرة وهناك تعرفت على فتاة أحببتها وتعاهدنا على الزواج، ولأنني أعشق كتابة الروايات فقد عرضت أعمالي على دور النشر التي رفضت جميعها قصصي، ولكن في آخر عام لي في الجامعة اتخذت قرارًا أن أنجح في عالم الكتابة والنشر أولى رواياتي، ونسقت في عقلي قصة جديدة، رواية ضخمة سميتها (نصف ميت) وضعت فيها شخصيتي وأفكاري الحقيقية وأحلامي وأسراري، وبدأت العمل عليها بكل ما ملكت من أفكار وجعلتها تحقق الخاصة وقبل الانتهاء منها عادت النوبات الصرعية بسبب الضغط العصبي الجديد، فاضطررت إلى إخبار فتاتي بموضوع تحريك الأشياء أثناء نوبات الصرع لأن الجميع

شاهد ما حدث أثناء نوبة الصرع التي حدثت لي في غرفتي بالمدينة الجامعية .

المهم انتهت الرواية وأصبحت جاهزة للعرض على دور النشر، بدأت بعرض نسخ منها وتلقيت الكثير من الرفض أيضًا بسبب ضخامتها ودمويتها ولأنها تدور في أدب التشويق والإثارة، انتهت امتحانات آخر عام في الجامعة وعادت حبيبتي إلى الإسكندرية بلدتها الأصلية تنتظر مني أي خطوة للتقدم لأهلها للخطوبة، وأنا مازلت أنتظر في القاهرة موافقة إحدى دور النشر على الرواية، تعددت زياراتي لهم حتى أنني كنت سأفقد الأمل مرة أخرى في قبول الرواية، حتى .. وافق هذا الناشر المغمور على الرواية .. كان شابًا لم يغادر العشرينات بعد، شاعر قديم قرر إنشاء دار نشر بفكر جديد، نشر مجموعة كتب حققت نجاحًا ليس بالقليل، تعرفت عليه عن طريق صديق لي حضر ندوة شعرية وقال بأنه سمع بهذا الناشر، قابلته وعرضت روايتي عليه .. وظل يناقشني بها مدة طويلة حتى أنني اعتقدت أنه سيرفضها بأدب كالباقين، ولكنه قرر نشرها بل والمراهنة عليها، قال لي بأنه يريد أن يغير مفهوم الرواية عند الشارع العربي .. حلم مضحك هو أو على الأقل جعلني أندهش منه كيف يحمل تلك الأحلام في عقله، بعد أن توطدت صداقتي به عرفت أنه خريج كلية دار العلوم مثلي !!! وهو غير متزوج ويعيش وحيدًا ولذلك يمكنه المخاطرة الآن قبل أن يتزوج ويتقل أسرته كاهله .

كتب العقد معي ودخلت (نصف ميت) مراحل التنسيق والطباعة واستلمت منه أول مبلغ في حياتي أحصل عليه من كتاب، وذهبت

على الفور طبعًا إلى المنصورة لاستلم دبل الخطوبة التي صممت أن أنقش عليها اسمي واسم حبيبتي بحروف بارزة خارج الدبل .

عدت للقاهرة لأرى بعيني النسخة النهائية من رواية (نصف ميت) تخرج لأعاينها من المطبعة .. الغلاف الثقيل الذي يحمل التصميم الذي صممه صديقي (عبد الرحمن فتحي) وبين دفتي الغلاف ترقد روايتي بلون الورق المائل إلى اللون البني .. احتفلنا أنا و(عماد حموي) الناشر الشاب على ذلك المقهى بوسط البلد بخروج الكتاب نشرب الشاي ونتحدث عن خطط التوزيع والرواية القادمة والمزيد من الأحلام .. (عماد) هذا من أطيب الشباب الذين قابلتهم في حياتي، دار النشر التي يمتلكها (doreman) والتي اقتبس اسمها كما قال لي من اسم مطعم مشابه في اسبانيا عندما عمل بعد تخرجه وقبل عودته مصر.

ظللنا نتحدث عن الرواية وهو يسألني بطريقة خفية عن مغزى الرموز في قصتي والتفاصيل الدقيقة التي تشعره أن أحداثها حقيقية وأن شخصياتها من لحم ودم على حد تعبيره .

ثم تحدث معي عن مصادفة غريبة بخصوص أن بطل الرواية لم يجد ناشر لينشر له رواياته وقبل أن يموت بقليل وجد الناشر الذي نشر له الرواية .. ابتسم وقال ولكنك لم تذكر مصير الرواية ، فقلت له أنني بالفعل لم أفكر ماذا سيحدث للرواية بعد موت صاحبها، فكرت قليلًا ثم ابتسمت له وقلت أنه لو تلك الرواية واقعية فعلى الناشر أن يكمل ما بدأه المؤلف، تجهم وجهه قليلًا وكأنه فوجئ بكلامي فأكملت قائلًا

بسخرية " لو أنا بطل الرواية وانت الناشر اللي في الرواية فأنا ماكون عايزك تنزل الرواية بعد ما أموت علشان أكون سايب ذكرى ليا في الدنيا "

ظلت عينيه مندهشة برغم استمرار الحديث معي وقد كنت أشعر بأنه يفكر في آخر جملة قلتها من خلال نظرة عينيه لي، الوقت أزف وحان وقت ذهابي إلى الإسكندرية الليلة لأكون من الصباح هناك أقيم عند زميل والدي ـ الذي أوصاه علي بالهاتف فهو يعرف أنني سأذهب لأتقدم لأسرة حبيبتي في البداية وعند حصولي على الموافقة أعود بوالدي للتقدم الرسمي ـ وفي المساء أذهب لمنزل أسرة حبيبتي لأتقدم لوالدها، غادرت المقهى سريعًا وأنا أتصل بحبيبتي وأبلغها أن لا تتصل بي الليلة لأنني سأسافر لمكان هام وغدًا ستجد مفاجأة سارة، أطلقت الساعة واستقلبت الحافلة المتجه إلى الإسكندرية من عند محطة (......) وجلست داخلها.

جلست أفكر في الحلم القادم وبجانبي جلس شاب ارتسمت ملامح الحزن على وجهه، من وقت لآخر يغمض عينيه وتنحبس الدموع في مقلتيه ويقبض على مسند مقعده بشدة كأنه يتألم من الحزن؟؟!!! تساءلت وأنا أقبض بيدي على علبة الدبل عن هذا الشاب الحزين، تساءلت عن ما يفكر فيه، وسرعان ما تركته لأحزانه وعدت أنا لأفراحي أقرب الدبلة الذهبية من فمي وأتخيل أن حبيبتي ترتديها ومن ثم أقبلها كأنني أقبل يد حبيبتي، فجأة شعرت بسرعة الأتوبيس تزيد وصوت قطار و...

***

ـ " كفاااية "

قلتها بغضب وأنا أنفض .. لماذا قلتها بغضب؟ لماذا نفضت؟ لما زاد تنفسي؟ أطلقت صرخة طويلة، ألم .. ألم برأسي، كفى، سينفجر مخي من الألم، قطار يسير بسرعة شديدة، آآآآآآآآ صرخت وصرخت، لقد فهمت لقد فهمت القطار وألم و... صوت باب الغرفة يفتح ثم صوت الكليك الناتج عن ضغط مفتاح الإضاءة، والضوء يغزو المكان؟!!!!!!! وضعت يدي أمام عيني بسرعة من شدة الضوء الأحمر الذي جاء من المصباح المعلق في سقف الغرفة، تعودت عيني على الإضاءة ففتحتهما وأنا أحاول تمييز من ينظر لي من خارج الغرفة؟ إنهم الممرضان اللذان قابلاني اليوم وكانا يجلسان خلف الكاونتر ينظران لي بذهول ثم ينظران لبعضهما؟!!! نظرت حولي .. مقاعد مكسورة .. أخشاب .. ملابس مهرولة أين أنا؟

ـ " انت دخلت الأودة دي إزاي؟ "

قالها أحد الممرضان بدهشة ممزوجة بشك فنظرت أنا حولي مرة ثانية للغرفة الضيقة، أين المرضى؟ أين الأصوات؟ ماذا حدث؟ قلت وأنفاسي تتسارع من الخوف:

ـ " فين .. فين (ثابت)؟ (ثابت) هو اللي جابني هنا، فين الناس اللي كانت بتكلمني؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟ "

نظرا لبعضهما مرة ثانية ثم دخل أحدهم للغرفة بحذر وقال وهو يساعدني على النهوض من على الأرض ـ أين المقعد الذي كنت أجلس عليه ـ؟

- " مين (ثابت) ده؟ وانت ازاي وصلت للأودة دي يا أستاذ،ومرضى إيه اللي انت بتتكلم عنهم، دي أودة كراكيب"

أمسك مرفقي وأنا أنهض بصعوبة وأنظر حولي، ثم أخرجني من الغرفة وأنا أجر قدمي وأنظر خلفي للغرفة مرة أخرى

- " صدقوني فيه واحد اسمه (ثابت) كان هنا وهو اللي دخلني العنبر ده و ... "

قاطعني أحدهم وهو يجرني بلطف كي أسير أسرع معه قائلاً:

- " يا أستاذ قلتلك محدش اسمه (ثابت) "

توقفت أنا فجأة وتوقفوا هم معي، ما هذا الذي يحدث؟ لقد أخرجوني من الغرفة التي اتضح أنها خالية وسرنا معًا في ممر صغير ثم نجد أنفسنا عند كاونتر الاستقبال الخاص بالمصحة؟؟؟ كيف هذا وأنا صعدت بجانب (ثابت) السلم وسرت في ممرات عديدة لأصل لتلك الغرفة !!!!!

- " استاذ أنا شوفتك النهاردة الصبح، مش انت اللي جيت تسأل عن مدير المستشفى؟ "

نظرت لقائل العبارة بإرهاق وأشرت برأسي علامة الموافقة فقال الرجل عبارة لا أتذكرها ولكني تذكرت زميله وهو يسأل:

- " انت دخلت الأودة ازاي يا استاذ؟ "

- " فيه حد وصلني ليها، هو مدير المستشفى جد؟ "

- " لا د / هادي مجاش النهاردة "

نظرت لعينيه قليلاً ثم شكرت من يمسك بيدي وأنا أحررها منه وأقف أهندم ملابسي .. كنت بدأت أشعر بشعور غريب، نظرت إلى الكاونتر ثم فوق الكاونتر هناك ساعة معلقة.. ركزت عيني على الساعة المعلقة وأنا أقطب جبيني، عقرب الثواني في الساعة يدور عكس اتجاه عقارب الساعة، يدور لليسار !!!! نظرت للنتيجة المعلقة على الحائط تحت الساعة فوجدت الأرقام مكتوبة بالعكس كأنني أراها في مرآة، صرخت بأعلى صوتي وأنا أمسك رأسي من الألم والأفكار .

الفصل الثالث والعشرون

رفعت (دعاء) رأسها من على رواية (نصف ميت) متسعة العينين، الدموع تتكون داخل مقلتيها من نهاية الرواية ومن الحقيقة المرعبة التي فهمتها، كانت تجلس على فراشها فنهضت من عليه وتركت الفراش وفتحت باب الغرفة متجهه إلى الشرفة التي تجلس شقيقتها بها منذ تركتها لتقرأ بقية الرواية .

فتحت باب الشرفة فوجدت (داليا) تجلس كما هي معطيه لها ظهرها، نظرت لها (داليا) وتأثير الدم لا يزال حول عينيها.. طالت النظرات بين الشقيقتين حتى تكلمت (دعاء) بنبرات بطيئة خائفة حزينة:

- " النصف ميت .. هايعمل الرمز ويتكلم عن المزيف.. هايكون معاه الدليل .. والمرافق هايوصله "

الدموع المتكونة في عين (دعاء) بدأت بالتساقط على الأرض وشقيقتها تنظر لها نفس النظرة الجامدة الطويلة .

***

الساعة الثالثة قبل الفجر

غرفة (هادي) وبابها المفتوح والعطر الذي انبعث منها، وداخلها يجلس (طاهر) على نفس المقعد يأكل شيئًا ما وهو ينظر إلى الشاب الذي يقف دائمًا بجانبه ويتحدث معه عن جدول أعماله غدًا ويأمره أن يؤجل بعض المواعيد الصباحية لأنه سيستيقظ متأخرًا، ثم نظر

الاثنان باتجاه باب الغرفة و(هادي) والرجلان يحملان الكفن ويدخل الجميع للغرفة، هذه المرة وضع الجميع الجثة على فراش (هادي) الذي فرش عليه ملاءة جديدة كما هي المرة السابقة .

نهض (طاهر) ووقف عند رأس الجثة ثم فتح الكفن لتظهر ملامح المرأة الشابة المحنطة قليلًا جميلة الملامح قمحية اللون وقد ضفرت خصلات شعرها لثلاثة ضفائر، ضحك (طاهر) وهو يمسك أحد ضفائرها قائلًا:

- " حلوة أوي القورصة دي، طب ما كانوا يعملوهلها كيرلي أحلى علشان الموضة "

ضحك الجميع مجاملة لعبارة (طاهر) الذي نظر لهادي وقال له:

- " حلوة برضه المرة دي بس كفاية عليك اللي انت أخدته دا انت قابض لياليين ورا بعض يا راجل "

ابتسم (هادي) وهو ينظر للأرض ويقول بنفاق واضح:

- " من غير فلوس خالص يا باشا، اتمتع انت بس واحنا تحت أمرك، ويارب تعجبك المرة دي "

ضحك (طاهر) وهو يضرب على جسد المرأة الميتة بيده على مناطقها الحساسة ويقول:

- " لا حلوة بجد "

ضحك (هادي) وحده هذه المرة واتجه إلى باب الغرفة ليغادرها هو والحراس ولكن (طاهر) قال له قبل أن يغادر

– " المرة الجاية هازودك ألف جنيه يا (هادي)، بس اتجدعن انت وخليها بسرعة "

قال (طاهر) العبارة السابقة لأنه خاف أن يغضب (هادي) فيؤخر عليه جثث جديدة فهو يعرف أن لهادي زبائن آخرين غيره ولذلك كان يجب عليه أن يطمعه كي يتصل به كلما جاء جديد، خرج الجميع وتركوا (طاهر) الذي أخرج من جيب قميصه علبة أقراص صغيرة وتناول قرصًا منها وهو يتكلم مع الجثة:

– " ايه يا حلوة مغمضة عينك ليه، مكسوفة مني والا ايه "

مد يده يحاول أن يفتح عين الجثة ثم يخلع قميصه وسرواله ويمسك بسكين صغيرة تناولها من على منضدة (هادي) ليقطع بها قماش الكفن من على جسد الجثة، في الخارج وقف الحارسان والرجل الذي يرافق (طاهر) على مسافة قريبة من الغرفة ينظرون حولهم بين الحين والحين .

(هادي) يقف بجانب أحد الحراس ويناوله سيجارة ليلتقطها منه الحارس بقرف وهو ينظر إليه نظرة جانبية، أما الحارس الآخر فقد رفض السيجارة من يد (هادي)، ولكن (هادي) لم يعرض على الرجل الثالث المرافق لطاهر لأنه يعرف أنه سيرفض من البداية ولأن شخصيته ترعب (هادي) .. (علي الطيب) يتحرك وسط الظلام من الناحية الأخرى من الغرفة بمشيته البطيئة الهادئة وعينيه المتصلبة على نافذة الغرفة، وعقله .. العقل البسيط الطيب الذي استحق أن يحمله . عقل تدور فيه الآن بعض الأفكار تنصب كلها حول الخطيئة، نعم فعقله قادر على تصنيف الخطيئة والصلاح، الطيب والشرير، الفعل

الصحيح والفعل الخاطئ، وربما كان عقله اشد قوة في الحكم على الخطايا، صحيح انه لا يعلم الكثير من التفاصيل عن الحياة ولم ير سوى قشور استنتجها عقله ولكنه يملك الاختيار .

عرف هذا منذ اول ليلة رأى فيها عملية بيع جثة، أول ليلة رأى فيها أحد هؤلاء المنافقين يمارس الجنس مع الفتيات الصغيرات اللاتي فارقوا الحياة، أول ليلة وجد فيها (هادي) يقبض اموالًا من رجال أدى لهم خدمات مقابلها، يعرف الأموال جيدًا ويعرف انها أداة المقايضة المستعملة ويعرف اسماء العملات أيضًا وبعض اشكالها، ويعرف ان (هادي) يقبض المال مقابل ما يحدث، الحروب أكثر من النافذة ومشاهد كثيرة تعود لعينيه، عشرات الجثث وعشرات المقابر وعشرات النعوش، عظام، لحم، جثث، رجال يدفعون النقود، رجال يغتصبون الفتيات الميتات، و ... توقفت المشاهد عند الجثة التي دخلت المقابر أمس، الجثة التي تحركت بيدها قبل أن تدخل المقبرة، أو بمعنى آخر الرجل الحي الذي دخل القبر .

انتبه هنا لطاهر العاري وهو يصدر الأصوات من شفتيه ويرتعش كما كان يفعل كل مرة، عض بأسنانه على شفتيه وهو يسمع صوت المرأة الميتة في أذنه وهي تبكي وتئن من الألم. سال الدم من شفتيه جراء ضغط أسنانه ولكنه لم يشعر قرب رأسه من النافذة أكثر حتى التصق وجهه بزجاجها، ضغط بأسنانه أكثر على شفتيه .. لقد كان يرى منذ زمن أنه يملك حق الاختيار بين الخير والشر ... والآن سيختار

***

الفصل الرابع والعشرون

نظر لي الممرضان وأنا أمسك رأسي والأفكار تتسلسل في عقلي بسرعة .

نحن في شهر أغسطس فكيف يكون هناك دراسة في الجامعات؟

***

نظر د / مصطفى في ساعته ونهض بسرعة قائلًا:

– " نسيت أنّ عندي محاضرة لفرقة ثانية دلوقـت، أنـا هاكتبلك العنوان على ورقة واديهولك وبكرة تبلغني عملت يه "

بالفعل أخذ ورقة على عجل من على مكتبه وخط عليها لعنوان ثم ودعني

***

لا توجد في (فيصل) مصحات أو شارع بهذا الاسم .

***

(مصحة الأمل . فيصل . ش حسن حماد متفرع محسن ش لعشرين)

***

د / مصطفى زيادة أحد أساتذة الطب النفسي في الجامعة توفي وأنا في العام الدراسي الأول فكيف يتحدث معي أصلًا؟

***

توقف دكتور / مصطفى لحظة وقال وهو يعدل وضـع منظاره الطبي

***

نضج الطعام فنقلته للمائدة وحاولت أن أفتح التلفاز كثيرًا ولكنه لم يستجب، يبدو أن الكهرباء لا تصل من الأساس للدائرة الداخلية، لا يهم أخرجت من مكتبتي كتابًا لدكتور مصطفى زيادة رحمه الله ولكنّي تذكرت أنني قد قرأته منذ أيام فأخرجت كتابًا آخر قديمًا .

***

جامعة عين شمس التي تخرجت منها وحصلت على الماجستير في علم النفس من داخلها كيف لي أن أستقل مترو محطة (الدقي) من جانبها؟؟ ومحطة المترو التي تقابلها هي محطة (منشية الصدر؟؟؟)

***

توجهت إلى المترو ودخلت المحطة، دخلت محطـة قطـار المترو وسط الجموع وأنا أنظر بعيني على اللافتة التي علقت على المحطة (الدقي)، قلت في نفسي أنني لن أخذ وقتًا طويلًا كي أصل لمحطتي .

صورتي لا أراها في المرآة .

***

قربت وجهي منها باضطراب حتى توقفت أمامها تمامًا .. أين انعكاس صورتي في المرآة !!!!!!

***

عيني اليسرى التي لا أرى بها جيدًا .

***

يدي التي تكلم عنها السائق .

***

فجأة دوى صوت سائق التاكسي يقول:

– " مال ايدك يا باشا؟ "

***

كيف أسير بين ممرات عديدة وأنا خلف (ثابت) ثم عندما أعود أسير في ممر واحد فقط؟

***

دخل (ثابت) في ممر على اليمين فتبعته ثم ممر أيمن أيضًا، ثم أيسر ثم سرنا في ممر أطول من الممر السابق

سائق التاكسي الذي اعتقدت أنني رأيته من قبل قال لي أنه زعما قام بتوصيلي من قبل !!!!

***

– " احنا اتقابلنا قبل كده يا حاج؟ "

ابتسم الرجل الطيب وقال:

– " أنا كمان باشبة عليك يا بني، ممكن أكون وصلتك قبل كده لمكان، المهم سامحني يا بني أني عليك توصل متأخر".

***

هذا السائق يعرف طرقًا غريبة بحق، فهو يقود الأتوبيس متجهًا إلى الإسكندرية ولكنه يسلك طرقًا عجيبة ويقف عند محلات مأكولات كثيرة ويعلن للركاب أنه يمكنهم النزول لعشر دقائق لشراء ما يحتاجونه

***

وانفتح تابلوة السيارة لتقع على قدمي صورة صغيرة داخل برواز من الذي يعلق .. صورة لفتاة حسناء تبتسم .

– " دي بنتي الوحيدة "

عم (محمد) الرجل الطيب الهادئ الذي لا يضع بالًا لشيء ما في حياته، يصلي الفروض في أوقاتها ويتطوع لصوم أيام

كثيرة من كل شهر، رزقه الله بابنته الوحيدة (سمية) نور عينيه والتي يحبها أكثر من نفسه .

***

صرخت وأنا أتألم وأقول بأعلى صوتي:

- " كفاية يا (حاتم) "

فجأة اختفت قاعة الاستقبال في المصحة ووجدت نفسي استيقظ في القبر .. آآآآآآآآآآآآآآه الظلام والرائحة ودرجات السلم التي توقفت عندها وأنا أحاول الصعود إلى باب القبر .. صرخت فخرج صوتي متحشرجًا كما هو .. يدي اليمنى الوحيدة حركتها وأنا استشعر ملمس درجات القبر الترابية وسط الظلام .. لماذا تفعل بي هكذا يا (حاتم) .. الذكريات تعود لي بقوة، الليلة التي قررت فيها السفر إلى الإسكندرية، الحافلة التي استقليتها والشاب الذي جلست جانبه، ذكرى جدي التي عادت لي وأنا استقل معه الحافلة في صغري عيسى على قدميه وأنام على صدره كعادتي في صغري في أي وسيلة مواصلات استقلها معه .

الشاب الذي يمسك علبة صغيرة ينظر لها بين الحين والآخر ثم يقبل شيئًا ما داخلها، الدموع تتساقط من عيني وأنا أتذكر جدي، صوت القطار ثم .. لماذا أشعر بالدوار الآن، رأسي رأسي آه .

***

عدت لأجد نفسي في الغرفة المظلمة مرة أخرى وأجلس على المقعد وصوت (حاتم) الشاب يتكلم بجانبي .

- " (خالد) خليك معايا "

قلت أنا بصوت غاضب:

- " ليه بتعمل فيا كده يا (حاتم) "

***

فعائلة والدي بالطبع لا تعرف موضوع أن الأشياء تتحرك من حولي وأنني أزرع أحاسيس في العقول .

***

الأشياء التي يمكنني فعلها في حالتي الطبيعية وخاصة بعد أن تحول زرع الأحاسيس في العقول إلى زرع ذكريات غير موجودة في العقول ..

***

قلت بغضب:

- " انت اللي زيفت كل الذكريات دي يا (حاتم) وأنا لسة جوة القبر "

رد صوت (حاتم):

- " القبر اللي انت فيه دلوقت أنا جثتي جنبك وكل اللي كلمتوك هنا في الأوضة دي جثثهم موجودة جنبك في القبر الحقيقي، الأوضة دي اللي انت بتكلمني فيها عبارة عن ذكرى زرعتها في عقلك "

سكت قليلًا ثم قلت:

- " انت ميت؟ "

- " آه "

- " وأنا؟ "

- " حي "

أصبح صوته أكثر انفعالًا وهو يقول:

- " كان لازم أعرف أكلمك.. كان لازم أعرف أوصلك اللي بيحصل حواليك، كان لازم استخدم ذكريات عنك وابني عليها ذكريات جديدة كل ما تروح في غيبوبة، لكن أنا لما بازرع الذكرى في مخك عقلك بيرفضها ردة اللي بيخلي الذكريات فيها أخطاء زي ما شكل الساعة والنتيجة كان غلط وزي ما صورتك في المراية مكنتش موجودة لأنك في الحقيقة لسه في القبر .. أنا أوحيت ليك بكل شيء شوفته، ودي الطريقة الوحيدة اللي أقدر اتصل بيك بيها علشان تسمعني أنا وباقي اللي في القبر .. كل مرة الذكريات كانت بتختل ويبقى فيها غلطات في الأماكن والأشخاص كنت بتفوق تلاقي نفسك في القبر مرة تانية .

***

قربت وجهي منها باستغراب حتى توقفت أمامها تمامًا .. أين انعكاس صورتي في المرآة !!!!!

***

شهق شهقة كبيرة وهو يحاول أن يحرك يده من على الجثة التي وضع يده عليها يتحسسها، إذن هو داخل قبر، ياللهول ياللهول، هل مات وينتظر الحساب أم أن .. أم أن ماذا؟ ابعد يده عن الجثة وأوصاله ترتجف مما فهم .. حاول الارتكاز بيده على الأرض لينهض ولكنه فقد الوعي فجأة .

***

لماذا لا أرى انعكاسي في المرآة؟؟؟؟؟؟ توقفت لدقيقة أنظر للمرآة بنوع من التركيز محاولًا تأمل السطح المصقول وهل به مشاكل في التنظيف !! لا جدوى من ذلك فانعكاس باب الحمام يظهر بالمرآة ولكن انعكاسي هو الذي لا يظهر .

***

أكمل (حاتم):

- " أنا مكنتش بنفع أوريك غير أشخاص ميتين، كل واحد شوفته واتعاملت معاه كان ميت ، استاذك في الجامعة وسواق التاكسي اللي هو سواق الاتوبيس اللي عمل الحادثة بينا، و(سيد) و(محمد)

الممرضين اللي قابلتهم وانت داخل المصحة هما (سيد) و(محمد) اللي نقلوا جثتنا للتربي اللي اسمه (هادي) "

إذن فمدير المستشفى الذي سمعت أن اسمه (هادي) المقصود به أنه هو التربي .. والمصحة هي المقابر وبالتالي فمديرها هو التربي نفسه، ولكن من هو (ثابت) .

– " التربي اسمه (هادي ثابت عيد) يا (خالد) "

(ثابت) هو والد (هادي)، وهو من أدخلني هذه الغرفة، إذن فوالد (هادي) كان يعرف بأمر تلك المقبرة منذ زمن وبالتأكيد هو ميت الآن لأني رأيته في الذكريات المزيفة، صوت (حاتم) يقول:

– " المصحة هي المقابر، وعينك الوجعاك هي عينك اللي اتصابت في الحادثة، والايد اللي شاورلك عليها سواق التاكسي هي ايدك اللي اتقطع جزء منها، والساعة ١٢ الا عشرة لما دخلت الأودة هي نفس الساعة والدقيقة اللي دخلنا فيها أنا وانت القبر امبارح، والممرضين الاتنين اللي شوفتهم دول اللي نقلونا ليلة ما دخلنا القبر"

يستحيل علي أن أصدق ما يحدث؟ الآن جسدي داخل القبر ولكن عقلي يسبح في ذكريات صنعها (حاتم) !!!

– " انا باقدر أزرع الذكريات والأوامر في عقول الناس القريبين من جسمي ، أي حد قريب من جسمي أقدر ازرع في دماغه ذكرى أو أمر، انت علشان جنبي قدرت أعمل معاك كل ده، وأي حد يبقى قريب مني أقدر أحط في دماغه فكرة أو أمر أو ذكرى مش حقيقية "

سكت قليلًا ثم أكمل:

– " (خالد) الذكريات المزيفة هاتنتهي بعد دقايق خلاص ومش هاعرف أكلمك بعدها، لازم تخرج من هنا بأي طريقة، الأموات اللي كلموك عايزين منك تدل أهلهم على جثثهم وتبلغ عن اللي عملوا فيهم كده "

بدأ الألم يعود لرأسي فسمعت صوت (حاتم) يقول:

– " عقلك بيرفض الذكريات اللي بحطها فيه خلاص، انت وعيك هايرجع ليك تاني .. اسمع لو خرجت من القبر ده وانت عايش عايزك تروح مكان معين بعد ما تاخد حاجة معينة وانت رايح، وهاخلي أقرب واحد بقرب من قبري يساعدك، قولي يا (خالد) انت بتخاف من القطط؟ "

لم أفهم مغزى العبارة ولكنه أكمل كلامه ومن وسط الألم الذي اشتعل في رأسي سمعت عباراته الأخيرة وحفظتها عن ظهر قلب .. عن الرمز والدليل والمزيف والعنوان والميعاد والمرافق الذي سيرافق النصف ميت .. حفظت ما سأفعل وما سأقول، آه الألم يشتد، أحرك رأسي يمينًا ويسارًا من شدته .. ارتعش وارتعش وارتعش وأحاول الصراااااااااااخ.

***

لقد عاد وعيي ثانية .. أنا في القبر !!! على السلم الحجري كما أنا عندما كنت أحاول صعود درجاته، صرخت بقوة مرة أخرى لعل أحدهم يسمعني .

***

الفصل الخامس والعشرون

انتبه هنا لطاهر العاري وهو يصدر الأصوات من شفتيه ويرتعش كما كان يفعل كل مرة، عض بأسنانه على شفتيه وهو يسمع صوت المرأة الميتة في أذنه وهي تبكي وتئن من الألم.. سال الدم من شفتيه جراء ضغط أسنانه ولكنه لم يشعر، قرب رأسه من النافذة أكثر حتى التصق وجهه بزجاجها، ضغط بأسنانه أكثر على شفتيه، لقد كان يرى منذ زمن أنه يملك حق الاختيار بين الخير والشر .. والآن سيختار .

مد يده اليمنى يتحسس زجاج النافذة الذي يغلقه (هادي) دائمًا بدون أن يغلق مزلاجه، سحب الزجاج للخارج فانفتحت النافذة .. أمسك جيدًا بقاعدة النافذة ثم قفز بأقصى ما يستطيع ليعلق بالنافذة ويحشر جسده ليدخل إلى الغرفة، العجيبة أن (علي) كان يحدث أصواتًا عند قفزه لداخل الغرفة فلم يستطع إخفاء صوت قدميه، ولكن الأغرب أن (طاهر) لم يسمعه وظل يفعل ما يفعله مع الجثة باستمتاع، سار (علي) داخل الغرفة مقتربًا من (هادي) الذي لا يشعر به وهو يعطيه ظهره، توقف بجانب المنضدة الموضوع عليها السكين، أمسك السكين بيده جيدًا .. شعر بقوة تسري في عروقه وهو يقترب من الفراش الذي يغتصب عليه (طاهر) المرأة .. يقف بجانب الفراش تمامًا.

الليالي التي نام فيها (علي) على الأرض داخل المقابر في البرد وعلى التراب راحضى صنعت من جسده النحيل كتلة حديدية

خشنة، توقف (طاهر) عما يفعله ونظر ليساره ببطء لتصطدم عيناه بجزع (علي) الذي يقف منتصب القامة أمامه.

رفع عينيه أكثر لتصطدم العينان الباردتان ببعضهما، عين (طاهر) وعين (علي)، رفع (علي) يده الممسكة بالسكين لأعلى ثم هبط بها ليغرس السكين في رقبة (طاهر) .. دخلت السكين من شدة سرعتها حتى المقبض داخل رقبة (طاهر) ولكن (علي) لم يكتف بذلك وإنما جذب السكين لخارج الرقبة ليذبحه وهو يدخل السكين ويخرجها كي يفصل رقبته، لوح (طاهر) كثيرًا بيده في الهواء وأخذ يحرك جسده ولكن السكين التي تسير في رقبته تمنعه من التحرك، خرجت السكين من رقبته تاركة إياه يتحرك وصوت يشبه الصفير يخرج من حنجرته، توقف جسده فجأة ووقع من على الفراش .. سكنت حركته تمامًا الثوان ثم عاد جسده يتحرك حركات تشنجية بسيطة توقفت بعد أقل من دقيقة .

اتجه (علي) لباب الغرفة ليفتحه وهو ينظر للحراس الواقفين وبجانبهم (هادي) نظر له الجميع لحظة واحدة بعدم فهم ثم بسرعة أخرج اثنين من الحراس المسدسات وأطلقا النار بسرعة، كانا يحرفان يحق وهما يطلقان النار على قدمه لأنهما لا يعلمان بعد ما حدث، ولكن كما درسا فهما الآن يقيدان حركته كي يتأكدا مما يحدث .. دخلت رصاصة في فخذ (علي) فاصدر تأوه وتراجع بفعل دفعة الرصاصة لداخل الغرفة، جرى الحارسان للداخل بسرعة و(هادي) يتبعهما والشخص الثالث يخرج مسدسه هو أيضًا وينظر حوله، دخل الجميع الغرفة وتسمر الحارسان أمام جثة (طاهر) الملقاة، دخل الثالث الغرفة وهو يجري على جسد (طاهر) الملقى على الأرض يتفحصه ..

كان (علي) ينهض من على الأرض وهو يستند إلى المنضدة ولكن الرجل الذي يتفحص جسد (طاهر) هتف بغضب وهو يوجه مسدسه ناحية (علي):

- " يابن الكلب "

أطلق النار فاخترقت الرصاصة بطن (علي) ولكنه لم يسقط بل جرى عليه (هادي) يحاول وقف نزيف الدم الذي انفجر من أحشاءه، ثم جرى كل شيء أسرع من المتوقع .

صاح (هادي) في الحراس وهو يمسك السكين التي وقعت على الأرض ويغرسها في صدر أقرب الحراس إليه وفي نفس الوقت تخترق رصاصة من الحارس الآخر صدره لكنه لا يتأثر ويخرج السكين من صدر الحارس الأول ويحاول غرسها في صدر الحارس الثاني الذي أطلق عليه الرصاص، فتأتي رصاصة ثانية لتخترق صدره أيضًا ويعود إلى الوراء من قوة الرصاصة ليصطدم بجسد (علي) الذي مازال يقف .. عندما اصطدم جسده بجسد (علي) الواقف أدار له وجهه بسرعة وهو يحتضنه ورصاصه أخرى تخترق ظهره وكلمه متحشرجه تخرج من شفتيه لعلي:

- " اهرب "

فجاة جحظت عيناه عندما تلقى رصاصة أسفل رقبته وسقط على الأرض، وأمام أعين الباقين جرى (علي) المصاب برصاصة في فخذه ورصاصة في بطنه وغادر الغرفة بمعجزة ورصاصتان تلاحقانه كادتا أن تصيباه، غادر الرجلان الغرفة وراءه وهو يجري أمامهما وهما يحاولان اللحاق به أو تحديد مكانه بدقة وسط الظلام، كان يجري وهو لا

يشعر بالألم، نعم كان لا يشعر بالألم ولكنه شعر بنوع من الانتشاء، نوع من السعادة الغريبة، تنميل محبب في أطرافه، يجري وهو يفكر بسرعة .. لقد اختار وأنهى حياة المغتصب .. التنميل الجميل يزيد والنشوة تزيد أكثر، يكاد يسمع أصواتًا في أذنه يعرفها .

نعم نعم هي الأصوات الجميلة التي تقول (الله) .. إنها هي تعود لأذنه، ابتسم وهو يجري بين حارات المقابر في الظلام ويسمع صوت خطوات من يتبعونه تسرع وراءه، سمع صوت رصاصة ورأى ضوءًا يسير من جانبه الأيمن بسرعة، إنها الأداة التي يصيبونه بها وقد أصابوا بها (هادي) ومات، هو يعرف الموت حين يراه .. إذن سيكون مصيره كمصير (هادي) الآن عندما تصيبه الأداة التي يحملها الرجال، أم أنه أصيب بالفعل وسيموت الآن .. بقى أمامه القليل إذن ليفعل بالي ما اختاره، لو كان سيموت يجب أن يموت في مكان معين، يجب أن يعرف الجميع هذا المكان قبل أن يموت ، صوت الرصاصة يدوي ولكنه لم ير الضوء هذه المرة بل شعر بجسده ينتفض وجزء من ظهره يصيبه التنميل المحبب أيضًا ، (الله) (الله) (الله) الأصوات الجميلة تعلو في أذنه وهو يجري بين صفوف وشوارع المقابر وحاراتها مقتربًا من هدفه .

ابتسم أكثر وهو يرى المقبرة من بعيد .. لقد حان الوقت، الصورة تهتز أمامه، الصوت يعلو أكثر .. صوت يدق بانتظام في أذنه مع كلمة (الله) .

اخترقت رصاصة أخرى جسده ولكنه كان قد اقترب كفاية من المقبرة ورمى جسده عليها وهو يبتسم ويتشبث ببابها الحديدي

الظاهر، تشبث جيدًا وهو يسمع الخطوات تقترب منه وهو نائم على وجهه يحتضن باب المقبرة، أطلق من حنجرته صوتًا وأغمض عينيه والرجلان يقفان وراءه ثم يوجهان المسدسات باتجاه جسده .. انطلقت الرصاصات وهي تمزق جسد (علي) وتخترق لحمه وهو يتشبث بباب المقبرة، حتى انفجرت رأسه بعد أن اخترقها ثلاثة رصاصات وسكنت حركته، انتهى الرجلان من اطلاق النار بعد أن تأكدا من موته ونظرا حولهما ثم جريا بسرعة من المكان .

***

جاء هذا القط من داخل المقابر، جاء بعد انتهاء إطلاق النار من داخل غرفة (هادي)، دخل من الباب وهو ينظر للجثث المكومة والحارس الذي يشهق وهو يعاني سكرات الموت، اتجه القط رأسًا إلى جثة (هادي) .. القط يمتلك مجموعة غرائز ومشاعر ولكنه لا يعلم لماذا أراد أن يلعب الآن داخل تلك الغرفة التي تمتلئ بالأموات؟؟؟؟؟ جثة (هادي) الملقاة على وجهها أخذ القط يخمشها بيده وكأنه يطمئن إلى مقاومة صاحبها .. بعد أكثر من مرة استخدم فيها القط مخالبه يخمش جسد (هادي) بحذر تأكد أن صاحب الجسد لن يمانع أن يلعب به قليلًا، مد مخالبه داخل ملابس (هادي) وكأنه يلعب حقًا معه ولكن مخالبه كانت تقصد جيب سروال (هادي) !!! دخلت المخالب داخل الجيب وخرجت ومعها خرجت العلبة الحمراء الصغيرة التي تحمل الدبل .

أخذ القط يلعب بها ثم قبض عليها بفمه وجرى لخارج الغرفة وصوت رصاص ينطلق من مكان ما خارج الغرفة .

الفصل السادس والعشرون

تنحنح الشيخ (حامد) بين الحارات المظلمة في أحد أحياء شبرا وهو يسير متجهًا إلى المسجد الذي يؤمه كي يرفع آذان صلاة الفجر ثم يقيم الصلاة ويؤم المصلين، نظر إلى (سعد) الرجل العجوز الذي يقيم معه بالمول بعد وفاة زوجته ويسير معه أينما توجه ويعتني بالمسجد بين أوقات الصلاة، نظر له وقال:

– " أنا شوفتك بتكلم مع واحد امبارح بعد صلاة العشاء قبل ما أمشي، مين ده؟ "

رد (سعد):

– " ده راجل طيب جه الجامع امبارح الصبح وفضل قاعد فيه و
"

لم يكمل كلماته لأنه توقف ليخرج مفتاح باب المسجد لأنهما وصلا أمامه، فتح (سعد) الباب وأضاء مصابيح المسجد فوجد الاثنان رجلًا ينام على جنبه الأيمن .

– " إيه ده مين ده يا (سعد) "

قال (سعد) بلا مبالاة:

– " ما هو أنا مكملتش كلامي، ده هو الراجل اللي انت شوفتني باتكلم معاه امبارح، الراجل ده فضل قاعد طول النهار يصلي ويعيط ويقرا قرآن ويعيط ويدعي، بعد صلاة العشاء وبعد ما انت مشيت أنا كنت عايز أقفل الجامع، رحت ليه وقلتله أني هاقفل الجامع علشان

يقوم يمشي، الرجالي رقعد يقول سبقني في بيت ربنا الليلة أنا عاير أبقى مع ربنا الليلة .. وعبط، بصراحة صعب عليا وسيبته وقفلت الجامع عليه "

– " شكله مجنون .. طب صحيه يا (سعد) علشان أنا هافتح الميكروفون علشان التواشيح اللي قبل الآذان، وكدة كده هايقوم من صوت الميكروفون"

مد (سعد) يده يلكز الرجل الراقد برفق ولكنه لم يتحرك، لكزه مرة ثانية بطريقة أعنف ولا استجابة؟!! مد يده الثانية وقلبه على ظهره ليستطيع إيقاظه فوجد جسده يستجيب بسرعة وينقلب على ظهره وفمه مفتوح مرسومًا عليه ابتسامة صغيرة وعينيه مفتوحة وتنظر باتجاه الأعلى، وقع (سعد) وهو يتراجع للخلف من هول المنظر وأخذ يردد الشهادتين والشيخ (حامد) يجري عليه ويفحص الرجل الميت ثم يردد الشهادتين ويغلق عينيه ثم يجلس بجانبه يقرأ آيات من القرآن بصوت خفيض وهو يكاد يبكي من هول الموقف .. من هذا الرجل الذي ظهر في المسجد أمس كما يقول (سعد)؟؟ وأخذ يصلي ويقرأ القرآن ويدعو الله؟ ولماذا أصر على المبيت في بيت الله؟

مد يده يبحث في ملابسه برفق حتى أخرج محفظته ومنها أخرج بطاقته وقرأ الاسم .. (محمد صلاح محمد الناجي)، قلب البطاقة لترى عمله .. (ممرض) .

***

قام (محمد) بتعريفه على (سيد) بسرعة بأنه (هادي) حارس المقابر .. كان صوته خافتًا بالرغم من عدم وجود

أشخاص حولهم لمئات الأمتار إلا أن المكان قد أضفى رهبة عليهم جميعًا .

***

ابتلع (سيد) ريقه وهو يفكر في حين أخذ (محمد) الجوزة وهو يعطيها له ويقول ضاحكًا:

– " انسى يا جدع وماتفكرش كتير في الحاجات دي خلي العايش عايش والميت ميت ومحدش بيشتكي لحد "

***

مد (محمد) يده في جيبه وهو يبحث عن شيء ما و(سيد) يشاهدهما باستغراب وهو يسحب أنفاس الجوزة حتى أخرج (محمد) مبلغ من جيبه:

– " ألف جنيه يا عمنا، أنا هاخد ٣٠٠ جنيه منهم و(سيد) ياخد ٢٠٠ وانت حلال عليك الباقي يا سيدي "

– " طب حالة الجثث إيه؟ ينفع تتباع يعني والعظم مكسر وألا إيه نظامه؟ "

***

– " دي الجثة المقطعة "

لم يعد على (محمد) الثأر ولكنه ساعده على سحب الجثة وحملها خارج السيارة ليستقبلهم (هادي) بسرعة قبل أن تقع الجثة .

***

يخرج الطفل الوديع من جسد أمه العاهرة القاتلة، ثم يعطيه لممرضه ليذهب به إلى هذا التربي، هناك ما يشبه العقد بين الممرض والتربي، عقد قديم جداً، عقد مصالح لتوريد الجثث، يأتيه بجثث أطفال وجث كبار وكل شيء بحسابه .

***

استيقظ (خالد) من غيبوبته على صوت رصاص يصطدم بشيء معدني اعتقد هو أنه باب القبر، مرت دقائق وهو ينظر في الظلام بدون أن يعرف ما يفعل؟ أصوات رصاص بجانب المقبرة بل وتصطدم بباب المقبرة؟ فكر قليلاً ثم قرر أن يكمل الزحف لأعلى درجات السلم بيده الوحيدة .. شعر بألم مرة أخرى في رأسه ثم وجد باب القبر يفتح فجأة والهواء يصطدم به مع دخول ذرات تراب في عينه التي يرى بها، مد أحدهم يده يقبض على معصم (خالد) ويسحبه لأعلى و هو يئن من الألم، خرج من القبر وهو ينظر حوله إلى الرجل الذي أخرجه، هذا الوجه ليس غريباً على ذاكرته، ولكن الرؤية غير واضحة و ... إنه وجه جده المتوفي يبتسم له؟؟!!!

فجأة عاد الظلام و(خالد) يستيقظ من غيبوبته مرة ثانية وهو يطلق صرخة متحشرجة .. لقد كان يحلم بأنه خرج من القبر والذي أخرجه هو جده .

الفصل السابع والعشرون

رتبتي هي ملازم أول، اسمي (خالد محمد عبد الغفار) .. شرطي بدائرة (....)، سأحكي ما حدث .. عندما كنت أجلس داخل السيارة بجانب زميلي والأمين المرافق لنا في دوريتنا ليلاً بمنطقة (....) لأن هناك اشارة بلغتنا بأن هناك مشاجرة تمت في تلك المنطقة وأنها ستشتعل مرة أخرى الليلة قبل الفجر .

كاد (عمر) زميلي الجالس على مقود السيارة يغط في النوم من التعب وأنا أجلس بجانبه أنظر إلى الطريق الخالي وأفكر في نقلي لتلك المنطقة الشعبية منذ شهور ومحاولتي رسم شخصيتي عند مجرمي المنطقة الذين يعرفون اسماء الضباط واحداً واحداً، والمشاجرات التي تمت ولم استطع الفصل فيها بسبب هروب الأطراف المتشاجرة، نظرت في المرآة لأمين الشرطة المرافق لنا والذي أغمض عينيه ونام منذ ساعة ولكنه يستيقظ بين الحين والحين كي يعتدل وينظر لنا بشك إن كنت انا وزميلي سنعنفه لو أكمل نوم أم نتركه، نظرت في ساعتي وفجأة سمعت صوت رصاصات قوية تطلق من مسافة بعيدة .. !!! استيقظ الأمين وانتبه زميلي وهو يدير السيارة ويقول شيئاً ما عن بدأ المشاجرة ولكن بالأسلحة النارية هذه المرة وهذا غريب على تلك المنطقة.

كاد أن يتحرك بالسيارة ونحن نستمع لاطلاق الرصاص المتواصل من أكثر من مسدس .. قلت له أن الصوت ليس من هنا ولكن من مكان بعيد عن الشارع الذي من المفترض أن تحدث به المشاجرة، قال الأمين أن الرصاص يأتي من الشوارع القريبة من المقابر فنظرنا لبعضنا

ثم قرر زميلي أن يذهب للشارع الذي نسمع المشاجرة منه ثم نكمل طريقنا للمقابر حتى لا يكون في الموضوع خدعة، امسكت اللاسلكي وأنا أبلغ إشارة سماع صوت إطلاق أعيرة نارية في منطقة دوريتنا واطلب الدعم .. الرصاص يطلق كما هو ولكن اصبح بين الرصاصة والرصاصة فترة زمنية تعد بالثواني .

قاد (عمر) السيارة وهو يتجول في الشوارع التي خرج أهلها من منازلهم على صوت الرصاص والجميع يتساءل بدهشة، قاد السيارة إلى الشوارع الجانبية والأمين يدله على الطريق ليذهب إلى الشوارع المقابلة للمقابر .. وفجأة توقف صوت الرصاصات لدقيقة ثم دوت أكثر من ثماني رصاصات من مسدسين مختلفين في توقيت متقارب ثم توقف صوت الرصاص بعد ذلك، أصبحت على اتصال بضابط النبطشية في القسم وأنا أبلغه في اللاسلكي أننا نتجه إلى الشوارع المحيطة بالمقابر لأن صوت الرصاص يأتي منها .

الشوارع التي نقطعها بالسيارة استيقظ أهلها واضيئت أضواء المنازل ورأينا بعضهم يسير باتجاه الشوارع التي نقطعها متجهين على ما أعتقد ناحية المقابر مثلما نفعل .. دوى صوت رصاصة منفردة، بعد عشر دقائق وجدنا تجمعًا حول أحد الشوارع يسد الشارع والأهالي يصيحون وبعضهم يمسك أسلحة بيضاء والبعض عصي غليظة ويلوحون بها، خرجنا من السيارة ونحن نخرج أسلحتنا ونصيح بالناس المتجمهرة متوقعين أن تحدث مشاجرة بيننا وبينهم ولكنهم هللوا عندما وجدونا نتقدم وكأنهم كانوا ينتظروننا وافسحوا لنا

الطريق بينهم !!! جرينا وسطهم نخترقهم محاولين الوصول إلى .. ما هذا؟ مجموعة من الرجال يضربون شيئًا ما على الأرض ويدوسونه بأحذيتهم وبعضهم يضربهم بالعصي؟ صحنا فيهم فلم يفسحوا لنا المجال .

اضطررت إلى شد أجزاء مسدسي الميري وأنا أحذر بصوت عال أنني سأطلق الرصاص إذا لم يبتعدوا عن ما يضربونه، انتبه الرجال وابتعد البعض وظهر على الأرض رجلان ممزقان الملابس يتلوى أحدهم من الألم والآخر سكنت حركته .

تكلم زميلي مع أحد الرجال بعنف وهو يسأله فرد عليه الرجل:

– " احنا سمعنا صوت الرصاص جاي من المدافن اللي هنا "

وأشار بيده ناحية المقابر التي ابتعدت مائة متر عنا ثم أكمل:

– " جرينا على هنا لقينا الاتنين دول بيجروا وهايركبوا عربية واقفة هناك، وكانوا ماسكين مسدسات، جينا نتكلم معاهم راح واحد فيهم ضرب نار على عم (مسعد) البقال موته ابن الوسخة .. كانوا فاكرين إنهم خوفونا وركبوا العربية، بس قبل ما يدوروها كسرنا عليهم الإزاز وخرجناهم بالعافية وواحد فيهم حاول يضرب نار تاني لكن مكنش في مسدسه طلقات، مسكناهم وأدبنا بتعجنهم أهو لغاية ما تعرف إيه حكايتهم "

كنت أسمع كلام الرجل وأنا أمسك الرجل الذي يتلوى من الآلم من ملابسه الممزقة وأرفعه ودماءه تغرق ملابسي .. حدثته بعنف عن ما يحدث حتى سمعنا صوت رجل يصيح في الأهالي من داخل القبر:

– " قتلوا (هادي) يا رجالة، قتلوا (هادي) ولاد الكلب "

جرى الأهالي باتجاه القبر وأنا أسحب الرجل ورائي وزميلي يأمر الأمين بتقييد الرجل الآخر الذي لا يتحرك وحراسته حتى تأتي دورية الامدادت، توقفت عند المذبحة التي رأيتها داخل تلك الغرفة والأهالي يصيحون وأنا أمرهم بالابتعاد عن الجثث لحين وصول المعمل الجنائي، نظرت هذه المرة بغضب للرجل الذي أمسك ملابسه وفعلت أغرب أمرًا جنونيًا يمكن أن أحاسب عليه .. قلت له وأنا أصرخ أن يتكلم بما حدث وإلا قتلته لم ينتبه لكلماتي وهو يغمض عينيه فقربت مسدسي من أذنه وأطلقت رصاصة للأعلى مرت من جانب أذنه تمامًا وهو يمسك أذنه من صوت الرصاصة .

– " ها ياد هاتتكلم وإلا الرصاصة الجاية تبقى في نافوخك".

وضعت ماسورة المسدس على صدغه وضغط بقوة وأنا أصيح فيه ولكنه قال بسرعة أنه سيتكلم .. قلت له أول سؤال خطر على بالي

– " انتوا اللي قتلتوا دول؟ "

– " آه "

– " ليه "

– " احنا يا باشا اليودي جارد بتوع (طاهر) باشا، ولما لقينا واحد قتله وكان معاه سكينة ضربنا عليه النار قام التربي قتل واحد فينا فقتلناه . "

نظرت إلى الجثث .. جثة امرأة ملقاة على الفراش عارية، جثة رجل عاري ملقى بجانب الفراش ورقبته على وشك الانفصال عن بقية جسده، جثة شاب يرتدي بدلة وجثة ملقاة لشاب آخر، قارنت كلام الرجل مع عدد الجثث .. (طاهر) باشا قتل وحارس قتل والتربي قتل إذن أين قاتل (طاهر) باشا هنا، ومن هذه المرآة

– " فين اللي قتل (طاهر) بتاعكم ده "

– " قتلناه يا باشا "

– " وفين جثته يا روح أمك؟ "

– " مش هنا .. احنا جرينا وراه وسط الترب .. لغاية ماعرفنا نصطاده "

– " ومين الست دي ياد؟ "

لم يجب الرجل فكررت السؤال فقال بصوت خافض وكأنه لا يريد أن يسمعه أحد:

– " دي كان (طاهر) باشا نايم معاها "

نظرت لها جيدًا .. لماذا هناك قماش أبيض تحتها؟

– " ومين قتلها دي بالا؟ "

قال لي بنفس الصوت الخافض:

– " دي ميتة من زمان يا باشا .. ميتة قبل ما (طاهر) باشا ينام معاها "

فتحت فمي مذهولًا !!!!!!!!!

***

وصلنا لمكان جثة الذي قتل (طاهر)، وصلنا إليه بعد ربع ساعة أو أكثر والأهالي يستخدمون الكشافات أمامنا ويفرقون محاولين تغطية أكبر مساحة من المقابر ليمكننا اكتشاف المكان الذي قتل عنده القاتل كما يقول الرجل الذي مازلت اقبض عليه، كانت شواهد المقابر تحيط بنا ونحن نقف أمام الجثة المقلوبة على وجهها .. تأملتها وتأملت مواضع الرصاص التي مزقت ملابس صاحب الجثة وكسرت جمجمته، اقتربت من الجثة التي صنعت حولها بركة من الدماء واقترب معي الأهالي و(عمر) يجلس على ركبته موجهًا كشاف أخذه من الأهالي إلى الجثة .. فجأة تراجع (عمر) للخلف وهو يقول:

– " فيه صوت جاي من تحت الأرض؟ "

أرهفنا سمعنا فسمعنا دقات مكتومة وصوت كأنه حيوان يعوي بصوت خفيض.

– " بسم الله الرحمن الرحيم، صوت من تحت الأرض "

قالها رجل يقف بجانبي فأمرته أن يخرس وأنا أرهف السمع أكثر والصوت يخرج بالفعل من تحت الأرض؟؟؟!!!!

قال أحد الأهالي بصوت عال:

– " دي جثة (علي الطيب) يا جماعة "

أمسك (عمر) بملابس الجثة وأزاحها قليلًا لليسار وسط اعتراض الأهالي وأصواتهم ولكننا وجدنا باب حديدي تحت الجثة، إذن هذه مقبرة؟ والصوت يأتي من داخلها .. الدقات المكتومة تأتي من باب المقبرة، هناك من يدق من داخل المقبرة؟ تركت الرجل من يدي وسلمته إلى أقرب الأهالي لي وأنا أجري وأساعد (عمر) على ازاحة باقي الجثة ليظهر الباب الحديدي الغارق في الدماء كاملًا، له مقبض صغير حاولت جذبه ولكن قفل اكتشفت وجوده منعني من فتحه فأمرت الأهالي بالابتعاد وأنا أوجه مسدسي عند القفل ثم أطلقت رصاصة دمرت القفل وأمسكت أنا بفارغ الطلقة الملقى على الأرض لأضعه بجيبي بجانب الفارغ الذي التقطه من عند غرفة التربي كي أقدمهم عند التحقيق.

امتدت الأيادي تساعدنا على فتح الباب الحديدي حتى فتحناه ووجهنا الكشافات إلى داخل القبر .. ثم دوت صرخات الأهالي وبدأت حالات الإغماء.

هذا الذي وجدناه على سلم المقبرة لم يكن من الطبيعي أن تحتمل النظرة له لمدة طويلة، ذراعه اليمنى ممدودة أمامه واليسرى مقطوعة، له عين يسرى مفقوءة منتفخة تخرج منها مادة متجمدة على العين، ملامح وجهه ليست واضحة بسبب دماء جافة وجلطات عند الصدغ يظهر منها لحم وجهه، وقطرات من الدم الطازج على وجهه واضح

أن دم القتيل الذي كان ملقى على باب المقبرة تسرب إلى داخل المقبرة وسقطت قطرات منه على هذا الشاب .

أما المرعب فكان شعر رأسه الذي كان بلون الثلج !!! شعر أبيض تمامًا يقف منتصبًا؟ نظرت له بفزع في البداية أتبين تفاصيل هذا الشاب على ضوء الكشافات، ثم بدأت استنتج أن هذا الشاب دفن حيًا وظل داخل القبر حتى جئنا له .

مرت المفاجأة وقررت أن أمد يدي أمسك يد هذا الشاب الذي أغمض عينه اليمنى من الكشافات وهو يخرج أصوات من فمه وكأنه هو الذي صدم من مظهرنا .. أمسكت يده جيدًا وجذبته للأعلى وساعدني (عمر) وهو يمسك بقيه جسده العاري ونحن نخرجه للأعلى، في تلك اللحظة شعرت بصداع بسيط في رأسي وشعور بالشفقة على هذا الشاب وأنني أريد مساعدته بلا سبب؟؟؟

جسده مليء بالسحجات والجروح والكدمات، امرت الناس بأن يحضروا ماء بسرعة وأنا أراقب حركات الشاب الذي يحاول فتح عينه الوحيدة وينظر لنا . خلع أحدهم جلبابه ووضعه على جسد الشاب ليداري عورته، أعتقد أنه لا يرى لأنه يحرك عينه حركة عصبية، يا الله هذا الشاب دفن في القبر بدون أن يعلم أحد بـ .. نظرت إلى القبر بسرعة وأنا آمر الأهالي بأن ينزل أحدهم بكشاف بسرعة ليستكشف القبر من الداخل إن كان هناك أحياء أم لا، قلت الأمر حين جاءتني زجاجة ماء من يد أحدهم ففتحتها ورششت الماء على يدي وأنا ألمس وجه الشاب وأقرب يدي من شفتاه التي امتصت

أصابعي ولسانه يخرج من فمه لاهثًا، خرج الذي دخل ليستكشف القبر وقال أن القبر يحتوي على جثة داخل كفن وعظام كثيرة وتراب جثة، كان يقول هذا وهو يسد أنفه بيديه، أعدت رش الماء على يدي ووضعتها على شفتيه حتى لاحظت أنه يركز عينه اليمنى على وجهي، إنه يراني الآن، مد يده اليمنى وأمسك بملابسي وجذبني نحوه فقربت أذني من فمه متوقعًا أن يتكلم ولكنه قال بصوت خافض:

– " شربني مية، ماتخافش هاقدر اشرب "

أمسكت غطاء الزجاجة وصببت به بعض الماء ثم جعلته يعتدل على يدي وصببت الماء داخل فمه فلاحظت أنه يحاول الابتسام لي فابتسمت أنا على الفور له وأنا أناوله مزيد من الماء ولكنه اخذ يسعل بقوة وجسده يهتز .. صوت آذان الفجر يعلن في أقرب مسجد لنا فأجد أن ابتسامة الشاب تتسع ثم يمسك بملابسي مرة ثانية فأقرب أنا أذني على الفور لأسمع عبارات متقطعة:

– " اكتب .. اكتب كل كلمة هاقولها دلوقت .. أنا راجع من الموت .. علشان حاجة مهمة لازم أعملها "

اقشعر جسدي من عبارة عائد من الموت هذه، لماذا ربتت على رأسه وأنا أقول له بأني سأفعل، لا أعرف، لا أعلم حتى الآن لماذا نفذت ما قاله لي في تلك الليلة، لماذا أمرت من حولي بإحضار ورق وقلم بسرعة .. لماذا انتظرت معه لحين قدوم الإسعاف، لماذا عندما جاء الورق والقلم بعد ربع ساعة أمسكته وقربت أذني من فمه وهو يقول:

– " هاتلاقوا جوه التربة عظم جثة (محمد رفاعي الحوت) اتقتل من ست اشهر، قتله واحد اسمه (وليد) .. (محمد) كان عنده قهوة في الشرابية "

أخذ أنفاسه وأنا اقيد ما يقوله برعب و(عمر) يسند جسده

– " فيه جثة بنت تحت برضه اسمها (مريم سامح سليم) كانت عايشة في شبرا المظلات واختفت، خطفها واحد اسمه (محمد صابر محمد) بيشتغل مدرس ثانوي في الجيزة، باع جسمها لمدير مستشفى (جولدن بادي) اللي في مدينة نصر وهناك عملوها عمليات واخدوا منها أعضاء من جسمها "

كيف يعرف هذا الشاب كل تلك المعلومات، وجدتني أسجل كل ما يقوله بدون مناقشة حتى عندما أملى علي اسم طبيب أمراض نساء وتوليد وقال أنه يجهض الحوامل وقال على عنوانه كتبت ذلك بسرعة .. وفي النهاية قال:

– " أنا اسمي (خالد) "

اسمه كاسمي !!!

– " أنا و(حاتم) كنا في الأتوبيس اللي عمل حادثة مع قطر اليومين اللي فاتو "

تذكرت الحادثة بسرعة لأنني شاهدت أحداثها على التلفاز ولكن (خالد) قال بعد أن طلب بعض المياة وأعطيته إياها

– " المستشفى خبت عدد الجثث الحقيقي اللي راحت في الحادثة ودفنت الجثث المشوهة في مقابر الصدقة، وأنا و(حاتم) الله يرحمه

نقلونا هنا ودفنوا للتربي اللي اسمه (هادي) علشان يدفنا من غير تصريح "

ذهلت من كمية المعلومات التي قالها لي فقلت له بعدما فقت من ذهولي:

– " انت عرفت كل الحاجات دي ازاي "

رجه عينه الوحيده للقبر وابتسم وقال:

– " (حاتم) قاللي "

***

جاءت سيارة الاسعاف والأهالي يدلونها على الطريق إلينا وهم يحملون الجثة وضباط الشرطة يقفون عند غرفة التربي كما علمت والوضع اصبح تحت السيطرة فعلًا، إلا أن (خالد) نظر فجأة بعينه الوحيدة ناحية الأهالي فنظرت مثله ولكني لم افهم .. ركزت النظر فوجدت قط يقترب بحذر منا و(خالد) ينظر له هو؟؟؟ فجأة مد يده ناحيه القط فجرى القط ناحيته وأحد الأهالي يحاول ازاحته ولكن القط مصر على التقدم !!!! اقترب أكثر منا فوجدت (خالد) يبتسم للقط الذي بات على بعد متر واحد منا، هذا القط مفتوح الفم وهو ما لاحظته عندما اقترب من ضوء الكشاف، مفتوح الفم ويحمل داخله شيئًا ما !! اقترب في النهاية من يد (خالد) الممدودة، (خالد) ممد على الأرض ونصف جسده مغطى بالجلباب الذي أعطاه لنا أحد الأهالي وزميلي (عمر) يسنده من ظهره ليبقى ظهره مفرودًا معتدلًا وهو يمد يده ناحيه القط الذي توجه ناحية اليد ووضع فمه بها .

بالتحديد وضع ما سببه هنا، فقبض (خالد) على الشيء جيدًا أما القط نظر حوله للناس مفزوعًا وكأنه يفيق من غيبوبة ما ثم أطلق صوت مواء غاضب وهرب بسرعة وهو يتخبط في أرجل الناس؟؟

نظر لي (خالد) واستطاع ان يبتسم باجهاد وهنا وصلت عربة سيارة الاسعاف فمد (خالد) يده ناحيتي فاقتربت منه وامسكت يده فقال لي بصوت هامس:

– " خليك معايا ومتسبنيش "

تبع قوله بأن وضع في يدي ما كان في يده فأغلقها ورجال الاسعاف يرفعونه برفق ويضعونه على النقالة وهو مازال يوجه عينه الوحيدة لي وكأنه يطلب مني أن لا أتخلى عنه .

الفصل الثامن والعشرون

لم أتركه وذهبت وراء سيارة الاسعاف بسيارة الدورية حتى وصلنا لمستشفى الساحل وحملوا (خالد) لقسم الطوارئ وأنا أتحرك بجانبه في المستشفى وهو يتجه لقسم الطوارئ ومحلول معلق بيده اليمنى وممرض يمسح بعض الدم من حول بعض أجزاء جسده العارية . وهو بين الحين والآخر ينظر لي ويغمض عينه براحة واطمئنان .

دخل الغرفة ودخل وراءه طبيبان ثم تبعهم بعض الممرضين وممرضة تحمل محاليل بيدها .. خرج علي أحد الطبيبان اللذين كانا في الغرفة منذ قليل وهو يقول لي:

– " هو إيه حكايته؟ "

– " اتدفن غلط من يومين بعد حادثة اتوبيس اسكندرية اللي فاتت وفتحنا التربة من ساعة تقريبا صاحي وبالشكل ده؟ طبعًا ايده مش هاينفع ترجع تاني "

– " مش هاينفع خلاص دي عدى عليها مدة كبيرة ثم انت ما لاحظتش إن فيه حروق عند مكان القطع كأن الجرح انكوى بالنار من الحادثة، هو ايده لقيتوها جنبه؟ "

تذكرت انا لم ننتبه لذلك فأجبته أننا لم نبحث داخل القبر وانشغلنا بنقله للمستشفى، تركني بسرعة وهو يدخل للغرفة ولكنه قال قبل ان يعبر باب الغرفة:

– " مش هاينفع نديله بنج كلي لأن دكتور التخدير مش هنا وهو عنده هبوط واضح، على فكرة هو عمال يقول عايز يشوف الظابط .. أكيد يقصدك "

مرت نصف ساعة ووجدت الطبيب يخرج لي مرة أخرى وهو يقول بأن المريض سيدخل لجراحة في عينه اليسرى بسبب الشوائب التي تعلقت بها ولتنظيفها كي لا يتلوث جرحها وقال أن الجراحة ليست كبيرة ولن تأخذ الكثير وسيكون المخدر موضعي لذلك لن يحتاجوا لدكتور التخدير، بعد ساعة ونصف وجدت الممرضات ينقلن (خالد) على الحفة قادمين من المصعد ووجهه مغطى بالضمادات ويرتدي ملابس المرضى وجسده مليء بلاصقات الجروح .. ادخلوه في إحدى عنابر قسم العظام في الطابق الثالث ودخلت أنا معه، اعطوه حقنة أمامي وعلقوا له المحاليل ثم تركوه فجلست بجانبه وعينه اليمنى تتحرك حوله لتستكشف المكان، يظهر الاجهاد واضحًا على ملامحه وعلى جسده ولكنه اصبح احسن حالًا عن ما كان عند الفجر.

سألني عن الساعة فاجبته أنها الثامنة صباحًا .. سألني عن اسمي فاجبته أني (خالد)، ابتسم كعادته معي وقولت أنا:

– " إيه حكايتك يا (خالد)؟ "

تكلم بصعوبة وهو يقاوم النوم:

– " (خالد)، أنا ممكن ما يكونش قدامي كتير، أنا قربت من الموت أوي وربنا أراد رجوعي علشان خاطر حاجات مهمة لازم اعملها زي مقولتلك"

أنا اصدق هذا الشخص، هذا الشخص يعلم الكثير، يتكلم بطريقة من اقترب من الموت فعلًا .. استمعت لبقية كلامه.

– " أنا قلتلك على أسامي ناس وعناوينهم وجرايمهم، ودي وصية الناس اللي اتقتلوا واتدفنوا غدر في الخربة اللي كنت فيها، دي امانة انا حملتهالك لازم ترجع الحقوق لأصحابها وتبلغ اهل اللي ماتوا بالمكان اللي اندفنوا فيه، وتاخدوا حقوقهم من اللي عملوا فيهم كده .. مش باقي غيري أنا و(حاتم) "

– " (حاتم) مين؟ "

– " كان معايا في الحادثة، ووصاني وصية وحيدة ليه، وصاني اوصل امانة لواحد منهم عنده أول ما اخرج من القبر "

اخرجت من جيبي العلبة الحمراء التي أعطاني إياها (خالد) وأشرت لها إن كان يقصدها فحرك رأسه علامة الموافقة

– " أنا ما اعرفش اي تفاصيل عن اهل (حاتم)، ما اعرفش غير الشخص اللي أنا هاوصله الأمانة، علشان كده لازم أوصلهاله النهاردة "

– " انت ما ينفعش تتحرك من هنا لأن بعد ساعة بالكتير هاتكون النيابة هنا بتحقق معاك، قولي العنوان وأنا هاوصل الأمانة "

سعل (خالد) قليلًا ثم قال:

– " أرجوك لازم اوصل الأمانة دي دلوقت، ماينفعش اتأخر، دي امانة وصهاني واحد ميت، وصية ميت "

فكرت في كلامه الغير منطقي، يمكنني ان اتهمه بالجنون والحل وأنا مستريح الضمير ولكن مع ذلك لا يمكن ان أتجاهل كل ما يتكلم به، ثم لماذا أجد انني مجبر على تصديق كلماته؟ لماذا أشعر أن علي مساعدته؟

– " انت عايز تساعدني بس خايف "

قالها (خالد) فاندهشت كيف عرف هذا؟ فقلت:

– " وانت إيه اللي خلاك متأكد من كده؟ "

زادت ابتسامته وهو يقول:

– " (حاتم) أكد لي عليك "

– "؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟ "

– " مش وقته دلوقت المهم انا عايز اخرج من هنا وأروح اسكندرية "

– " اسكندرية؟؟؟؟ تخرج ازاي بس؟ ثم انت واخد حقنة دلوقت وباين عليك هاتنام "

نظر بعينه حوله ثم قال لي هامسًا:

– " ماتخافش عليا من الحقن انا درست حاجات كتير في العقاقير المنومة والمهدئة، كل اللي هاحتاجه منك تشتريلي من أي صيدلية دوا اسمه (هيدانتوين) علشان أفوق شوية، وعايز لبس البسه واحنا خارجين "

نسيت أنني ضابط شرطة ونسيت ما قد يحدث عندما اساعده ونسيت انه ربما يهذي وسيطرت علي فكرة واحدة هي مساعدته وتنفيذ طلباته .

***

– " أنا باقدر ازرع الذكريات والأوامر في عقول الناس القريبين من جسمي ، أي حد قريب من جسمي أقدر ازرع في دماغه ذكرى أو أمر، انت علشان جنبي قدرت اعمل معاك كل ده، وأي حد يبقى قريب مني أقدر أحط في دماغه فكرة أو امر أو ذكرى مش حقيقية "

***

أمسكت يده جيدًا وجذبته للأعلي وساعدني (عمر) وهو يمسك ببقيه جسده العاري ونحن نخرجه للأعلى، في تلك اللحظة شعرت بصداع بسيط في رأسي وشعور بالشفقة على هذا الشاب وأنني أريد مساعدته بلا سبب؟؟؟

***

خرجت من المستشفى بسرعة وأنا اتجه إلى اقرب صيدلية وابتاع منها هذا العقار والذي جعل الصيدلي يصحح لي الاسم بعد أن نطقته له بطريقة خاطئة، ثم خرجت على محل (.......) الذي يفتح ٢٤ ساعة في اليوم ودخلت لأبتاع حذاء وشراب وقميص وسروال وملابس داخلية ..كنت أختار مقاسات تقريبية تصلح لجسد (خالد)

الرفيع، عدت بعدها إلى المستشفى وأنا أحمل ما أحمله في حقيبة كبيرة حتى أن عامل الأمن لم يوقفني بسبب ملابسي الميري ونظرتي الحادة، صعدت لخالد وطلب هو أمام الجميع أن أسنده ليذهب إلى دورة المياة ففهمت ما يقصد .. استند علي حتى دخلنا دورة المياة وساعدته على ارتداء الملابس كاملة، ثم خرجت من دورة المياة وخرج هو معي نسير بطريقة طبيعية يستند علي وكأنه يغادر المستشفى وأنا أرافقه للخارج ولم يمنعنا أحد .

***

– " فيه احتمال كبير أخد جزا لما يعرفوا اللي عملته ده "

قلت العبارة لخالد الجالس بجانبي في السيارة فسمعته يضحك بصوت مكتوم مرهق ثم سعل بسبب الضحك وقال:

– " أنا آسف بس أنا محتاجك أوي "

– " انت متأكد من العنوان .. متأكد إنه جنب خالد بن الوليد؟ "

– " آه "

فجأة قال لي (خالد):

– " انت مش نفسك تعرف إيه اللي يخليك تساعدني؟ "

– "؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟"

– " فاكر لما خرجتني من التربة؟ مش حسيت إنك عايز تساعدني من غير سبب "

– " طبعًا فاكر "

نظرت له بحدة وأنا أحاول أن استشف ما يقصده فأكمل قائلًا

– " دلوقت أنا هاحكيلك على كل حاجة وعليك إنك تصدق كل حاجة وتفهمها "

اقتربنا من الإسكندرية والساعة قاربت على الثانية عشر ظهرًا وهاتفي مغلق واللاسلكي الخاص بالسيارة أيضًا .. ما أفعله هو الجنون بعينه .

***

الفصل التاسع والعشرون

حالة (داليا) ساءت بعد أن امتنعت عن الحديث ورفضت النوم، وشقيقها (دعاء) حالتها ليست أفضل بعد أن ظلت جالسة في الصالة تنظر للساعة وتضع رأسها على يديها، (دعاء) تجلس في الصالة تنظر أمامها شاردة أما (داليا) فوجدتها على فراشها تجلس مفتوحة العينين تنظر للسقف ولا تريد الكلام، الساعة الآن تخطت الثانية عشر ظهرًا وهذا كثير .. أكثر من المحتمل، كيف لأحد أن يتوقع ما يدور بعقل (دعاء) .. هل تتوقع أنها تسترجع الآن أحداث رواية (نصف ميت)، الكاتب الشاب (حازم) الذي يموت ويدفن ويترك لزوجته (داليا) ميراث كبير ورثه منذ أيام ولم يطلعها عليه وروايته الأخيرة المسماه (نصف ميت) والتي يترك فيها لزوجته دلائل وألغاز عليها أن تنتبه لها، (حازم) الذي يعاني من الصرع وتتحرك من حوله الأشياء، (حازم) الذي يدفن في مقابر عائلته يبدأ بإرسال الرسائل المبهمة لدينا والتي تكتشف أن تلك الرسائل تتشابه بل وتتطابق في بعض الحالات مع الرسائل الموجودة في روايته .

– دمية على شكل عروس تنزف دمًا وترسم كلمة اعتاد زوجها أن يكتبها دائمًا، كانت تلك الكلمة في الحقيقة هي استغاثة لداليا لعلها تنتبه أن زوجها يعذب، و(داليا) ظهر لها نفس الشكل تقريبًا ولكنها لم تفهم في البداية لأنها لم تتذكر تلك التفصيلة في الرواية الأصلية، إذن (حازم) يرسل لها أنه يعذب .

– وجه ضبابي لشخص يظهر لها في المرآة ومكتوب في الرواية أن عليها أن تحفظ هذا الوجة لأنه وجه النصف ميت، أما (دينا) فرأت في الصور التي التقطتها (دعاء) لها هذا الوجه الضبابي الدخاني إذن هذا هو وجه النصف ميت؟ هل هذه مصادفة؟

– ثلاث دقات متفرقة على ثلاثة مراحل تسمعها (دينا) من على باب الشقة وعندما يفتح شقيقها الباب لا يجد الطارق وذلك يتوافق مع الرواية التي تقول أن الثلاثة دقات هما الرمز الذي سيقوم به النصف ميت عند الحضور، و(داليا) تعرضت لنفس الموضوع .

– (حازم) الذي في الرواية يمتلك قدرة نفسية تمكنه من زراعة ذكريات مزيفة في العقول القريبة منه جسديًا لفترة معينة.

– تصحو (دينا) لتجد دماء على صدرها وتعرف أن الدماء ترمز بصفة ما إلى النصف ميت،و(داليا) استيقظت لتجد الدماء حول عينيها اليسرى .

انقطعت (دعاء) عن التفكير وهي تسمع جرس الباب يضرب، بالمهول لقد حان الموعد .. حان الموعد كما كان في الرواية ، الموعد الذي يأتي فيه النصف ميت والمرافق، لقد انتهت جميع الدلائل والرموز، جرت على الباب تفتحه بدون وعي ففزعت من وجه (خالد) المغطى بالضمادات وشعره الأبيض الغريب وبجانبه الشاب الذي يرتدي ملابس ضابط، يده اليسرى غير موجوده تراجعت للوراء فتقدم (خالد) لداخل الشقة وهو يستند على الضابط

– " (داليا) هنا؟ "

– " انتوا مين؟ "

تكلم (خالد):

– " من طرف (حاتم) "

صوت خطوات (داليا) تأتي من غرفتها وهي تنظر لخالد والضابط. كانت الهالات السوداء تحت عينيها واضحة وشعرها عقصته للأعلى وهي مرتدية ملابس المنزل .. جلست على مقعد الصالة وهي تقول بصوت مرهق:

– " أنا (داليا) كنت مستنياكم "

(خالد) اتجه للمقعد المقابل لها وهو يجلس عليه بمساعدة الضابط .. جلس الاثنان أمام بعضهما البعض و(خالد) يستخدم عينه الوحيدة في التحديق بداليا التي لم يظهر على ملامحها الدهشة من مظهره، أما عقل (دعاء) فراجع تفاصيل الرواية الغريبة .. (دينا) تكتشف من خلال مذكرات (حازم) أنه يستطيع إضافة أوامر لعقول من يقترب منه ويزرع أحاسيس وذكريات كثيرة في العقول ويبني على أساسها حياة كاملة لمن يزرع عنده الذكريات

(حازم) الذي يستطيع زرع الذكريات يختار عامل المقابر ليزرع في عقله حكاية وهمية يعيش عامل المقابر بها ليخبره (حازم) من خلالها عن الطريقة التي قتل بها .. (حازم) في الرواية قتل عن طريق السم من شقيق زوجته، اختار الكاتب عامل المقابر لأنه مريضًا بسرطان الرئة وكان من السهل زرع ذكريات زائفة في عقله لأنه قريب جدًا منه وفي نفس الوقت قريب من الموت أي بين الحياة والموت، يمكنه أن يتصل به الكاتب عقليًا ليوهمه بكل شيء ليوصل المعلومات إلى رأسه

– " انت النصف ميت "

قالتها (داليا) واجمة فأشار لها (خالد) بدون أن يتكلم برأسه علامة الموافقة .

ثم رفع يده اليمنى ودق بها على مسند مقعده الخشبي ثلاثة دقات متفرقة أعيدت ثلاث مرات كما أخبره (حاتم)، شهقت (دعاء) وهي تضع يدها على فمها من الرعب .

– " وانت المرافق اللي بتحميه وتوصله؟ "

قالتها (داليا) وهي تنظر للضابط الذي نظر لها هو الآخر بدون أن يتكلم .. (دعاء) تتذكر عندما استغل (حازم) صديق عامل المقابر القريب من القبر في زرع فكرة تنفيذ أوامر عامل القبر _ لأن صديق عامل المقابر كان قريب من قبر (حازم) أي قريب جسديًا منه فيمكنه زراعة الأفكار والأحاسيس _ كي يحميه من شقيق زوجته، ليصل بالدليل إلى الزوجة لأن عامل المقابر في آخر مراحل سرطان الرئة، صديق العامل سماه (حازم) باسم (المرافق)، ووصل النصف ميت إلى (دينا) هو والمرافق يحمل الدليل أنه من طرف زوجها وهو في بتألم من السرطان ويبصق الدماء ويوشك على الموت، تذكرت الزوجة الدماء على صدرها التي تعني أن النصف ميت يحمل في صدره علامة، العلامة هي إصابة النصف ميت بسرطان الرئة .

تأملت (داليا) وجه (خالد) قليلًا .. إنه هو نفس الوجه الدخاني الضبابي الذي ظهر لها في الصورة مع اختلاف أن الوجه الذي أمامها على وجهه وعينه اليسرى ضمادة كبيرة .. عينه اليسرى المصابة ..

لقد وجدت على عينيها بقعة دم، إذن فتلك هي العلامة التي يتميز بها النصف ميت، فجأة مد (خالد) يده اليمنى وهو ينتزع الضمادة بيضاء بصعوبة لتظهر ضمادة جروح تحتها تخفي عينيه .. أمسك بالعارض بقوة وهو ينتزعه وصوت خواره من الألم يخرج عاليًا و(دعاء) تبتعد للوراء و(خالد) يكمل ما يفعله وهو ينتزع لاصق الجروح وصوت ألمه يعلو حتى انتزعه من على عينيه ليسيل خط من الدماء من عينه اليسرى المغلقة، نظر لداليا طويلاً وهي تنظر له بلا خوف حتى قال لها وهو يلهث من التعب.

– " دلوقت أنا هاقول اللي (حاتم) قالهولي "

ظلت (داليا) صامتة فقال (خالد):

– " (حاتم) بيقولك: إنك وحشتيه أوي .. وإنه فاكر أول يوم شافك فيه في المكتبة، وكان بيصلك كل شوية زي ما كنتي بتصبله، كنتي جميلة أوي "

انحدرت دمعتان من وجه (داليا) الجامد فأكمل (خالد) وصوته يتهدج:

– " بيقول إن رواية (نصف ميت) فيها كلام عن المزيف، المزيف اللي بيزيف الذكريات هو (حاتم) نفسه .. وبيقولك إنه بيعتذرلك علشان كان نفسه يكون معاكي دلوقت ويوريكي المفاجأة اللي قالك عليها "

مد (خالد) يده اليمنى في جيبه ليخرج العلبة الحمراء ثم يبسط يده لداليا لتأخذها منه وتتأملها

– " طلب مني أني اديكي الدبل اللي في العلبة واللي قاللي أقولك عليها إن دي الدليل .. وإنه معاكي طول الوقت طول حياتك وحيحكي عشان تبقوا مع بعض "

ابتسمت (داليا) وهي تنظر للعلبة المغلقة التي غطتها الدماء وطبقت على نفسها .. فتحتها فوجدت دبلتان تفرقهما الدماء، ابتسمت واغرورقت عيناها بالدموع ثم تحول الابتسام لفرحة على وجهها وهي تنظر للدبل ثم تلمسها باصبعيها .. أغلقت العلبة وضمتها لصدرها بفرحة وهي تنظر إلى (خالد) الجالس ودموعها تغرق ملابسها وهي مازلت تبتسم

– " شكرًا "

كانت عينا (داليا) تنظران لعين (خالد) ولكن النظرة طالت والابتسامة ظلت والدموع بدأت تتوقف !!!

نادت عليها (دعاء) فلم تجب وظلت تنظر لخالد الجالس أمامها، جرت نحوها (دعاء) لتضع يدها على كتفها ولكن رأسها مال على كتفها قبل أن تصل إليها شقيقتها .. لقد ماتت (داليا)

صرخت (دعاء) وهي تحتضن شقيقتها وتبكي ..

***

الفصل الثلاثون

النهاية

مر أسبوع واليوم هو الثلاثاء ليلًا، داخل نفس المقابر التي حدثت بها الأحداث السابقة ، وعند القبر الذي دفن به (حاتم) و (نصف ميت) يقف (خالد) يستند على عكازه بيده اليمنى ويرتدي قميصًا أبيض اللون وكم القميص الأيسر موضوع داخل جيب سرواله الجينز وهناك ضمادة على عينه اليسرى وبعض بلاسترات الجروح على رقبته وعلى يده اليمنى، وبجانبه يقف (خالد) الضابط يرتدي ملابس ملكية (ملابس عادية) .

– " على فكرة فيه واحد زارني في المستشفى من يومين وقال لي إنه كان الناشر اللي كان هاينشر رواية (نصف ميت) لحاتم الله يرحمه وإنه عايز يتكلم معايا أول ما أخرج من المستشفى علشان يعرف مني حبة حاجات عن اللي حصل معايا أنا و(حاتم) "

قال (خالد) العبارة السابقة وهو ينظر إلى بوابة القبر المغلقة التي خرج منها حيًا منذ اسبوع .. كان ينظر إلى الدماء المتجمدة على باب القبر الحديدي وهو يتذكر لحظة خروجه من هذا القبر الموحش .

نظر (خالد) الضابط له وقال:

– " أنا مش عارف انت مصمم ليه على إنك تيجي هنا النهاردة بليل كده وتزور التربة بعد ما عرفت إنها بقت قاضية خلاص بعد ما

الحادثة دي بقت قضية كبيرة واتسجن فيها ناس ووصلت لمجلس الشعب .. دلوقت انت واقف قدام مقبرة فاضية، حاول تنسى اللي حصل فيها "

– " التربة دي كانت تربتي، كانت المكان اللي اتدفنت فيه وربما نجاتي تاني، برغم أني باترعب منها لكن بأحس فيها ساعات "

– " بتحس؟ "

– " بأحس إن التجربة اللي حصلت دي ماخرجتش منها بدراع مقطوع وشعر أبيض بس، حسيت إني خرجت منها بحياة تانية خالص كان فيه واحد كان جوة القبر مات وواحد تاني اللي طلع من القبر "

ابتسم فجأة (خالد) فنظر له (خالد) الضابط بدهشة فأكمل الأول قائلًا:

– " تعرف ان اسمي مشتق من الخلود ، يعني اسمي معناه اني مش هاموت .. "

لم يبتسم (خالد) وظل محدقًا في القبر أمامه لدقيقة ثم أدار الاثنان وجهيهما وغادرا المقبرة وهم يسيران بين صفوف المقابر حتى وصلا إلى غرفة عامل المقابر التي كان يسكنها (هادي) فوجدا عندها رجلًا في العقد الخامس من العمر يرتدي جلبابًا أبيض هرع ناحيتهما وهو يجري مستفسرًا عن دخولهم المقابر في هذا الوقت .

طمأنه (خالد) الضابط وهو يخرج بطاقته الشخصية له قائلًا له أنه يعلم بأمر القضية المثارة عن تلك المقابر وأنه أشرف بنفسه على

القبض على الجناة ليلة الحادث منذ اسبوع، هتش وبش الرجل وهو يحلف بالطلاق أن يتناولوا الشاي معه ولكنهم اعتذروا .

– " اوعوا تكونوا خايفين تخشوا الأردة من جوه علشان الناس اتقتلوا فيها ، دي كلها اشاعات "

رد عليه (خالد) الضابط يستفسر عن تلك الاشاعات فأخبره التربي الجديد بأن

– " اللي اتقتلوا روحهم بتمشى وسط الترب بليل ، بس ما تصدقوش الكلام ده ، دا حتى فيه ناس بتحلف إن روح (علي الطيب) موجودة بليل في المقابر ، وكمان بيقولوا انه بيتكلم "

– " (علي) ده اللي قتل الراجل اللي بينام مع الميتين "

– " أيوه هو يا باشا ، الله يكحم الراجل المدون ده مطرح ما راح ويرحم (علي) اللي طلع واد جدع بجد وكشف سر الجثث اللي كانت بتتباع من الترب والنجاسة اللي كانت بتحصل، الناس كلها مابقتش ليها سيرة غير (هادي) اللي بيقولوا إنه روحه بتمشي بليل في الترب خاصة بالذات "

فجأة رفع (خالد) رأسه امامه ونظر يمينًا ويسارًا وهو يحاول أن يحدد مصدر هذا الصوت .. صوت يسمعه كأنه صوت رجال يتكلمون بصوت خافض ، صوت خفيف كلماتهم هو ما يصله؟ نظر للتربي والضابط صديقه فوجد انهما لم يلحظا اي أصوات من خلال انشغالهم بالحديث عن ما حدث .

– " خليك انت هنا يا (خالد) أنا داخل اقرا الفاتحة مرة تانية وجاي تاني "

نظر له (خالد) والتربي بدهشة واستفسر (خالد) عن السبب وحاول التربي أن ينتبه عن الدخول ليلًا مرة أخرى بين صفوف المقابر في هذا الوقت ، ولكن الأصوات في أذن (خالد) جعلته يصمم على أن يدخل وحيدًا ، حتى أن التربي كاد أن يمنعه بيده ولكن (خالد) أوقف التربي وهو ينظر إلى (خالد) ويبتسم له بأن يدخل المقابر ليقرأ الفاتحة كما يريد .

كان رد فعل غريب من الضابط وهو يسمح لخالد بأن يدخل لداخل المقابر ليلًا بهذه الحالة ولكن (خالد) لم يكذب خبرًا واستند على عكازه وهو يدخل بين صفوف المقابر .

يتبع الصوت بأذنه ويحاول أن يسير في الشارع الذي تحيط به المقابر على جانبيه ليصل لمصدر الصوت .. عكازه يستند عليه ويسير ببطء وهو ينظر بعينه الوحيدة يمينًا ويسارًا محاولًا تحديد الصوت حتى وصل لتقاطع فدخل يسارًا في منطقة قبور مظلمة عن باقي المناطق بسبب الأشجار الكثيفة التي تحجب ضوء القمر ولكنها تظهر جزءًا بسيطًا من شواهد القبور، هناك رجل يسير بخطوات هادئة من بعيد في إتجاهه؟!! سار (خالد) هو الآخر بإتجاه الرجل الذي اقترب أكثر وهو يسير غير عابيء بخالد وكأنه يقصد اتجاه ما، عند نقطة في وسط شواهد القبور تقابل الاثنان في الطريق و(خالد) يسير بإتجاه والرجل يسير بإتجاه، وفي تلك اللحظة وعلى الضوء المتسرب من القمر حدد (خالد) هيئة الرجل، كان أسمر الوجه بشدة كأنه سواد خاص في

وجهه ومن بطنه تنزف دماء وتعرق قميص يرتديه!!! هذا الرجل تخطى (خالد) ولكنه وهو يتخطاه نظر في عينيه بعينيه البيضاء وسط وجهه الأسود طويلاً، وعندما تخطاه ظل ينظر لخالد لحظات قبل أن يدير وجهه ويسير بين الشواهد مكملاً طريقه في الظلام .. لم يشعر (خالد) بالخوف على قدر شعوره بالدهشة من الصوت الذي يعلو، إذن فهو يسير في الاتجاه الصحيح أكمل (خالد) طريقه يتبع الصوت الذي علا أكثر وهو يخطو في شارع جانبي على اليمين بين مجموعة مقابر أخرى حتى وجد منطقة خشالش ، الصوت يأتي من هنا، لقد وجد الصوت من أين يأتي بالتحديد، إن الصوت يأتي من ذلك المكان .. اقترب من المكان أكثر والدهشة تملؤه، لماذا يرى هذا الضوء الأبيض داخل المقابر؟!!!!

لماذا يسمع الأصوات بوضوح الآن .. إنه نوع من الإنشاد الديني؟؟ وتتخلله أصوات جميلة تقول (الله)؟؟؟ اقترب من المنطقة أكثر ، إنه حائط علقت عليه رخامة كتب عليها:

(مدافن عائلة أبو العينين ١٩٩٦)

اقترب أكثر حتى توقف مستندًا بعكازه يشاهد ما يحدث بعين متسعة من الدهشة .. كائنات بيضاء تقف وأمامها شيء أبيض والأصوات تزداد بطريقة منغمة وفجأة تحولت الأجساد البيضاء إلى أجساد لرجال يرتدون ملابس بيضاء ، والذي يقف أمامهم تحول لرجل ضخم مليح الوجه ذو وجه أبيض يشع نورًا على نور بياضه ويرتدي جلباب خلاف الباقين .. يرفع يده أمامه ويقول (الله) فيردد

الجمع وراءه الكلمة بنغمة !!!!! استمر ذلك للحظات حتى وجد الرجل يقول بصوت عذب يا حي يا قيوم والجمع يرد الله ، الجمع يعطون ظهورهم له وهم يتمايلون لليمين واليسار ويرددون بصوت جميل الله وكأنها تخرج من أعماق صدورهم ، فجأة توقف أحد رجال الجمع الذين يتمايلون ونظر خلفه لخالد .

لقد كان هو (علي الطيب) ينظر لخالد ويبتسم له .. وبرغم أن (خالد) لم يعرفه ولكنه ابتسم له أيضًا، دامت الابتسامة لحظات وتحركت شفاه (علي) الذي يشع وجهه بياضًا لتردد مع الباقين الله وينظر أمامه ويتمايل معهم .

***

تمت بحمد الله

حسن الجندي

مخطوطة بن إسحاق

(مدينة الموتى)

اجتمع الساحر بالأربعة فقراء ثم جعلهم يحفظون هذه الكلمات:

حامها طولام فقدشينا يوهايط حمسائيل يصيفيدش إحرق كل من عصى أمرك بحق إصطفار و بيوم عمياخ وبحياة هليع بحق إصطفار وبيوم عمياخ وبحياة هليع يا من تسمعون في وادي القرليم بحق سيدكم وبحق مقيلكم لكوا قيد بن ذاعات فيدعاهاط موسماعل حتى إذا حضرتم أحرقم الجبار بحق وصيل مشموهوه.

فقال (يوسف):

– "ويبدو أنه قد جرت أقدامنا في مسألة أقوى منا بمراحل، واعتقد صدقاً ان تلك المخطوطة هي مفتاح لعالم الجن، أو إذا أردنا التحديد هي مفتاح لبوابات معينة في عالم الجن لم نكون فكرة كاملة عنها"

الجـــزار

لكن فجأة شعر (صابر) بيد الرجل اليسرى تطــوق فمــه وتسحب رأسه للخلف بشدة فحاول أن يتملص وهو يطلق أنيناً ويهز جسده محاولاً المقاومة ولكن الرجل قرب فمه مــن أذنــه اليسرى وقال بخفوت :

- " علي أن أعترف أنني فقدت شهيتي للطعام ولا أرغــب بتذوقك ولذلك سأكتفي بشيء بسيط هذه الليلة .. أما بالنسبة لسؤالك عن شخصيتي .. "

توقف (صابر) عن الحركة والتملص وهو يستمع

- " أنا من أتيت من أعماق عقلي .. أنا الرغبة مجسدة ، أنا من أردت أن أكونه وأخاف أن أكونه .. أنا المسخ الذي عــاد لكم "

فجأة شعر (صابر) بمحقن يخترق عنقه وسائلاً مــا يــدخل لجسده عن طريق أوردته ، ثم شعر بارتخاء في عضلاته والرجــل يكمل كلماته قائلاً :

- " أنا (آدم) "

***

لقد فهم ، شرايين يده قطعت وسيموت في خلال دقائق على الأكثر، أخرج من فمه صوتاً كالخوار مرة أخرى وهو يشعر هذه المرة بوعيه يتسرب منه ، هل سيموت الآن ؟ جاءت في رأســه فكرة أسهل لينفذ بها ما يريد ، أخذ يسحب الســجادة بيــده اليسرى كي يصل لنهايتها وبالفعل وصلت ليديه بداية السجادة التي رفع بدايتها من على الأرض ليتحسس البلاط البارد بيــده اليسرى .

غاب دقيقة عن الوعي ولكنه أفاق مرة أخرى وهو يــرتعش من فكرة أن يموت هكذا ، مد يده اليسرى ناحية يده اليمنى التي تنزف وبلل إصبعه ثم وضع الإصبع على البلاط وكتــب بخــط مرتعش

(ادم عاد)

مخطوطة بن إسحاق

(المرتد)

((قال الدكتور (حسام) بنفاذ صبر لمساعدة:

– " اذهب لترى ماذا يحدث في المولدات "

مياااو

نظر الجميع بدهشة لمصدر الصوت ليروا قطاً أسود اللون يقف متحفزاً أمام الباب وهو ينظر لهم .. هنا شهق (خالد) وهو يتراجع للخلف وهو يقول:

– " مستحيل .. نفس القط !!! "

ابتسم القط مرة أخرى كاشفاً عن أسنانه وهو ينظر للواقفين ، هنا انطفأت الأضواء في الغرفة وسمع الجميع صوت زئير شديد ثم احسوا بالمنضدة التي ترقد عليها الجثة تتحرك من موضعها

شعر (خالد) بصوت يحدثه في أذنه مباشرة كأنه يخبره بسر، يقول الصوت بخفوت:

– " سأستعير الجثث لأيام يا صديقي "

وعادت الإضاءة مرة ثانية

ولكن لا أثر للقط أو للجثة أو للتقارير التي كانت بجوار منضدة التشريح ..!!!))

ماريا

(قصة الصوفي والراهبة)

((قلب (محمد) المجلدين بين يديه يتأملهما، كانا عبارة عن مجلدان كبيران ثقيلان مغلفان بجلد أسود ومنقوش عليه رسم لمفتاح الحياة الرمز الشهير عند القدماء المصريين والذي يشبه رمز الصليب، رفع (محمد) عينيه عن المجلدات مندهشاً بعدما وجد مفتاح الحياة على المجلدان فقال له (راغب):

– " لا تسألني عن سبب وضع رمز مفتاح الحياة على المخطوطات المسيحية لأنني لن أجيبك، أنت تمسك بالمخطوطات الناقصة من المجموعة التي يسميها العلماء مخطوطات نجع حمادي، وما تملكه الآن قنبلة لو انفجرت ستهدم الكثير والكثير، أرجوك عدني أن لا تنشر تلك المخطوطات في حياتي، لا أريد أن يقتصوا من عائلتي، ولا أريد أن أرى ما بني في الآلاف السنين يهدم أمامي وأكون أنا السبب "

– " أعدك يا (راغب) "

– " لو سألني أحدهم عن المخطوطات سأقول أنها سرقت "

– " لا يا صديقي بل قل للقس ما رأيت من مظهري واذكر له ملابسي ومسحتي وكلماتي وحديثي وقل له انني أجبرتك

وهددتك بقتل أطفالك وأنني كنت سأقتلهم أمام عينيك، واذكر له ما رأيت من تغير وجهي "

– " لن يصدقني فهذا غير معقول "

ابتسم (محمد) بخبث وقال:

– " قل للقس أن من زارني وهددني قال أن اسمه (محمد عبد العال الغول)، وأنصحك أن تنظر خلفك الآن "

نظر (راغب) وراءه فجأة فلم يجد شيئاً فعاد لينظر لمحمد ليسأله ولكنه لم يجده أمامه؟؟!!!!! لقد اختفى بلا صوت !!))

***

التعويذة

– " ماما ماما قومي يا ماما فيه أصوات وحشة "

قالت (سميرة) الطفلة ذات الثمانية أعوام العبارة السابقة وهي تهز والدتها لتصحو فاستيقظت الأم بنصف عين وهي تسأل عن ما يحدث، استيقظ زوجها وهو ينهض مفزوعاً ليسأل الطفلة لكنه سكت لحظات هو والأم ينصتان لصوت ما كي يتأكدان مما يسمعا، صوت بكاء واضح ونحيب قريب من منزلهم ، غادر الرجل الفراش بسرعة وهو يمسك بساعته الموضوعة بجانب الفراش .. الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، توجه للشرفة لينظر يميناً ثم يساراً وفجأة تجمدت عينيه على تلك الفتاة التي تأتي من ناحية المنزل المجاور البعيد ، استغرقت نظرته ثوان وهو يرى بوابة المنزل المهجور مفتوحة وفتاة ترتدي حجاباً وتغطي وجهها تسير في الشارع وهي تبكي وتتخبط وتهتز كالسكارى !!!! هذا هو البيت المهجور الذي تدور حوله الشائعات ، ما الذي جعل فتاة تأتي من اتجاهه وتبكي بهذا الشكل ، دقق النظر جيداً يحاول أن يخترق الظلام الذي يحيط بالفتاة ، ملابس الفتاة مليئة بالدماء ويديها أيضاً !!!!!!

***

((التقط (حامد) أنفاسه أخيراً وحبات العرق تقطر من جبينه لتختلط بالدماء وتسقط على الأرض مصطدمة بجثة (رامي) التي امتلئت عن آخرها بالجروح والخدوش والكسور .. ابتسم (حامد) ناظراً لخدامه من الجان الذين يدورون بسرعة حول الجثة ، أخيراً استطاع أن يقتل (ملاك جهنم) .. خصم ليس بالهين هو، بالفعل كل الأساطير التي رويت عنه حقيقية وخاصة بعد انتهاء الصراع بينه وبين الصغير الآن

تحرك ببطء وهو يئن ويدور حول جثة (رامي) يتأملها .. ذراعه التي أصابها كسر من المرفق فطويت بالعكس ، الدماء التي تسيل من صدره بغزارة ، ذلك الفك المكسور الذي فتح لآخره ويميل لليسار قليلاً باتجاه الكسر ، هذا الجرح الكبير في جبهته والذي سالت منه كمية كبيرة من الدماء أغرقت وجهه وأخفت ملامحه .. حتى قدماه لم تسلم من الكسور فطويت القدم اليمنى تحت جسده في وضع يظهر ذلك الكسر العنيف الذي أصابها ، زادت ابتسامة (حامد) وهو يقول :

– " رأيك إيه دلوقت يا صاحبي؟ الشيطان كان عنده حق لما وعدك إن القوانين الالهية مابتمشيش عليك ؟ ماتردش ليه ؟ "

اتسعت فجأة عين (حامد) وتراجع للخلف بسرعة وهو يسمع صوت طقطقة عنيفة تصدر من الجثة ، صوت يشبه تحطم العظام ، ولكن المصيبة أنه ليس تحطماً للعظام !!!!! انطلقت صرخة من فم (حامد) وهو يرى مرفق الجثة يصدر طقطقة ويتحرك تلقائياً وهو يأخذ وضعه الطبيعي وكأنه يلتئم ، قدمه هي الأخرى تصدر نفس الطقطقة وتعود لوضعها الطبيعي وكأنها بلا كسور .. الجروح في وجه الجثة تغلق وكأنها خدعة في فيلم رعب ، جرح صدره يغلق والدماء تقف منه ، تراجع (حامد) للوراء وهو يهز رأسه غير مصدق وجسد (رامي) تنتهي منه الجروح وصوت عظامه يصدر الطقطقة والعظام تعود لوضعها مرة أخرى ... وفي النهاية خرج صوت عنيف من فكه المكسور وهو يعود لطبيعته ، عند ذلك الحد كان (حامد) قد التصق بالحائط من الرعب وعينيه تنظر بذهول لرامي الذي قام من على الأرض بهدوء وهو يتنفس بعمق وهو مازال مغمض العينين :

– " آسف اني اتأخرت في الرد على أسئلتك ، بالنسبة للإجابة على سؤالك .. أيوة حقيقي القوانين الالهية مابتمشيش عليا لأن قوانين ربك مش هاتمنعني "

قال (رامي) تلك العبارة وهو يقترب من موضع (حامد) الذي ظل يحتمي بالجدار في رعب و(رامي) يقترب أكثر وهو مغمض العينين وصوت الصفير يدوي مرة أخرى بعنف ليعلن عن

لهاية (حامد) ، فجأة اختفى ((رامي)) من أمام عين (حامد) ليظهر أمامه فجأة ويمسك بتلابيبه مقرباً عينيه المغلقة من عينه .. مرت ثوانٍ على هذا الوضع حتى فتح ((رامي)) عينيه ليظهر في موضعهما بياض تام ويقول وهو يبتسم :

– " لو سمحت .. بلغ سلامي لحبايبي اللي بعتهم لجهنم ، وقولهم لو طلع فيه جهنم بجد فهنتقابل في الآخر كلنا ويتجمع الحبايب، ولو مفيش جهنم يبقى ادعولي يبقى في المكان اللي انتوا فيه دلوقت "

قال تلك العبارة وهو يبتسم وحدقتا عينيه البيضاء تتسع أكثر بينما أخذ (حامد) في الصراخ وصوت الصفير يعلو أكثر وأكثر وخدام الجان يـــ ....))

***